خضر عباس الصالحي



شاعرية الصافي

ان الروائع الشعرية التي ابتكرتها عبقرية الصافي تعد خطوة موفقة في مجال تطور الشعر ، وقد حقق به الشعر العربي المعاصر الحلم المنشود على اوسع نطاق واتم صورة واكمل وجه .

al-Ṣāliḥī, Khiḍr ʿAbbās

خضر عباس الصالحي

Shāʿiriyat al-Ṣāfī

شاعرية الصافي

دراسة أدبية

ان الروائع الشعرية التي ابتكرتها عبقرية الصافي تعد خطوة موفقة في مجال تطور الشعر وقد حقق عليه الشعر العربي المعاصر الحلم المنشود على أوسع نطاق وأتم صورة وأكمل وجه ...

الطبعة الاولى
١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م

مطبعة المعارف - بغداد

أحمد الصافي النجفي

شـــاعر الحكمـــة



شاعر في كل روض غرّدا — تاركاً في هـذه الدنيا صدى
شاعر حلو الرؤى أحلامـه — تتجلى مثـل لألاء النـدى
بلبل يخلب أفكـار الورى — بأغـاني حبـه ان أنشـــدا
فيلسوف له من وجـدانـه — مصدر الوحي وينبوع الهدى
مصلـح عـالـج في آرائـه — كل ســوء لشقـانا حشّـدا
وحكيم شخّص الـداء الذي — لم نزل من هوله نحيا سدى
وأديـب عبقـريّ لامـــع — لأماني شعبه قـد جسّـــدا
عـربيّ الـروح حـر ثائر — نفسه السمحة طابت محتدا
علويّ النسب العالي الذي — لم يلد الا الشجاع الأصيـدا
خلقه الفنيّ في إبداعـه — لمعـاني شعرنا قـد جـدّدا
مفرد في كل معنى صاغـــه — انـه في شـعره مـا قلّـدا
طاول الأنجم في أمجــاده — مجده الشعريّ أضحى أوحدا

صيتـه الـذائع في أوساطنا ملأ الأنفس فخـراً سرمدا
وإليـه ليس يرقى شـاعـر انـه في كل لـون جـوّدا
ينتمي للنجف الأعلى الذي يتحدّى كل طاغٍ أو عـدا
هو في الروح وفي أطواره لـم يكن الانسيجاً مفـردا
بين غابات الشذا ، في ظلها بأناشـيد الهـوى قد زغردا
واذا ثـار عـلى حسـاده كخضمٍ حين يرغي مزبـدا
دعـم العدل وأرسى ركنـه وعلى الباطل حرباً أوقـدا
ولأجل الشعب أفنى نفسـه وعـلى الطامع سيفاً جرّدا
كبراكين اللظى ان فجرت وهزيم الرعـد دوّى مرعدا
مؤمن بـالله لـكنْ غـيره عندما صار شهيراً ألحـدا
وغريبـاً عاش عن أوطانـه انـه عـن شـعبه قـد أبعدا
لـم يطأطيء لعميلٍ هامـه رغم ما عاناه من كيد العدى
هاجم الأوضاع في أشعـاره لم يخف سجناً ولا هاب الردى
كل رأي هـادف غنّى بـه ولأوهـام دعيّ فنّـدا
في سبيل الحق كم لاقى الأذى كلمـا البـاطل فينـا عربدا
واهب طاقاته ، كل القـوى للجماهير وما غـلّ اليـدا
هـو لـو لا مبدأ من أجله بات يصبو للتفاني والفـدا
لم يذق يوماً تباريح الأسى لا ولا عن أهله قد شـرّدا
وغـدا اليـوم ثرياً موسـراً يملك المال ويجني المقصـدا
واذا جرّد من ثـوب الغنى فلقـد حـاز العلى والسؤددا
في غنى النفس تراءى رافلاً ومن الثروة أمسـى أجـردا
عاش في غربته جمّ الابـا ولأهل الفكر أضحى سيدا
ذكـره المشـرق في آفاقنـا كوكب في قلب ليلٍ قد بدا
للفرات العذب مأوى روحه شفّه الشوق الذي جاز المدى
فمتى العود الى أرض الحمى فليكُ اليوم ولا يبقى غـدا
شـاعر الحكمـة في آثـاره ماله ندّ وأعني « أحمـدا »

الاهداء

الى كل أديب مغمور يعيش في زوايا النسيان ، وصحارى الضياع ، وقبور الاهمال ... ويصارع أهوال الفاقة والفقر والبؤس ، ويكابد مرارة الحرمان والعذاب والتشرد ، على الرغم مما يملكه من عبقرية خلاقة تسمو الى الذرى العالية ، وما يبدعه في مجالات الفن من خوالد الاعمال الأدبية التي تضفي الجمال والرونق على الحياة ، وترفع المجتمع الى قمم الكمال ...!

الى كل شاعر يذيب شبابه النضر كالشمعة المحترقة في عملية الخلق الفني ، ومخاض التجربة الشعورية ، ويسكب دمه المستعر في عروق القصيدة لتجيء حافلة بالابداع والتدفق والروعة ...!

الى كل فنان من أصحاب العقيدة والمباديء والذي رفض عيش الرغادة والنعيم والبذخ على حساب مصلحة الوطن ، والتفريط بحقوقه ، ورضي أن يظل محارباً في رزقه ، مطارداً في حياته ، قاضياً أكثر سني عمره محتجزاً في مركز الاعتقال ، وغياهب السجون ، ليكون قدوة مثلى للناس الطيبين الاخيار ...!

الى المناضلين الاحرار من أمثال الفدائي البطل الحاج نجم البقال وزملائه الشجعان الذين افتدوا شعبهم بأرواحهم الغالية ، فصعدوا المشانق وعلى شفاههم تسطع ابتسامات الامل بمستقبل امتهم العربية الزاهر ...!

فاختطوا بتضحياتهم الكبيرة ودمائهم الزكية طريق الحرية لقادة الزحف العربي المقدس لتحقيق الوحدة العربية الكبرى ...!

الى جيل المأساة ، جيلنا العربي المعاصر الذي شهد ضياع فلسطين ، والذي يمر بفترة انبعاث تنفجر لها أرضنا العربية كلها حمماً تحت أقدام الغزاة المستبدين لاسترجاع حقنا الشرعي الصراح في فلسطيننا العزيزة وعودة اللاجئين العرب الى ديارهم المغتصبة بقوة النار والحديد ...!

الى كل هؤلاء الناس من أبناء امتي العربية المجيدة أهدي هذا الكتاب المتواضع .

المقدمة

بعد احتلال الانكليز لبغداد في السابع عشر من شهر آذار سنة «١٩١٧» الميلادية ، تمكنوا من فرض سيطرتهم على أكثر مدن العراق ، وضمنها النجف ا لاشرف • وذلك بعد وقوع حروب دامية بينهم وبين العراقيين والاتراك •••!

وكان تأسيس « جمعية النهضة » السرية في النجف مظهراً من مظاهر الوعي السياسي الذي ألهب النجفيين كلهم بنار النضال ، وخلق جيلا من الشباب المتشرب بفكرة القومية العربية ••• وقد أوجدت لها فروعا في الكوفة وأبي صخير والحيرة والشامية ، وأعدت مائتين من الفتيان الفدائيين سمتهم « الحزب الدموي » وقسمتهم الى ثلاث كتل هي : كتلة كاظم صبي ، وكتلة عباس الرماحي ، وكتلة الحاج نجم البقال ، لاشعال نيران الثورة في أرجاء العراق ، والقذف بالانكليز الى ما وراء الحدود •••!

الا ان الحاج نجم البقال تناهى الى سمعه ان دائرة الاستخبارات الانكليزية كانت على علم بمقرات الجمعية ، وانها أخذت الاستعدادات الكافية للقبض على أعضائها قبل موعد التنفيذ ، فقرر الهجوم على سراي الحكومة ، وأمر رفقه في الكفاح أن يلبسوا كوفيات بيضاء حتى يوهموا الانكليز بأنهم من الشرطة المحلية « الشبانة » فيتم تنفيذ الخطة الجهنمية الجريئة بسهولة ويسر •••! وقسمهم الى فئتين : الاولى تهجم على السراي

وعددها عشرون مقاتلا ، والثانية تبقى كقوة احتياطية تحرس المهاجمين ...

وبعد منتصف ليلة التاسع عشر من شهر آذار سنة «١٩١٨» الميلادية، كان هناك سبعة عشر رجلا ، يحمل كل واحد منهم خنجراً في حزامه ، ومسدسا في جانبه ، وأسرع الحاج نجم يطرق باب السراي ... فسأله الحارس الهندي عن هويته فأجابه قائلا :

ـ أنا حسن المصراوي ، جئت لأمر مهم حاملا معي البريد من الشامية ...

وما أن فتح الحارس الهندي الباب حتى عاجله محسن أبو غنيم بطعنة نجلاء من خنجره فهوى على الارض جثة هامدة ...!

وما عتم الكابتن مارشال وضابطان كانا معه أن صوبوا النار على المهاجمين الذين كانوا أخف منهم حركة ، اذ أطلقوا رصاص مسدساتهم على الثلاثة ، فقتل مارشال بيد الحاج نجم البقال ، كما قتل الضابطان الآخران ...!

وكان المهاجمون الفدائيون هم : الحاج نجم البقال ، ومحسن أبو غنيم ، ومجيد الحاج مهدي أبو زعيل ، وحميد حبيان ، وعبد حميمه ، وعلوان البو دليم ، وعبد الحمامجي ، وسعد العامري ، وصادق الاديب ، وشمران العامري ، وحميد ياسين أبو البزي ، والسيد جعفر السيد حسن الصايغ ، وحسن جوزي ، وحبيب بن جاسم خضير ، وخطار سلطان البديري ، وجودي ناجي ، وجاسم السيد محمد علي طبار الهوى ...!

وبعد قتل الكابتن مارشال عين الانكليز الميجر بلفور حاكماً على النجف ، حيث أطلق عليه بعض أعضاء « جمعية النهضة » النار أثناء جولته في السوق الكبير فنجا بأعجوبة ، وطلب النجدة ، فتركت الجيوش الانكليزية سوح القتال في جهة سامراء وغيرها ، والتحقت بجهة الكوفة ، وأحاطت

النجف من كل جانب ، وكان يقدر عددها بخمس وأربعين الفاً ...!

وحين بلغ أمد الحصار شهراً ونصف الشهر عمت المجاعة في المدينة ، وشرب الناس ماء الآبار ، وأكلوا لحوم الحمير ، وقد مات كثير منهم جوعاً ، وهلكت أغلب الحيوانات ، وخلافا للقوانين الدولية عمد الانكليز على ردم الآبار والقناة التى كانت توصل ماء الفرات الى النجف ، فنشر الموت ظله على المدينة ...!

وبعد أن احتل الانكليز المواقع الستراتيجية ، اختبأ الثوار في السراديب العميقة التي تشتهر بها مدينة النجف ، وكانت نهاية مؤلمة اذ قبض المستعمرون على مئة وخمسين مجاهداً ، جرت محاكمتهم الصورية في مجلس عرفي عسكري حيث أصدر أحكاماً قاسية فحكم على مئة وسبعة منهم بالنفي الى الهند ، وعلى أحد عشر آخرين بالاعدام اذ ارتقوا أعواد المشانق بأقدام ثابتة وهم الحاج نجم البقال ، وكاظم صبي ، وعباس علي الرماحي وأخوه علوان الرماحي ، وكريم راضي ، وأخواه أحمد ومحسن وخادمهم سعيد ، ومحسن أبو غنيم ، ومجيد الحاج مهدي أبو زعيبل ، وجودي ناجي ....

وكانت ثورة النجف الجبارة التي اشترك فيها نخبة طيبة من رجال الدين كالسيد محمد علي بحر العلوم ، والشيخ محمد جواد الجزائري قد مهدت السبل لثورة العشرين المجيدة التي فجرها الزعيم الديني الثائر محمد تقي الشيرازي في الثلاثين من شهر حزيران سنة ١٩٢٠ الميلادية ضد الاحتلال الانكليزي الغاشم ...

وكانت الجيوش البريطانية الرابضة على صعيد الرافدين قد لقيت من الثوار العراقيين أشد الهجمات الضارية في كل الجبهات الحربية ، مما اضطرها أن تولي الادبار تاركة وراءها العديد من القتلى والجرحى ...!

وفي النجف الأشرف مهد النضـال ، ومشعل الثورة اكتحلت عينا شاعرنا الكبير أحمد صافي النجفي لأول مرة بنور الحياة ، وفي هذه البيئة الثورية المتمردة على الظلم والطغيان نشأ وترعرع ، والتي كانت بمثابة تربة خصبة استطاعت أن تغذي بذرة الشاعرية فيه وتنميها ، واندفق حبه للثورة ، وانبثقت فلسفته النزاعة الى نبذ التقاليد القديمة ، والجهر بنقد الاوضـاع السيئة ، والجرأة في ابداء الآراء المتحررة ، والصراحة فى قول الحقيقـة المرة ، ومحاربة البغي والعدوان ، والتحلي بالاخلاق السامية الرفيعة كالكرامة والاباء والانفة ...!

ان هذه الاحداث المثيرة التي اجتاحت مدينة النجف هي التي تفاعلت وساعدت في تكوين شخصية الصافي التي ظلت حتى هذه اللحظات نموذجاً للعصامية والطموح ، ومثالاً للتطلع الانساني نحو التطور ...!

وقد وهبه الله قوة التفكير والابداع ، وبلاغة الحجـة والاقنـاع ، وأحس في أعماق نفسه كشاعر يعبر عن تطلعاته فى الحياة ، عظم التبعات الملقاة على عاتقه ، فينبغي عليه أن لا يستكين الى الراحة ، ويخلد الى الكسل ، بعد أن رأى في ثورة العشرين التمثيل الصحيح لارادة الشعب العربي في العراق ، ولمس منها التضحية الصادقة ، فأسهم فيها بعمق وايجابية ، فهز العرب بصوته المدوّي ، ونبه الغافلين ، ووجه أذهان المواطنين الى التفكير الحر ، وغذى النفوس بضروب الشجاعة ، وشق بشعره آفاقاً رحبة من المعرفة ، وتخطى كل ما اعترضه من عقبـات ، وسعى الى معالجـة أدواء المجتمع ، وتعميق الدعوة الى الثورة على القسوة التي تتمثل في الحكـام الانكليز وصنائعهم الذين يريدون اعادة عجلة التاريخ الى الوراء ، والذين يطعنون امتهم في صميم كيانها القومي ..!

وشرع الانكليز وجواسيسهم يطاردونه ، ويشددون عليه الخنادق ،

فاضطر أخيراً مع صديقه المجاهد الوطني الخالد المرحوم السيد سعد صالح الى الفرار من النجف حتى بلغا حدود ايران ... فاتجه السيد سعد صالح الى العمارة ، ومنها ذهب الى الكويت ،ثم عاد الى العراق ...!

وأما الصافي فقد لجأ الى ربوع ايران ليضرب في الأرض الواسعة بحثاً عن الرزق الحلال ، شأن النفوس الكبيرة التي تأبى الذل ، ولا تطيق الهوان ، وقد أقام في طهران مدة ثماني سنوات .

ومنذ سنة «١٩٣٦» الميلادية وقد كنت طالباً صغيراً في مدرسة باب السيف الابتدائية ببغداد وأنا أواصل قراءة شعر الصافي ، حيث كان معلم اللغة العربية الاستاذ ابراهيم عبدالجبار القزاز يملي علينا في دروس المحفوظات مقطوعات من شعره ، ويطلب منا حفظها وانشادها أثناء تحية العلم العراقي صباح كل يوم خميس ...!

وأحببت شعر الصافي من كل أعماق قلبي ، وغذيت به جوع فكري ووجداني واحساسي ، ورويت به ظمأ روحي وعاطفتي وشعوري ، واقتنيت دواوينه التي كانت تقذف بها المطابع العربية من حين لآخر ، فأجدها تحفل بنماذج رائعة من معاني الاخلاق التي ترتفع بالروح ، وتسمو بالنفس الى الذرى الشامخة ...!

ووجدت أدبه عالمياً يتخطى الحواجز ، ويرتفع الى آفاق عالية من الفن والابداع ، لما فيه من أجواء روحية ، كنوز فكرية ، وتجارب حية توفر فيها أعلى درجات المعاناة الحقيقية ، وخصب العطاء ، كما تنعكس فيه سمات النفس العربية ، ويمتاز بالتحليق في الخيال ، وجمال التصوير ، وقوة التأثير ، ويتصف باشراقة الديباجة ، وجودة السبك ، واتساق النغم... كل هذه المزايا الفريدة مكنته من اجتذاب الجيل المعاصر اليه ...!

وكلما اطالع شعره أتحسس أنفاسه الحارة ، ونبضات قلبه الممزق ،

وبؤسه الذى يجثم عليه ، وأطياف ماضيه الخصيب ...!

وأتسقط باعجاب كبير أخبار أمجاده ومواقفه ونضالاته في سورية ولبنان ، وشروده في دروب الغربة والوحدة ، ونهاية رحلته الاخيرة في مدينة « صيدا » العربية المطلة على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وهي تحتضن اليوم شاعرنا العراقي الملهم كأم رؤوم يفيض قلبها بالحنان والنبل والحب ، وتحدب عليه وهو في شيخوخته المباركة يكابد الاسقام والنكران والوحشة، ولكنه ما يزال شامخا شموخ الطود الأشم لا يطوله مطاول في عزة النفس، وعفة الروح ، وطهارة الذيل ، ونصاعة اليد ، ونقاء السيرة ...!

كل هذه البواعث هي التي حفزتني الى تأليف هذا الكتاب عن الشاعر العراقي المجدد أحمد الصافي النجفي اسهاماً مني في تعريف شبابنا العربي الواعي بشاعر كبير من شعراء العروبة الأفذاذ الذين خلدوا أسماءهم في عداد العباقرة الموهوبين الذين سطروا أسفار التاريخ ...!

واني اذ أؤمن بالنقد كوسيلة ناجحة لتطوير الأدب ، واعتبره في حد ذاته من العوامل الاساسية في دفع الادباء الى المزيد من ابداء النشاطات الفكرية ، واثارة عزائمهم في مواصلة الانتاج والابتكار والبحث ... أرجو من نقادنا الاضطلاع بمهمتهم النبيلة على الوجه الأكمل ، والاقلاع عن احداث بلبلة خطيرة في جونا الفكري ،وانشقاق متأزم في وجهات النظر ، والسير وراء كل حركة لئيمة ... فان هذه البادرة المؤسفة تنذر بتصدع هائل في حياتنا الأدبية ، وترمي الى عدم تمكين المؤلفين من اداء رسالتهم المقدسة ...!

وما من شيء يبدو لنا أشد ايلاماً من استشراء داء الحقد والحسد والغيرة ، هذا الداء الوبيل الذي فتك بنفوس بعض النقاد الذين يحسبون الشتائم اداة مضمونة لايصالهم الى قمة الشهرة ...!

فهل يرعوي هؤلاء النقاد عن غيهم ، ويثوبون الى رشدهم ، ويعودون الى جادة الصواب ... ذلك كل ما أرجوه ... ومن الله السداد والعون ...!

أحمد الصافي النجفي

في مسيرته الحياتية

انحدر الشاعر العربي الكبير أحمد الصافي النجفي من اسرة آل الصافي في النجف الأشرف المتصلة بنسبها المشجر الصريح الى الامام موسى الكاظم عليه السلام ، والمعروفة قبلاً بأسرة آل عبدالعزيز ....

والسيد عبدالعزيز هو الجد السادس للمترجم وقد قطن النجف الأشرف طلباً للعلم حتى أصبح من كبار مجتهدي عصره ... وكان يقرض الشعر الجيّد ، ويملك مكتبة شهيرة حوت نفائس الكتب المطبوعة والمخطوطة .... وكان ينتمي الى قبيلة عربية نزحت من الحجاز ، واستوطنت بجوار البصرة ...

وأما جدّه لامه فهو العلامة المرحوم الشيخ محمد حسين الكاظمي كبير فقهاء عصره ... وهو من اسرة آل معتوق القاطنة في مدينة صور من أعمال جبل عامل في جنوب لبنان ...

ولد في النجف الأشرف سنة «١٣١٤» الهجرية وفيها نشأ وترعرع .... وكانت هذه المدينة المقدسة وما تزال محور حركة علمية شاملة حمل لواءها الخفاق كثير من العلماء والادباء والمفكرين الذين اهتموا بدراسة مختلف العلوم الاسلامية من فقه وتفسير وحديث ومنطق وفلسفة وتاريخ ونحو ولغة وأدب وغيرها ... وفي سن الخامسة أدخله أبوه أحد الكتاتيب ليحفظ القرآن الكريم .... وبعد مضي ثلاث سنوات انتقل الى كتّاب آخر حتى أتقن قراءة القرآن المجيد والخط العربي بصورة تدعو الى الاعجاب .... وفي السنة العاشرة من عمره صار يقرض الشعر فلفت اليه الانظار ...!...

وفي سنة «١٣٢٥» الهجرية مات أبوه متأثرا بمرض الهيضة فكان وقع هذا المصاب الجلل بالنسبة له صدمة عنيفة اجتاحته بكل ما تحمل من آلام وأوصاب مما سببت له مختلف الامراض التي استحوذت على جسمه النحيف ... وقد كفله أخوه الاكبر محمد رضا الصافي فأحسن تربيته، وأنشأه النشأة القويمة التي تؤهله ليكون انساناً ذا دقة في التفكير، وسلامة في الذوق، وعمق في النظرة، يشق طريقه في الحياة المملوءة بالعقبات وهو غير آبه بها حتى يصل الى الهدف المنشود ....!...

وبعد مرور عامين على وفاة والده أخذ يتلمذ على مشاهير العلماء، فتلقى دروساً في الآداب والعلوم الاسلامية كالأصول والتوحيد والمنطق والفقه وغيرها ... نخص بالذكر منهم السيد أبا الحسن الاصفهاني، والسيد حسين الحمامي، والسيد علي اليزدي، والشيخ محمد حسن المظفر ...

وعندما ناهز السابعة عشرة من عمره توفيت أمه فأمسى فريسة الأحزان والكآبة، ولازمته الأمراض التي أبت أن تبارحه مدى الحياة ...

وخلال فترة ثورة النجف ضد الانكليز، ثورة الطلائع التقدمية التي حدثت سنة «١٩١٩» الميلادية كانت دار الشاعر أحمد الصافي النجفي محلا للاجتماعات التي يعقدها الثوار، ومكانا للمؤتمرات التي يقيمونها .... فكان يلقي القصائد الحماسية التي تبث روح الاقدام والعزيمة في نفوس المحاربين الاحرار ....

ولما تمكنت القوات الانكليزية التي يربو عددها على الاربعين الفاً بمعداتها الحربية من رشاشات ومدافع وقنابل من احتلال النجف الاشرف بعد حصار دام أربعين يوماً تعرض الاهالي خلالها الى الدمار والجوع والموت، وذلك بمساعدة بعض أصحاب النفوس المريضة الذين فتحوا الطريق للغزاة المعتدين فدخلوا المدينة المقدسة واحتلوها احتلالا عسكريا

•••• ونصبوا المشانق ، وأعدموا ثلاثة عشر مناضلا •••• اولئك المناضلين الابطال الذين كانوا ضحايا على مذبح الحرية ، وقـدوة حسنة لمن يأبى الذل والعبودية •••!•••

لقد كان انتهاج الانكليز سياسة الارهاب والتنكيل بالعناصر المعروفة بكفاحها المستمر ضد الاستعمار وعملائه الذين يعملون دوما لشق وحدة الصف الوطني ، وتفتيت قواه التقدمية لبلوغ مآربهم الشخصية في التحكم والتسلط ••• كل هذه الأحداث المؤلمة التي ارتكبت فيها جرائم بشعـة لا يصدقها العقل ، جعلت الشاعر أحمد الصافي النجفي يعيش امتحانا تاريخيا في ظل ظروف الاحتلال الاجنبي •••• ومن خلال العمل الجاد راح يستجلي صورة الأوضاع الحقيقية المشحونة بتركة ثقيلة من المساويء ، ويستخلص دروس الماضي القريب ••• ويسكبها في صيغ شعرية مؤثرة ، ويذيعها على الشعب الذي سيظل أبداً القوة الضاربة لردع الجناة المعتدين ، وتحويل مواقع الدفاع الى مواقع الهجوم ••• وهو يعلم جيدا ان طريق المقاومة والتحرر طريق طويل وشاق ، طريق مفروش بالجماجم والدماء ••• ولكنه يعتبر المضي في هذا الطريق انتصـارا للشـعب ، وهزيمـة للاستعمار ، وأمرا يفرضه الواجب الديني والقومي •••• ولابد لنضال الشعب البطولي أن يتوّج بالنصر رغم عهود التسلط الارهابي ، ومهمـا تكالبت عليه قوى الشر ولعدوان •••!•••

لقد اختفى الشاعر أحمد الصافي النجفي لينجو بنفسه من حبل المشنقة بعدما تناهى الى سمعه ان السلطات البريطانية المحتلة تبحث عنه لتنتقم منه شر انتقام نتيجة لنشاطه الكبير في تحريض المواطنين على الدفاع عن أرض العراق حتى آخر قطرة من دمائهم •••• ولم يلبث أن فر مع صديقـه المرحوم السيد محمد علي كمال الدين متجهين نحو البصرة ، واتفقا على أن يشتغلا هناك بأي عمل شريف •••• فذهبا الى بلدة الخضر مخترقين

ميدان الحرب القائمة بين الاتراك والانكليز •••• وقد وقعا في شراك الاتراك وكادا يعتقلان بتهمة التجسس ولكنهما رشيا الجنود فأخلوا سبيلهما •••

وعندما بلغا البصرة افترقا •••• وراح الشاعر أحمد الصافي النجفي يبحث عن عمل ما ، ولكن جهوده في هذاالمضمار ذهبت دون جدوى حتى نفدت دراهمه فاضطر الى بيع ساعته •••• ثم سافر الى المحمرة ومنها الى عبادان للعثور على عمل يقيم بأجره أوده ، ولكنه لم يحصل على بغيته فاستقل سفينة شراعية متجهة نحو الكويت وهناك اشتغل نهارا واحدا في البناء حيث حمل الطابوق ، وغربل الجص •••• وقد وقع في اليوم الثاني مريضا من شدة التعب ، ولما تماثل للشفاء غادر الى أبي شهر المرفأ الايراني •••• ثم سافر مشيا على الأقدام قاصدا مدينة شيراز وحين وصل بلدة فيروز اباد تعرف مصادفة بالزعيم الديني المرحوم السيد عبدالحسين اللاري الذي حارب الانكليز بأبناء بلدته لار ••• ولكن جيشه انكسر فهرب خوفاً من الوقوع بيد الأعداء •••• وقد توثقت بينهما الصلات اذ كان تلميذاً لجد الشاعر المرحوم الشيخ محمد حسين الكاظمي ، ووكيلا دينيا عنه •••

واصيب الصافي بمرض التيفوئيد ولولا جهود العالم الكبير السيد عبدالحسين اللاري لفارق الحياة حيث أحضر له طبيبا خاصا ، ولازم فراشه حتى أبل من دائه العضال •••

وبعد ذلك سافر الى بلدة لار ومنها الى ميناء بندر عباس ••• ثم ركب الباخرة حتى وصل البصرة ومنها عاد الى النجف الأشرف بعد غياب دام تسعة أشهر •••• وكانت الجيوش الانكليزية قد احتلت بغداد •••

وعند انفجار بركان الثورة العراقية ضد الانكليز في الثلاثين من

شهر حزيران سنة «١٩٢٠» الميلادية كان أحمد الصافي النجفي هو المخطط لها وأحد الشعراء الذين مهدوا بشعرهم لهذه الثورة البالغة الخطورة والاثر ، وساندوها عندما اندلعت نيرانها بقيادة جماهير الشعب وطلائعه الثورية لتحقيق الاهداف الوطنية الضخمة ...!...

لقد تمادى الانكليز في ممارسة الاساليب الغوغائية ، وضرب القوى الوطنية والتنكيل بها .... فانبرى الشعراء الثوريون لدعوة أبناء الشعب للالتفاف حول الثورة الهادفة والعمل على دعمها بشعرهم الحماسي .... وقد كان الشعر وما زال يشكل عاملا مهما من عوامل الاستنهاض والبعث ، وأحد المقومات الرئيسة التي تمهد لقيام الثورات الجماهيرية ..!

لقد ركز الصافي جهوده لتثبيت أقدام الثورة من أجل أن تنطلق وترسخ هويتها الأصيلة وطابعها الايجابي ... كما انه وضع الماضي موضع الاعتبار والعبرة ، واستخلاص أعمق الدروس منه ، وتلافي الانحرافات الخطيرة التي مني بها .... وهكذا دوما تقاس الوطنية الصحيحة بما يقدمه المواطن من عمل مخلص ، وخدمة صادقة لابناء شعبه ....!...

لقد كان بيت الصافي مقراً عاما للخطباء والشعراء والقادة الوطنيين... ولما وصل الجيش الانكليزي الى حدود مدينة الكوفة فر هاربا الى ايران بصحبة ثلاثة من المشاركين فى الثورة وهم المرحوم السيد سعد صالح والمرحوم السيد محمد علي كمال‌الدين والمرحوم الشيخ علي الدشتي ... وقد غادروا النجف الاشرف عن طريق الجزيرة بين دجلة والفرات ... وقبل أن يبلغوا مدينة الحي افترقوا حيث ذهب المرحوم السيد سعد صالح والمرحوم السيد محمدعلي كمال‌الدين الى العمارة ثم الكويت .... أما الصافي والمرحوم علي الدشتي فقد توجها الى الحي ومنه الى كوت الامارة وبعدها رحلا الى طهران عن طريق الاهواز ....

وحين وصول الصافي الى طهران قرأ فى الصحف الايرانية ان السلطات الانكليزية قد القت القبض على أخيه الاكبر السيد محمد رضا الصافي لاسهامه فى الثورة وأودعته السجن ، وحلقت رأسه ، ونصبت له المشنقة ليتخلى عن مبادئه ، ويذعن لرغباتها الحقيرة •••• ولكن كل التهديدات بالموت لم تجد معه نفعا ••• فقد ظل مخلصا لعقيدته ، راسخا في ايمانه ، ثابتا فى مواقفه ، غير آبه لوسائل التعذيب الوحشى ••• فأخلى المستعمرون سبيله بعد أن مكث في السجن خمسة أشهر •••

وكان أثناء مكوثه في السجن قد نظم قصيدة وطنية بعثها الى أخيه أحمد الصافي النجفي الذي خمسها وأعادها اليه ، فنشرت فى مجلة لغة العرب لصاحبها الاب انستاس الكرملي والصادرة في بغداد ••••

والى القارىء الكريم النص الكامل للقصيدة مع تخميسها :

انا في سوى العلى ما رغبنا نملأ الكون رهبة ان غضبنا
ما جزعنا للسجن يوم غلبنا « ان من رام مثلما قد طلبنا »
« لا يبالي ان سيق للسجن سوقا »

نحن قوم عن العلى ما قصرنا حيثما دار كوكب العز درنا
واذا جار حادث الدهر جرنا « رخصت عندنا النفوس فثرنا »
« نطلب العزّ والعلى لا لنبقى »

قد خلقنا دون الورى أحرارا وامتلكنا التيجان والأمصارا
وجعلنا لنا المعالي شعارا « ولقد سامنا العدو احتقارا »
« فرآنا نستسبق الموت سبقا »

إنّ ذلي موتي وعزّي حياتي ما انثنت للعدو يوماً قناتي
أنا فرع من دوحة المكرمات « أنا من اسرة كرام اباة »
« لا يرون الحياة في الذل أبقى »

أنا لما أسـرت لم أبدِ ضعفا لا ولم أرجُ من عدوي عطفـا
ولقد قلت والردى بي حفّـا « شرف أن يكون موتي حتفا »
« أو أراني يكون موتي شنقـا »

إنّ أحداث التاريخ وتجارب الشعوب المناضلة علمتنا بأن الاحتلال لن يدوم ، وان الدول الاستعمارية مآلها الانهيار بينما الدول المحبة للحرية والاستقلال تسير دوما نحو النمو والتقدم والازدهـــار •••• ولـذا فان الشعب العراقي ظل يكافح ويتطلع الى ذلك اليوم العظيم الذى يحل فيــه انزال العقاب الصارم بالانكليز ليكونوا عبرة لكل معتد أثيم •••• الانكليز الذين أهانوا الكرامة العربية في الصميم ، والذين بلاهم الشعب العراقي وابتلى بهم عدة سنوات ، فأشاعوا الفوضى وعدم الاستقرار ، بعد أن أجهزوا على ثورة العشرين وحرّفوا أهدافها العليا ، وزيّفوا حقيقتها الواضحــة بتآمرهم الدنيء الذى غدر بها •••

وكان ذلك اليوم المرتقب هو يوم الاثنين المصادف للرابع عشر من شهر تموز سنة «١٩٥٨» الميلادية حيث فجّر الجيش العراقي الباسل ثورته الجبارة ضد العهد الملكي المنقرض بالتحامه مع الشعب •••• ذلك الالتحام الذى كان نموذجا جديدا لم يسبق له مثيل في التاريخ •

وكانت ثورة تموز المجيدة حلقة من سلسلة ثورات قام بها الشعب بعد مزيد من المصائب والمآسي والآلام التي حلت به ••• وقد كتب لهـا الظفر التام ، والنصر المؤزر بعد ان أدركت فئات الشعب المختلفة الظروف العصيبة المحيطة بها فارتفعت فوق الافتعالات المصطنعة ، والمواقف السلبية التي يغلب عليها طابع ردود الفعل ••• فقد كانت المعركة التى تواجهها معركة مصيرية تتطلب أعلى درجات الانسجام الثوري ،والوحدة في الفكر والاسلوب ، وتفادى ضعف الخبرة ، ونقص التجربة ، والعمل بروح

جديدة مستفيدة من الاخطاء الماضية لاكمال نجاح عملية التجربة الثورية ، معتمدة على الدراسة العلمية ، والمعالجة الموضوعية ، والاصرار على الصمود والمقاومة في تلك المرحلة الاساسية والبالغة الحساسية من نضالها المستميت ••• فانبثق على يديها فجر الثورة المباركة التي انطلقت من ارادة الجماهير التى لم تأبه لنذر الغيوم المتلبدة في سماء الوطن العزيز •••!•••

وفي طهران بدأ الصافي يدرس اللغة الفارسية وآدابها ليطلع على ما جادت به قرائح شعراء الفرس من نفائس الشعر •••• ولم تمض سوى سنة واحدة على انشغاله في هذه الدراسة حتى تمكن من أن يترجم وينشر في أشهر المجلات والصحف الايرانية أمثال صحيفة « كوشش » و « ستاره ايران » و « شفق سرخ » و « اقدام » ومجلة « ارمغان » لسان حال النادي الأدبي في طهران ومجلة « تعليم وتربيت » وغيرها •••

ولما ذاع صيته في الاوساط الثقافية عينته الحكومة الايرانية استاذاً لتدريس الأدب العربي في مدارسها ، فدرّس في ثلاث مدارس هي : العلمية والكمالية والسلطانية •••• ثم عيّن عضواً في دار الترجمة والنشر وطلبت منه وزارة معارف ايران ترجمة كتاب علم النفس من تأليف الاستاذين علي الجارم ومصطفى أمين من العربية الفارسية ليدرّس في دار المعلمين فلبّى الطلب وأتم ترجمة الكتاب المذكور ترجمة حازت اعجاب المعنيين بالشؤون التربوية من حيث دقة النقل ، وعذوبة الاسلوب •••!•••

ولما عاودته الامراض اضطر الى ترك التدريس والانصراف الى الكتابة والترجمة ، وانتخبه النادي الادبي الفارسي في طهران عضواً وقلده وسام العضوية «انجمن أدبي » تقديراً لادبه ، وتثمينا لنبوغه •••!••••

وحينذاك شرع بترجمة رباعيات الخيام الى العربية وقد درسها دراسة عميقة •••• وبعد مضي ثلاث سنوات أكمل ترجمتها فكانت صورة طبق

الاصل للرباعيات ذاتها من حيث أمانة النقل ، والحفاظ على المعنى الاصلي •••• فأبرز نفسية الفيلسوف الخيام وكشف عن آرائه الفلسفية المتجددة ، وأظهر خلجات نفسه المنطوية على كثير من الحقائق والاوهام ، والوجود والعدم ، والايمان والكفر ، والمعاصى والتوبة ، واقتناص ملذات الحياة قبل فوات الاوان ••• فأزاح النقاب عن الآراء المبهمة التي فهمها غيره من المترجمين على عكس حقيقتها ••••

ولا يفوتنا هنا أن نذكر من أن بعض الرباعيات المترجمة كانت تفوق الأصل من حيث بلاغة اللفظ ، واداء المعنى ••••!•••

وهكذا دال على انه فهم نفسية الفيلسوف عمر الخيام تمام الفهم ، وأدرك أفكاره ، وعرف اتجاهاته •••

وكان طيلة اقامته في طهران على اتصال دائم بوطنه العراق •••• فقد كان يحرص على مطالعة الصحف العربية التي ترد الى ايران ••• وحين حصلت بلاده على بعض الحريات والحقوق عاوده الحنين الى رؤية أهله وأصحابه فعاد الى أرض الوطن سنة «١٩٢٧» الميلادية بعد ان أمضى ثماني سنوات في طهران •••

وعند وصوله الى بغداد تعرّف على الشاعر الفيلسوف الكبير جميل صدقي الزهاوي وقدّم له قصيدته « الليل والنجوم » فأعجب بها اعجاباً منقطع النظير ونشرها في جريدة « العالم العربي » ••• ثم سافر الى النجف الأشرف فاستقبل استقبالا حاراً من قبل الاقرباء والاصدقاء ، وعبّروا عن فرحتهم بلقائه المرتقب بقراءة الاهازيج الشعبية التي تعبّر تعبيراً صادقاً عن عواطفهم الجياشة ، وأحاسيسهم المتوقدة •••

وفي فترة وجوده في النجف الأشرف عادت الامراض تنغص عليه عيشه ، وتتركه جسماً ممدداً لا حراك فيه •••• فدخل المستشفى

وأشرف على معالجته الدكتور السوري سعدالدين عيسى الذي أنقذه من مخالب موت محقق ، ونصحه بمغادرة العراق والسفر الى سورية ليملأ رئتيه بهوائها الطلق النقي ، ويستمتع بمرأى مناظرها الطبيعية الخلابة..!..

وفي مطلع سنة «١٩٣٠» الميلادية قصد دمشق فرحب به عارفوا عبقريته ترحيباً بالغاً ، وأقاموا على شرفه عدة حفلات تكريمية اكباراً لشاعريته الخلاقة ، واعتزازاً بأفكاره الجريئة ...!...

وبعد ذلك راح يتنقل بين مدن سورية الجميلة وهو منتعش النفس ، مبتهج القلب ، منشرح الصدر ...!...

وما فتيء أن رحل الى لبنان وشرع يجوب جباله ووديانه ، ويتطلع الى بحره في هياجه وهدوئه ، ويقيم في مدنه الساحرة كبيروت وصيدا وزحلة وبعلبك وصور ....

وعند دخول السلطات الانكليزية الأراضي اللبنانية في سنة «١٩٤١» الميلادية أمرت باعتقاله ، وزجت به في ادارة الأمن العام الفرنسية ببيروت بتهمة ترويج الافكار النازية ، وقضى في السجن مدة ثلاثة وأربعين يوماً ثم اطلق سراحه ....

وقد نظم في غضون ايداعه غياهب السجن ديوان شعر رائع أسماه « حصاد السجن » ندّد فيه بالمستعمرين ، وسخر من أعمالهم التعسفية ، وبارك الحياة في السجن وما لقي على يد السجّان من اضطهاد وارهاب وعذاب ما دام كل ذلك في سبيل خدمة المبادىء القومية ، والأهداف الوطنية ...!...

وهو اليوم يقضي أكثر أيامه في صيدا حيث يسهم في تحرير مجلة « العرفان » الزاهرة مع صاحبها الأديب الكبير نزار الزين ...

وله في وصف مدن سورية ولبنان قصائد فريدة في محتواها واطارها

ستبقى درراً لامعة في جيد الدهر ، واغنيات عذبة في ثغور الأجيال ..!..

وفي سنة «١٩٦٨» الميلادية استجابت الحكومة العراقية لنداء الواجب فالتفتت الى الشاعر أحمد الصافي النجفي فعينت له راتباً شهرياً مقداره مائة دينار.. وقد تحقق هذا الأمل البعيد بالتفاتة كريمة من السفير العراقي لدى الجمهورية اللبنانية الأديب الدكتور المرحوم ناصر الحاني بعد أن بذل جهوداً كبيرة في هذا السبيل ، وأجرى مختلف الاتصالات مع المسؤولين حتى أخرج الفكرة الى حيز الواقع ...

إن هذا الراتب وان جاء متأخراً الا انه أعطى برهاناً محسوساً على أن هناك فئة من الناس تقدر الادب ، وتدرك فعاليته المهمة في نشر الوعي الهادف ، ودفع تيار الشعوب نحو سبل الرقي ، وتصعيد كفاحها النيل الاماني الوطنية ، وبلوغ ما تصبو اليه من الحرية في ظل المجتمع الفاضل السعيد ..

كما انها ثمنت أعمال الشاعر في حقل الادب العربي المعاصر ، وقدرت عبقريته الشعرية حق قدرها ... فقد سخّر كل حياته للانتاج الادبي ، ورفض الزواج ليكرس جميع أوقاته للمطالعة والتأليف والدرس فيؤدي ما عليه من واجب مقدس تجاه امته ووطنه .... واجتاز مراحل خطيرة من عمره بكثير من الصمود والصبر .... مراحل زمنية ملأى بالتعاسة والتشرّد والألم ، غرقى بالاضطهاد والمطاردة والسجون .... فكان حقاً مخلصاً للأرض التي أنبتته ، وللتاريخ الذي انتسب اليه ، وللاهداف التي ناضل من أجلها ...

وهو اليوم وبعد أن تجاوز السبعين من عمره ، وفي عنفوان شيخوخته المباركة يعيش في طمأنينته ودعة .... وان كانت تعاوده الاسقام التي تأبى الا أن تلازمه ملازمة الظل ...

لقد كان مفروضا في الحكومات العراقية المتعاقبة أن ترعى الشاعر من

زمن بعيد ... ولكنها جحدت حقوق الادباء الذين ينبثق من أفكارهم شعاع الاصلاح والهدى ، فيبدد ليل الآلام والدموع ، ويـدك وكر الانحراف والفساد ، ويترك أثراً بعيد المدى في مجال العمل الايجابي المثمر ...!...

ان الاديب الحر صانع مجد شعبه يأبى أن يطأطيء رأسه لظالم ، أو ينحني لطغيـان ، أو يضلع في ركاب العمـلاء والخونة الذين يستهدفون العودة بأوطانهم الى مناطق النفوذ الاستعماري ، أو يغفر لأي فئة مواقف الانكماش والتردد في وقت يستوجب فيه رفع شعار مواصلة النضال مع العدو الغاصب .... ولذا فهو يرضى بعيش الكفاف ، وقسوة الحاجـة ، ومرارة الفقر ... وان هذه السجايا النادرة تتجسّد تماماً في الشاعر أحمد الصافي النجفي الذي رفض قبول الراتب بشروط معينة ... فنزل الحكّام عند رغبته .... فهو البلبل الغريد الذي ينشد الأشعار فتصغي له القلوب الواعية متى شاء ، وانى أراد ، وكيفما اتفق ... تلك الاشعار المستوحاة من ضميره الحي الذي لا يعرف في يوم من الايام استسلاماً للبغي ، ولا اعترافا بالعدوان ... انه ابن الامة العربية البار ، وهزارها الصدّاح على ذرى جبالها الشمّاء ، وفي أفياء وديانها الخضراء ...!...

انه يحلق متسامياً في عوالم الشعر فتأتيه المعاني صاغرة مستسلمـة ليختار الرائع منها ، والذي يعبر عن نوازع نفسه الكبيرة ، ويجسد منطلقاته الفكرية ، ويسبغ عليه طابع الابداع الفني .... ويقف المرء مذهولا أمام الكثير من صوره الشعرية الفاتنة التي لا تفتقر الى الوحـدة الموضوعيـة ، والتسلسل المنطقي للحدث الشعري مع الالتزام بالقافية ، والتقيد بعمودية الشعر .. حيث تحمل سمات رؤية شعرية منفردة ...!...

ان شعره الذي تجنب مزالق التقليد قد بوأه عرش الخلود ، وتوجه بأكليل المجد . وملأ مسامع الدنيا .. فلن تقوى يد الزمن علـى محـو آثاره ... لما فيه من صور رائعة ، ومضامين مبتكرة ، وأفكار انسانية ..!..

مقابلة مع الشاعر الكبير
أحمد الصافي النجفي



التقطت هذه الصورة في دمشق يوم الخميس المصادف للسابع والعشرين من شهر شبـاط سنة ١٩٦٩ الميلادية وهي تجمع بـين شاعر العرب الكبير أحمد الصافي النجفي والاستاذ خضر عباس الصالحي

كنت أتوق دوماً الى تحقيق الحلم العزيز الذي لا ينفك يراود ذهني بلا انقطـاع ••• حلم اللقاء بالشاعر الشهـير أحمد الصافي النجفي ••• فأرى عن كثب هذا الذى شغل الناس بآرائه الصريحة ، وأطواره الغريبة ، وأثار ضجة النقد بمحتوى أشعاره الطريفـة الي انتزعت اعجـاب القراء العرب في كل مكان ، فراجت دواوينه التسعة رواجاً منقطع النظير ، وطبعت عدة طبعات ، واخرجت في حلة قشيبة حيث تنفد بسرعة وفي وقت قصـير من بدء صدورها ••• فهو شاعر فذ تقرأ قصائده فتجد فيها مناخاً تعيشه ، وتحصل على فكرة جديدة تصلك متكاملة المعاني ، منسقة التصميم ، وهي تتحرك في ذهنك مشحونة بالمفاجآت المذهلة ••• ولولاه لظل الشعر تافهاً سطحياً ••• اذ فقد القارىء ايمانه بالكلمة المعطاء بعـد أن رأى الشـاعر

لا يلتزم بها ، ولا ينفذها ، وانما يتملق بها وضعاً سياسياً معيناً ، ويتمرغ على أعتاب الحكام الذين يتخذون من شعوبهم جسراً يعبرون عليه للوصول الى غاياتهم الوضيعة ••• فكانت تعابيره دمى تتحرك على الورق •••

وأما الصافي فهو شاعر يلتزم بما يقوله التزاماً كاملا ، وقد عانى من جراء صدقه آلام السجن ••• فكانت كلماته ارادة واعية ، ودواء شافياً عالج به الأمراض الاجتماعية ، ومنجلا حاداً قطع به رؤوس الخيانة ، واستأصل به جذور الفساد ••• وبذا احتلت أشعاره مكانها اللائق في أذهان الناس على مختلف مشاربهم وأذواقهم ••• لأن كلماته تنبع من أعماق قلبه ، وتخرج وهي ممتزجة بدمه •••!•••

ولابد من التأكيد في هذا المجال من أن هناك ظاهرة بارزة نتلمسها في أغلب شعره هي الصدق الذي غدا ميزته الوحيدة التي تشد الجماهير اليه ••• وقد كتب الشعر رغبة منه في الاتصال بالناس عن طريق حسي مشترك يجمعه معهم تدفق المشاعر الانسانية فيه ، فهو يحب الناس ••• كل الناس ، ويدلهم على الطريق السوي ليعيشوا سعداء ، ويبحث لهم في شعره عن حدائق خضراء ، وملاجيء فيحاء ••• فيجدون ضالتهم المنشودة في المضامين التي يبتكرها ، أو يلتقطها من المجتمع ••• ففاعلية قصائده تعتمد على الصور العينية ، صورة الحياة ، ولا يعوزه الموقف من الحياة ، الموقف الفلسفي الذي ينطلق منه •••!••

وكل قصائده نابعة من معاناة صادقة ، وفي بعضها غنائية شفافة تهز القاريء هزاً متواصلا فقد انطوت على أنبل المشاعر ، وأرق الأحاسيس •• اذ أنها ظلال لما يتحلى به من كريم الطباع ، وجميل الخصال ••• فهو بعيد كل البعد عن مخادعة الجماهير ، والتلاعب بعواطفها عن طريق رصف الالفاظ المنمقة ، وتنضيد العبارات المنسقة ••• فقد كان رائده منذ البداية معالجة القضايا الحيوية ، وبذل الجهود المخلصة ، والعمل بكل ما أوتي

من قوة لخدمة أبناء قومه ••• فلن يدخر وسعا ، أو يضيع وقتا دون التأكيد بكل أمانة وحرص على دفع عجلة الشعب خطوات واسعة الى الامام ••!••

وكانت تأملاته العميقة في الحياة والناس والطبيعة قد أغنت تجربته الشعرية ، وجعلت لعمله الشعري الأثر الفعال في تطوير محتوى الشعر ، وانجاح المحاولات النقدية الهادفة التى يجابه بها تقاليد المجتمع وعاداته •!•

وما كان في يوم من الايام من الشعراء الذين يجنحون الى الشكلية التي لا تهتم بالمضمون مطلقا ••• أولئك الذين ما زالت لديهم القصيدة المفضلة هي القصيدة الضائعة في الضباب ، والمغطاة بالغيوم ••• وهو مع احتفائه بالمعنى ذلك الاحتفاء الكبير فقد طرزت دواوينه الشعرية درر ساطعة من البيان العربي الرفيع ••!••

من الامور الهامة التى أوليتها عنايتي الفائقة حالما وطئت قدماي أرض سورية الطيبة يوم الثلاثاء المصادف ١٨-٢-١٩٦٩م هو البحث عن الاستاذ أحمد الصافي النجفي في مقاهي دمشق الراقية ••• وصادف ان كنت جالسا فى مقهى « ابراهيم شيرازي » الواقع في سوق الخضار واذا بشابين عراقيين يسلمان عليّ ، ويتخذان مكانهما الى جانبي ••• وبعد رد التحية وتبادل كلمات الترحيب ••• بدأنا نتحدث عن الشعر والشعراء ••• وما عتما أن ذكرا لي أنهما شاهدا صباح البارحة الاستاذ أحمد الصافي النجفي جالساً في مقهى « الكمال الجديد » فاهتز كياني كله لهذا النبأ السار ، والتفت اليهما قائلا والابتسامة تملأ وجهي كله :

– أين يقع هذا المقهى ••••؟••

فقالا :

– انه يقع في ساحة المرجة وقرب سينما غازي بالضبط •

وبعد استراحة قصيرة ودعني الشابان العراقيان حيث كانا يزمعان السفر الى أرض الوطن •••

وشرعت أتهيأ لملاقاة الصافي شاعرنا العراقي المحبوب ••• وفي صباح يوم الخميس الموافق ٢٠-٢-١٩٦٩م حملت معي كتابي المخطوط « شاعرية الصافي » وخرجت من « دار الفرح » الفندق الذى أقيم فيه ، واتجهت صوب مقهى « الكمال الجديد » وقبل أن أتخذ مجلسي على أحد المقاعد قلت لصاحب المقهى :

– هل جاء الاستاذ أحمد الصافي النجفي الى هنا ••••؟••

فأجابني قائلا :

– انه لم يأتِ بعد وليس لقدومه وقت محدود •••

فقلت له :

– اني سأجلس هنا وأرجو اعلامي عند مجيئه •••

– تفضل وسوف أنفذ ما طلبت •••

وجلست من الساعة الثامنة صباحاً حتى الساعة الثانية عشرة الاثلثا••• والصافي لم يطلع علينا ••• فغادرت المقهى بعد أن شعرت بسيف الانتظار يقطع أحشائي ••• ولكن الأمل باللقاء المنشود ما يزال حياً ينبض مع دقات قلبي •••

ومع كل هذه الأماني البراقة التى كانت تبدو لعيني زاهية كزهرة الربيع حيث تبعث في النفس نشوة غامرة فقد نظمت بيتين من الشعر ، واحتفظت بهما اذ انني سأودعهما لدى صاحب المقهى لتسليمهما الى الاستاذ الصافي في حالة تعذر مقابلتي له •••

والبيتان الشعريان هما :

جئت من بلدتي لأطلب وصلاً   غير أنَّ الوصال عزَّ عليّا
جئت أبغي بأن أكون وصيّاً   لعظيم في الشعر جاء نبيّا

وفي صباح يوم الجمعة المصادف ٢١-٢-١٩٦٩م عدت الكرة ،

وذهبت الى مقهى « الكمال الجديد » وجلست على احد الكراسي منتظراً اشراقة الأمل ••• وما ان أشار عقرب الساعة الى الثامنة حتى دلف الاستاذ أحمد الصافي النجفي الى المقهى وقد عرفته من أول نظرة ••• حيث بدا في زيه البدوي وكان يرتدي السترة والزبون وعلى رأسه تاج العرب العقال والكوفية ••• ولما جلس بجوار المدفأة نادى عليّ صاحب المقهى ••• فقمت على الفور ••• وما أن وصلت اليه حتى التفت الى الصافي وقال :

ـ رجل من العراق يود مقابلتك •••

فنهض من مقعده ليصافحني ••• فضممته الى صدري ، ورحت اقبله بحرارة ••• فبادلني نفس العواطف •••

ولما استقر بنا المقام حدّق الصافي في وجهي وهو يقول :

ـ لم تقدّم لنا اسمك الكريم •••

فانفرجت شفتاي عن ابتسامة عريضة وأنا أقول :

ـ لقد جددت في الموضوعات الشعرية ، وأنا اريد أن اجدد في أساليب التعارف ولذا اطرح عليك هذا السؤال •••

لكل انسان عظيم أعداء ومحبون ••• من هم الذين يحبونك من العراقيين •••؟••

فابتسم الاستاذ الصافي من أعماق قلبه وقد أخذه العجب لهذا السؤال الذي لم يصافح اذنيه من قبل وقال :

ـ المحبون لي في العراق كثيرون •••

فقلت له :

ـ أرجو التفضل بذكر أسماء من يعلق بذهنك ، ويرد على خاطرك الآن •••

فقال على الفور :

ـ خضر عباس الصالحي •

فقلت له وأنا مأخوذ الفكر :

ـ انني هو الشخص الذي تعنيه ••• وكان الجواب أبلغ من السؤال ، وكانت مفاجأة مدهشة من الاستاذ الصافي دللت على جانب كبير من الذكاء والفطنة ، وبرهنت على حضور البديهة ، ودقة الملاحظة ، وقـوة الفراسة •••!••

وبعد اداء مراسيم التحيات ، وبث الأشواق ، والتحدث عن العراق وطننا العزيز ، وما قطعه شعبنا العظيم من أشواط بعيدة في مضمـار التقدم والرقي ، قرأت له البيتين الشعريين اللذين مر ذكرهما فطرب لهمـا واستحسنهما ••• وبعد ذلك عرضت عليه كتابي المخطـوط « شـاعريـة الصافي » فاستغرق في مطالعته ، وكان يلفت نظري الى الهفـوات التي وقعت فيها فأصححها فى الحال وفق ما يشـير بـه علي من رأي صائب ، ونقد موجه •••

ولما حلت فترة الغذاء ذهبنا الى مطعم الكمال الصفي لتناول الطعام ••• وبعد الانتهاء منه جلسنا في المقهى الملحق به ••• وقد أبى الاستاذ الصافي أن أدفع فلساً واحداً من جيبي •••

وما عتم ان عاد الى قراءة كتابي المخطوط ، وحوالي الساعـة الثالثة بعد الظهر كان قد اطلع على أكثر محتوياته بالرغم من انه كان مصاباً بمرض الانفلونزا الحاد •••

وبعد ارتشاف كأس من عصير الليمون ومرور لحظات صمت قصيرة حدجت في وجه الصافي الذي بدت عليه تجاعيد الشيخوخة المباركة وقلت :

ـ أتطلع بشوق كبير الى الادلاء برأيك في الشعر الجيد الذي يفرض وجوده على الزمن •••

فاعتدل الصافي في جلسته ، وفرك جبينه بيده اليمنى كمن يستجمع أفكاره ثم قال :

ـ حينما يطالع القاريء الواعي قصيدة ممتازة يحلق بخياله الى عالم الشاعر الذى أبدع تلك القصيدة ويعايشه ••• ومن ثم يصبح ذلك العالم كأنه عالمه الخاص •••!•••

وكأن سؤالي هذا قد فجر في نفسه بعض الخواطر التي كان يختزنها فى مخيلته ••• فقد شرع يتحدث قائلا :

ـ اني في حقيقة أمري لم اخلق لأكون شاعراً ، وانما كنت أطمع أن أكون سياسياً مناضلا أعمل ولا أتكلم ، وأفعل ولا أقول ، وأقود الجماهير الى معارك التحرير ، وأسير في المقدمة ، ولا أحرضها على القتال وأنا قابع فى البرج العاجي ولكن الأمراض القاسية التي ما زالت تلازمني هي التى أقعدتني عن مزاولة العمل ، وجعلت مني شاعراً أجيد قول الشعر، ولا أستطيع خوض الحروب الشعبية المقدسة وقد قلت :

اسجّل شعر هذا الدهر نظماً وأجلوه بكليتي صفحتيه
كأن الدهر فتش فاصطفاني وأمرضني ووظفني لديه

وانك تستطيع أن تستشف من مضمون هذين البيتين الشعريين ان القراء العرب سوف يحرمون من جميع ما جادت به قريحتي من شعر ، وما فتحته من آفاق لو لم تقعدني الأمراض عن ممارسة العمل •••لأنني أرى ان الشاعر الحق من يؤدي شعوره بعمله لا بقوله ••• فأنا شاعر ثائر لا شاعر محرض على الثورة دون ان أساهم بها عملياً ••• وانني أحتقر هذا النوع الغالب من شعراء الثورات اذ أتمنى أن لا أكون حسان بن ثابت بل أتمنى أن أكون عمرو بن معدي كرب الزبيدي الذي كان يخوض غمار المعارك بنفسه وقد قال عندما اشترك اشتراكاً فعلياً في معركة القادسية ••• المعركة الفاصلة بين العرب والفرس :

كنــا الحمــاة بذابل المران والقادسية يــوم زاحم رستم
والطاعنين بجامع الاضغــــان والضاربين بكل أبيض مخذم

ويؤلمني أن أكشف حقيقة واقعة فأقول ان أكثر شعراء الثورات عندنا هم من طراز حسان بن ثابت ...

وبعد فترة استراحة وجيزة تناولنا خلالها قدحاً من عصــير البرتقــال. قلت وابتسامة عريضة تغطي محياي :

ـ ما رأيكم في الشعر المهجري ...؟..

قال ونبرة الاخلاص كانت تتجلى في كل كلمة ينطق بها :

ـ الشعر المهجري هو أصح شعر عربي في هذا العصر ... والسبب في ذلك ان معظم شعراء المهجر بحكم اتصالهم بالغرب اتسعت آفاقهم ، وصح تفكيرهم فأتونا بمعان جديدة في الشعر ، ولصحة أفكارهم لم يشاءوا التجديد بالأساليب ... لأنهم يبحثون عن اللباب لا عن القشور ، ويرون في الاساليب العربية كل الاصالة والكفاءة في التعبير والبيان .....

أما شعراؤنا في البلاد العربية فلم تتفتح أفكارهم على آفــاق الغرب الواسعــة ، ولا على حياته المتطورة ... اذ لم يفهمــوا الغرب عن طريق الاتصال المباشر به ، وانما عرفوه عن طريق الكتب ... والفرق شاسع بين الكتب والشعوب ... فبقي تفكيرهم ضيقاً فلم يستطيعوا التجديد في المعاني ، وانما سلكوا طريق التقليد فالبعض منهم أخذ في تقليد القمداء من الشعراء ، والبعض الآخر جنح الى تقليد زخارف أدب الغرب لان تفكــيره محــدود لا يستطيع أن ينطلق من أسار الزخارف الى أجواء الجوهر ...

كما أننا نجد كثيراً من شعر المهجر يشبه الشعر الجاهلي باصالته مضافاً الى تثقفه بثقافة الغرب الصحيحة لا ثقافة العشور والزخارف التي نكب بها الشعر العربي اليوم باسم التجديد ... ولــذا يصــح أن يكون

الشعر المهجري أساسا للشعر العربي الجديد ..!..

وطرق الصافي ملياً ثم رفع رأسه وقال :

ـ منذ بضعة عشر عاماً كنا نخبة من الأدباء نجلس في مقهى أبي عفيف في بيروت ، وكان معنا فقيد الأدب الحر الاستاذ رئيف خوري ... حيث تتشعب بيننا الأحاديث المختلفة حول الفن والأدب ... وذات يوم انبرى الاديب الكبير رئيف خوري دون أن يسبق كلامه بمقدمة وقال :

ـ ان الذين يفضلون الشعر الغربي على الشعر العربي يرجع السبب في حكمهم الجائر هذا لكونهم لا يفهمون الشعر العربي ... أما أنا الذي أفهم الشعر العربي جيداً ... وكذلك الشعر الانكليزي والشعر الفرنسي فأقول جازماً ان الشعر العربي أفضل من الشعر الغربي بكثير ، وان الشعر الغربي أقرب الى النثر منه الى الشعر ...

وما ان انتهى الاستاذ الصافي من كلامه حتى طرحت عليه سؤالا آخر حيث قلت :

ـ كلنا نعلم ان قضية الشعر الحر أهم القضايا التي تشغل اليوم بال دارسي الشعر ونقاده فهل تتفضل باعطاء رأيك الحاسم فيه ..؟..

فالتفت اليّ وهو يخرج من شفتيه ضحكة عميقة وقال :

ـ نظمت مؤخراً قصيدة جديدة بعنوان « الشعر الحديث » وفيها الجواب الشافي ... وشرع ينشد :

لا طب الا صواريخ « مهدرجة »	اذا تدهورت الأخلاق والأدب
في كل يوم نرى شعراً يصابحنا	لا الذوق يقبله لا العجم لا العرب
والشعر مرآة قوم ان هووا معهم	هوى ويعلو اذا تعلو لهم رتب
هذا هو المسخ في الانسان نشهده	لشر نوع من الآلات ينقلب

لا ذوقَ لا حسنَ لا واجدانَ لا أدبُ

لا روحَ لا جسمَ لا رأسٌ ولا ذنب

انساننا العربي اليوم منقلب — تكاد تنكره آباؤه النجب

ثوروا على كل شيء غير ذوقكمو — فالذوق باقٍ وان مرت به الحقب

فصيروا الذوق في آدابكم حكماً — لا ما ادعى النقد أو ما تدعي الكتب

بالذوق قيلت لنا الأشعار من قدمٍ — واليوم تتلى فيعرو الأنفس الطرب

فأبدل الشعرُ أضغاثاً مقززة — في طيها غثيان النفس والوصب

للشعر تنمى ولا ام لها وأب — منه ولا نسب منه ولا حسب

الشعر والذوق والاشياء قد قلبت — لا تعجبوا ان رأينا الكون ينقلب

وكان يضحك في سخرية لاذعة حين أردف يقول :

ـ دخلت مرة أحد المقاهي المتفرنجة في بيروت فرأيت شباناً يجلسون مع فتيات ولهم لحى مختلفة الأشكال فسألت عنهم فقيل لي هؤلاء شعراء ... فاستطردت قائلا :

ـ ان لحاهم الغريبة تستلفت الانظار ... فقيل لي هذه لحى فنية ... فطلبت منهم أن أسمع شيئاً من شعرهم ... فلما قرأوا لي بعضاً من قصائدهم لم أفهم شيئاً منها فقلت :

وصادمين بأشكال اللحى نظراً — وشعرهم يصدم الأسماع يلطمها

تحار أفكارنا في فهم شعرهمو — أشعارهم كلحاهم ليس نفهمها

وهكذا أوضح الاستاذ الصافي بشكل لا يقبل الجدل انه لا يؤيد حركة الشعر الحر ولا يؤازرها . ويراها منافية للذوق السليم ، وساعية الى هدم كيان الاساليب الشعرية العربية الموروثة ، وقواعدها المألوفة ... وان دعاة الشعر الحديث بعد أن عجزوا عن ابتكار المعاني الجديدة ... التجأوا الى تغيير الاطار التعبيري فخرجوا على الأوزان والقوافي باسم

التجديد ••• انهم نبذوا اللباب ، وتمسكوا بالقشور ، وزعموا ان الشاعر يكون أكثر انطلاقا ، وأوسع افقاً ، ويستطيع الافصاح عن كل ما يختلج في صدره من شعور متى ما تحرر من عمود الشعر التقليدي ••• وفاتهم أن الشاعر الموهوب لا تقف أمام مخيلته المبدعة أية عوائق حينما تحاول الغوص الى الاعماق لتلتقط لئالىء المعاني الثمينة ••• فالشعر الحر لا يمكن أن يدخل في مجال الشعر العربي الا تجاوزاً •••

وبعد دقائق من الصمت قلت للاستاذ الصافي :

ـ لنترك الآن حديث الشعر والشعراء جانباً ونتكلم عن القضايا الشخصية ••• فيسرني جداً أن تجيبني على سؤالي هذا •••

ـ من المعلوم انك غادرت العراق الى سورية ولبنان في سنة «١٩٣٠» الميلادية ونحن اليوم في سنة «١٩٦٩» الميلادية ••• ومعنى ذلك انك لم تر وطنك العراق منذ تسع وثلاثين سنة فلم لم تحاول زيارة بلادك التي انجبتك ••• وهي اليوم تفتخر بك كشاعر عبقري لا يشق له غبار ، ومفكر أصيل يشار اليه بالبنان •••!•••

فقال وقطرات الألم تنساب من بين كلماته :

ـ انها الامراض التي أبت مفارقتي قد حالت دون زيارتي لوطني العراق الحبيب خلال هذه المدة الطويلة من الزمن ••• وراح يصعد الزفرات والآهات وهو ينشد قصيدته « الحنين الى العراق » وفيها يعرض خلجات ملتاعة بلظى البعاد عن الوطن والأهل والأصدقاء ، ويسرد وصفاً لحالته كغريب ، وما تحفل به نفسه من رؤى طغى عليها جانب الألم ، ويعبّر عن أحاسيس الغربة كشاعر ••• وقد استولى على مدارك عقله الذهول والحيرة والقلق فيقول :

سمعت من العراق قديم لحن　　　رجعت به لجناتي ومائي

فكم لي بالعراق عهود حبٍ	وعهد صفا وعهد من هناء
ثمانية وعشرون انقضت لي	من الأعوام شخصي عنه نائي
ولكن لا أزال أعيش فيه	بدنيا الفكر أو دنيا الرجاء
اذا ما عاقني عنه سقامي	أطير له بأجنحة الغناء
يجسّمه الغناء أمام عيني	فأنسى كل ما يبدو ازائي
وأحسبني هنالك بين أهلي	وجيراني واخوان الصفاء
وأصحو اذ اناديهم ملحاً	فلا ألقى مجيباً للنداء

وبهذه الأبيات الرقيقة جسّد المشاعر الملتهبة التي تكمن في نفس الغريب اذ لم يجد ما يخفف من آلام غربته غير بث الحنين والشكوى ...

وبعد أن صمت قليلا قال لي :

ـ بهذه المناسبة أرجو أن تبلغ أبناء شعبي العظيم على صفحات الجرائد المحلية تحياتي المخلصة ، وأشواقي الحارة ، وتمنياتي لهم بتحقيق أهدافهم العليا في مجال الازدهار الاقتصادي ، وترسيخ اسس العدل الاجتماعي ، وتعزيز بناء الوحدة الوطنية في ظل نظام ثوري تقدمي ..!..

وسألته وأنا أبتسم قائلا :

ـ لم أضربت عن الزواج ..؟..

فالتفت اليَّ بوجهٍ علاه شيء كثير من الجد الظاهر وقال :

ـ كما تعلم ان الزواج مسؤولية خطيرة ، وتضحية كبيرة فمن مداراة لمزاج الزوجة وتلبية طلباتها الملحة الى صرف جهود مضنية في تربية الاطفال واعدادهم الاعداد العلمي الصحيح ... ونحن نعيش في بيئة ليس فيها للضمان الاجتماعي من أثر ... وأنا رجل مريض قد انصرفت الى المطالعة والتأليف ، ووجدت سعادتي المنشودة فيهما ... وبمرور الزمن أصبح الكتاب زوجتي المفضلة ، ودواويني الشعرية التي ألفتها أبنائي النجباء ..!..

واستأنف قائلاً :

ـ أعتقد انني قد أجبت على سؤالك بصورة واضحة صريحة ...

ولكنني عدت أقول :

ـ أتسمح لي بطرح السؤال الأخير عليك ....؟...

فأجابني باطمئنان قائلا :

ـ تفضل لا بأس عليك

فقلت وقد انتابني احساس شديد بالمسرة :

ـ في غضون حياتك الطويلة هل صادف أن أحببت امرأة وفكرت بالزواج منها ....؟..

فبدت على عينيه نظرة غريبة ، وكأنه يتطلع الى شيء بعيد في الافق ، ثم ابتسم وقال :

ـ كنت ذلك اليوم شاباً في سن السادسة عشرة وأسكن مدينة النجف الأشرف مع أخي المرحوم السيد محمد رضا الصافي الذي كانت له زوجتان الأولى حضرية من النجف ، والثانية قروية من أبي صخير ... وكانت لهذه القروية أخت شابة جميلة الملامح ، قوية الجاذبية كنت أنظر اليها باعجاب ... وقد عرف أخي من النظرات التي اصوبها لتلك الفتاة انني أحبها ... فجاءني يوماً وقال لي :

ـ أود ازوجك اخت زوجتي القروية فما رأيك ....؟..

فسكت لحظة ثم أجبته :

ـ ولكن لم يكن عندي المال الكافي الذي يؤمن مستقبل حياتي الزوجية ...

فقال لي :

ـ سأعطيك مئتي ليرة من الذهب كضمان لزواجك ...

فقبلت العرض شاكراً على أمل تحقيق هذا الحلم الشهي الذي بات يراود ذهني باستمرار ...

ومضى شهران وعاد أخي ليقول لي :

ـ أستحسن ان ازوجك من فتاة غير اخت زوجتي القروية فما رأيك ...؟..

وما طرق سمعي هذا الكلام حتى اجتاحت وجهي سحابة من الحزن ، واكتسح قلبي تيار من الألم ... وقلت في نبرات شجية :

ـ لم تعد لي رغبة بالزواج ما دمت قد عدلت عن وعدك الاول ...

وسدّد الصافي نظراته في وجهي وطفق يقول:

ـ وخلال تلكما الشهرين فقط ساورني أمل جامح بالزواج ، وشغلت فكري به ... والآن وبعد مضي هذه الأعوام الطويلة على اختمار فكرة الزواج في عقلي فاني غير متأسف على عدم تحقيقها ... وأقول بمنتهى الامانة والثقة انني انسان محظوظ ما دمت أعيش عزباً اذ لم يحطم أعصابي شجار الزوجة ، ولا زعيق الاطفال ... وأنا رجل في غاية الحساسية والتأثر ... ثم راح يقرأ لي مقطوعته الشعرية « الشجر الخالد » وأنا أصغي اليه بشغف متزايد :

غرست غرساً غذيته بدمي	والشمس روحي ، وأدمعي المطر
غامرت بالنفس في حراسته	وكان يحلو لأعيني السهر
فالحمد لله أينعت كلمي	وطاب منها للقاطف الثمر
أودعت فيها رسالتي حكماً	وها هم المؤمنون قد كثروا
بالصدق حصنتها ، فلست غداً	أخشى عليها ، اذا دنا السفر

وبينما كان الاستاذ الصافي يتابع انشاده وعقرب الساعة يشير الى الثامنة مساء واذا بالاستاذ نجيب جمال الدين المحامي يسلم علينا ويصافحنا ويجلس

معنا ويجاذبنا أطراف الأحديث في القضايا الأدبية ، ويتصفح كتابي المخطوط « شاعرية الصافي » ويعلق على بعض فقراته ، ويقرأ بصورة دقيقة بحثي عن ديوان « حصاد السجن » •••

والاستاذ نجيب جمال‌الدين من مواليد مدينة بعلبك في الجمهورية اللبنانية ، ويقيم الآن في العاصمة بيروت ، وقد سبق له ان أصدر كتابه « شاعر العصر » وهو دراسة تحليلية معمقة لشعر الشاعر الخالد خليل مطران ، ويعمل في الوقت الحاضر على اعداد كتاب قيم عن الاستاذ أحمد الصافي النجفي ، وقد أشرف على نهايته بعد أن استنزف تأليفه خمس سنوات ••• وقد استمعت الى مناقشاته وآرائه فوجدته أديباً مثقفاً ، وناقداً نزيهاً ••• وقد فارقنا في الساعة العاشرة مساء فودعناه بحفاوة واحترام •••

وبقيت أنا والاستاذ الصافي حتى الساعة الثانية عشرة حيث بدا المقهى خالياً الا من العمال الذين يشتغلون فيه اذ راحوا ينظمون رصف الكراسى ، ويكنسون الارض ••• فتركنا المقهى ••• وعند موقف الباص في شارع بورسعيد ودعت صديقي الاستاذ أحمد الصافي النجفي على أمل اللقاء به في الايام القادمة بعد أن استغرقت المقابلة ست عشرة ساعة •••

وكان وجهه يطفح سروراً عندما ركب السيارة وقال يودعني :

ـ في أمان الله

فلوحت له بيدي وأنا أقول :

ـ مع السلامة •••

رأي الصافي في شعره والشعر العربي

كنا طائفة من دارسي الأدب العربي وعشاقه نجلس في مقهى «الكمال الصيفي» حيث نحيط بشاعرنا الاكبر الاستاذ أحمد الصافي النجفي ونصغي اليه وهو ينشدنا احدى روائعه الشعرية الخالدة ... أو يحدثنا عما استجد في آفاق الفكر من تيارات جديدة ، واتجاهات حديثة فى ميدان بلورة الافكار الثائرة على كل ما تعارف عليه حملة الاقلام من أنماط أدبية ، وألوان شعرية تعلن تمردها الجامح على كل القيم التقليدية ، والاساليب الموروثة..

واستطلع أحدنا رأيه في شعره والشعر العربي .. ولما كانت الصراحة من أبرز سجاياه التي اعتاد عليها حتى فى أحلك الظروف فقد انطلق يحدثنا حديث الناقد الحصيف ، والأديب الذواقة ، والمفكر الذي يعي الأبعاد الحقيقية للحركة الشعرية المعاصرة ... فقال :

لي مدرسة خاصة في الشعر ، فأشعاري التي تحتويها دواويني الثلاثة عشر جديدة المعاني والروح ، وهي فى جنسيتها لا تشبه الشعر العربي ولا الشعر الغربي ولا الشعر الفارسي ... وربما أشبهت الشعر الجاهلي في شيء واحد وهو التعبير عن الشعور العفوي الصادق ، ولكنها لا تشبهه لا فى الأغراض ولا فى الآفاق .

ان الشعر الجاهلي يمتاز بقوة الشخصية وبالفردية التي اقتضتها بيئة العرب الصحراوية ... حيث كان كل عربي في حياته التي كثيرا ما تكون منفردة فى الصحراء يمثل عالما مستقلا يجعله يفكر وحده ويدافع عن نفسه وحده ... فكان الشاعر منهم أيضا يمثل في شعره تلك الشخصية وتلك الفردية الموجودة فى سائر امته فنجد لكل شاعر منهم شخصيته المستقلة ...

ولقد انحط الشعر العربي في أواخر القرن الرابع الهجري حين خرج الحكم من يد العرب فسادت على العرب النزعة الأعجمية التي كانت متمثلة في بلاطات الخلفاء العباسيين الأواخر وما تبعها من ملوك أعاجم ... أما تلك النزعة الأعجمية فكانت متمثلة في الاتباع لارادة الملوك ، وفي قبول المراسيم ... وبذلك أصبح الشعر عندهم لا يمثل نزعات النفس الحرة ، وانما يمثل تقاليد الصالونات المصطنعة ... ولهذا السبب ابتعد الشعر عن النفس ، واقترب الى الصنعة المتكلفة ...

أما شعرنا العربي المعاصر الذي ابتدأ منذ مائة عام تقريبا ويسمى بشعر عصر النهضة فليس فيه شيء من النهضة وما هو الا صدى للشعر القديم ، أو تقليد للشعر الغربي ... والسبب في ذلك هو ان العرب عندما بدأت نهضتهم منذ مائة عام تقريبا لم يكونوا يملكون الشخصية القوية التي كان يتمتع بها أجدادهم الجاهليون ، والتي ظهرت في شعرهم بصورة بارزة ...

أما شعري الذي تكوّنت منه دواويني الثلاثة عشر ، والذي طبعت منه عشرة دواوين فهو فضلا عن انه يعتمد على شخصيتي القوية المحافظة على اصالتها العربية فهو لا شك يتغذى من ثقافات ثلاث وهي الثقافة العربية القديمة حيث نشأت نشأة علمية دينية .. فقضيت أكثر من ثمانية أعوام في دراسة العلوم القديمة والآداب القديمة في مدارس النجف الأشرف فدرست ودرّست تلك العلوم والآداب من نحو وصرف ومنطق ومعان وبيان واصول فقه وشيء يسير من الفقه ... وقبل الحرب العالمية الاولى مرضت مرضاً شديداً منعني الأطباء على أثره من متابعة تلك الدروس المرهقة ، وسمحوا لي أن أطالع بقصد التسلية فقط فأقبلت على مطالعة كتب الادب من قديم وحديث ، وقراءة الصحف والمجلات والكتب الحديثة ، ومتابعة كل ما يجد من فكر أو أدب ... وبذلك تثقفت بالثقافة الاوربية

أيضا ••• ثم اشتغلت بالسياسة والتخطيط لثورة العراق على الانكليز سنة ١٩٢٠ الميلادية حيث كان بيتنا في النجف الأشرف أحد مراكز التخطيط للثورة ، وعندما اقتربت الثورة من نهايتها اضطررت لمغادرة العراق الى ايران حيث تعلمت الفارسية واشتغلت بالتدريس ••• ثم استعفيت منه بسبب ضعف صحتي ، وشرعت أكتب في الصحف والمجلات الفارسية ••• ثم انتخبت عضوا في النادى الادبي الفارسى ••• ثم ترجمت رباعيات الخيام أصدق ترجمة ••• وقد طبعت حتى الآن سبع طبعات مشروعة وطبعتين مسروقتين مع الأصل الفارسي ••• ثم عينت عضواً في لجنة الترجمة والتأليف حيث ترجمت لوزارة معارف ايران كتاباً في علم النفس من تأليف الشاعر علي الجارم والاستاذ مصطفى أمين ••• وقضيت في طهران ثماني سنوات تغلغلت أثناءها في الأدب الفارسي والمجتمع الفارسي، وعشت تلك الفترة فارسياً دون أن أفقد شخصيتي العربية ••• فأكون بذلك قد تثقفت بالثقافة الفارسية أيضا •••!••

وهكذا هضمت نفسي الشاعرة ، وشخصيتي القوية تلك الثقافات الثلاث وتغذت بها ، وكانت حصيلتها هذا الشعر الغريب عن عالم الشعر المألوف ، والغريب عن عالم النفس ••• وقد عبرت عن طريقتي الشعرية بهذين البيتين :

بابداعي الاشعار لا أتكلف ... متى رمت ابداعاً من البحر أغرف
نأيت بشعري عن قديم ومحدث ... فشعري كروحي جاهلي مثقف

أما عوالمي الشعرية فقد عبرت عنها بايجاز في قولي :

بادلت هذا الوجود حبي ... والسر في الحب لن نبيحه
أعطيت روحي لكل شيء ... وكل شيء أخذت روحه

لقد كان حقاً حديثاً ممتعاً ومفيداً للغاية استعرض فيه الاستاذ الصافي

فصـولا من تاريخ تحصيله العلمي ، ونشاطـه الفكري ، وشخّص واقـع الادب العربي الراهن بكل علمية شمولية ، وذهنية متفتحة ••• وليست الآراء الصائبة التي ساقها الينا بالغريبة عنه فهو ابن بجدتها ••!••

وانفض جمع سمرنا على أن نستأنف انعقاده في الغد المقبل ••• لنظل على صلة وثقى بشاعرنا المحبوب ، وأديبنا الموهوب أحمد الصافي النجفي الذي لن تمل أحاديثه ••• بل تبعث فى نفوس السامعين حيوية التفكـير الجدي ، وروحية استشراف آفاق المجهول •••!••

الصافي الشاعر الملتزم

أحمد الصافي النجفي أغنى من أن يعرف للقراء ، فهو من أبرز شعراء العرب المحدثين ، ترفع عن المحاكاة والتقليد في طرق مواضيع أكل الدهر عليها وشرب ، واتسمت أشعاره بكل معنى عميق من معاني الانسانية النبيلة ، فيها جدة وابتكار ، تناول كل جوانب الحياة ، وهو شاعر صادق الشعور مرحف الاحساس ومن ذوي الكفاءات الزاخرة بالتجارب ، جدد في موضوعات الشعر الذى وسمه بسمات الابداع والخلق ، ضحى بالشكل في سبيل المعاني والأفكار ، فلم يحفل بالترويق اللفظي « والصنعة الكلامية » والزخرفة البيانية ، يتميز بغنى وخصب مواضيعه ومضامينه ، وشعره من الشعر التقليدي في أوزانه وقوافيه ولكنه ضم الكثير من عناصر الاجادة والاصالة والصدق ، واجتذب اليه القارىء لأن قصائده التي يصدرها فيما تشبه العفوية المحببة تدخل القلب دون استئذان ، وهوالانسان الطيب الكريم العواطف ، الدقيق المشاعر ، كرس كل نشاطاته الفكرية لخدمة امته ، وأصبح الحرف جزء من حياته ، تتجسد فيه كل خصائص الشاعرية الموهوبة ، والقريحة المبدعة ، ومن خلال صوره الشعرية نرى عالما يزخر بالحياة والكفاح والطموح ، وقد اجتمع فنه وشخصيته في شعره الذى لا يعدو أن يكون تعبيراً حقيقياً عن الحياة المريرة القاسية التي يعيشها :

وليس من عجب أن يتجه الصافي منذ حداثة سنه نحو دراسة الادب فيعب من ينبوعه العذب بشغف متزايد وقد نشأ وترعرع في النجف الأشرف ... المدينة المقدسة التي تعد من أهم مصادر العلم والادب في البلاد الاسلامية ....!..

وفي الثلاثين من حزيران سنة ١٩٢٠ الميلادية ثارت عشائر الفرات ضد جنود الاحتلال البريطانيين مطالبة بالاستقلال والحرية ، واستبسلت في الدفاع عن كرامة وطنها السليبة بعناد واصرار ، وخاضت معارك دامية أهمها « الرارنجية » بالقرب من الحلة بقيادة الحاج عبدالواحد سكر شيخ قبيلة آل فتلة التي كبدت الانكليز خسائر فادحة في الاموال والارواح ، و « قطار الديوانية » على مقربة من الديوانية ، وكان هجوم عشيرة الظوالم على سجن الرميثة لانقاذ رئيسهم « شعلان أبي الجون » من براثن الاعتقال ، الفتيل الذي أوقد لهيب الثورة الوطنية الكبرى ...

وكان الشاعر أحمد الصافي النجفي في طليعة الشباب الواعي المتحرر الذي هب للانخراط في سلك المقاومة الشعبية ، والاسهام الفعال في اذكاء نيران الحركة الوطنية التقدمية ، وذلك بالقاء الشعر الثوري الصارخ في المحافل والاندية لالهاب الشعور الوطني ، واذكاء الوعي القومي ، غير ان المستعمرين الغزاة ومن ضلع في ركابهم من العملاء المأجورين أشاعوا الارهاب الوحشي ضد الوطنيين الاحرار، وطاردوا الكتاب والشعراء الذين جعلوا من نتاجهم الفكري اداة كفاح ونضال من أجل ارساء قواعد الحق والعدالة فزجوهم في ظلمات السجون والمعتقلات ونصبوا المشانق لاعدام ذوي الافكار العقائدية الحرة ، ويحدثنا الشاعر في كتابه النثري الرائع (هزل وجد) عن الثورة التحررية في النجف فيقول :

« ان بلدة النجف ذات تاريخ مشحون بالحوادث والثورات الفكرية والمادية ، وهي تعد بعد بغداد ذات الشأن الأول في أكثر حوادث العراق ، فان أكثر المؤتمرات كانت تنعقد تحت سقوفها وبين زواياها ، وهي منذ ان فتحت عليها عيني فتحتها على ثورات وحروب متوالية سواء بين سكان بعض أحيائها والبعض الآخر أو بين الأهالي والحكومة ، فكان أهم ثوراتها التي أرى حوادثها لا تزال الى الآن ماثلة لعيني هي الثورة النجفية الكبرى التي

اندلع لهيبها على الحكومة الانكليزية قبل انتهاء الحرب العامة بسنة ، وكان القائمون بها بضعة عشر شابا بقيادة البقال حاج نجم كان أيام السلم يشتغل بالبيع والشراء ، وأيام الحرب يصبح بطلا مغوارا ، وقد هجم اولئك الثائرون على سراي الحكومة الواقع خارج البلدة وكان فيه عدد وفير من الجند الانكليزي والشرطة العرب فقتلوا الحاكم الانكليزي وبضعة أنفار من الجنود وسقط منهم جريحان جاؤا بهما الى داخل البلدة فأخذ ينضم الى الثوار عدد من المحاربين بلغوا بعد بضعة أيام ثلثمائة نفراً ، أما الحكومة الانكليزية فقد ساقت جيشها الذي كان قد انتهى من سحق الاتراك على حدود الموصل وجاءت به الى النجف بمصفحاته ومتراليوزاته ومدافعة وكان عدده يتجاوز الأربعين ألفاً وطوقت به البلدة وتركتها تحت الحصار أربعين يوماً ذاق الأهالي في خلالها الأمرين من جوع وعطش وموت وانتهت الثورة بخيانة أهالي أحد الاحياء وفتحهم الطريق للجيش الانكليزي حيث استطاع أن يدخل البلدة ويستولي على أغلب الثوار فيشنق خمسة عشر بطلا منهم وينفي الباقين الى بلاد الهند ، ثم صارت الحكومة بعد ذلك تمسك على الظن والتهمة وتسوق المتهمين للسجن أو النفي » .

وفي أثناء هذا العهد الدموي الرهيب تسلل الشاعر الوطني عبر الحدود ودخل الاراضي الايرانية فرارا من استبداد الطغمة البائدة التى تنكرت للشعب وبالغت في التنكيل بأحراره وأمعنت فى استلاب حريته وبقي فى طهران ثماني سنوات عكف خلالها على دراسة الادب الايراني وأحاط بأسرار اللغة الفارسية ، ونقل رباعيات الخيام الى اللغة العربية بأسلوب شيق ممتع ، انتزع اعجاب ادباء ايران البارزين واستثار دهشتهم فقال له العلاّمة صدر الافاضل «اكاد اعتقد ان الخيام نظم رباعياته بالعربية والفارسية معاً وقد فقد العربي منها فعثرت عليه وانتحلته لنفسك » .

وفي سنة ١٩٣٠ الميلادية سافر الى مدينة دمشق الجميلة .... وما

ان وطئت قدماه أرض سورية واجتمع بطائفة من ادبائها النابهين واطلعوا على سعة احاطته بالثقافة العربية والفارسية ، ونضوج شاعريته الفذة ، واتقاد ذهنه النيّر احتفوا به أروع وأعظم احتفاء ، وكتبت عنه الصحف وحللت قصائده ذات الاجواء البعيدة النابعة من مكامن ذاته الانسانية ، وراقه البقاء في دمشق حيث اتخذها وطناً ثانياً بعد النجف الأشرف وقال فيها :

أتيت جلّق مجتازاً على عجل	فأعجبتني حتى اخترتها وطنا
لا يبرح الحسن يوماً عن مرابعها	كأنما الحسن من قدم بها افتتنا
لا يرتضي الطرف شغلاً عن محاسنها	حتى تعادي فيها المقلة الوسنا
أيقنت اني من أهل الجنان ففي	دمشق أسكن جنات تفيض هنا
عجبت ممن أتاها كيف يبرحها	فهل يرى في سواها عن دمشق غنى
ما جنة الخلد الا للذي سكنا	بها وما النار الا للذى ظعنا
يكاد ينسى غريب الدار موطنه	في ربعها ويعاف الأهل والسكنا

والصافي من الشعراء المكافحين الذين حاربوا الظلم والتعسف فى جرأة وصرامة ، ولم يتلكأ عن ابداء رأيه أمام قوى الطغيان ، أو اعلان ثورته العارمة على التقاليد البالية ، أو يتنصل من عقيدته ازاء المتزمتين واختار لنفسه أن يكون (معرياً) علم يتزوج من امرأة فينسل حيث يجني على غيره كما جني عليه ، ونذر حياته ومواهبه لخدمة المجتمع الذى يعايشه وصار يعطف على الحيوان فضلا عن أخيه الانسان وهو القائل :

ويوم تكاد الشمس تُحرق نفسها	به واخال الكون قدراً بنا يغلي
أتيت الى وادٍ ظليل مؤملاً	به عذب ماء مطفئاً ظمأ يصلي
فمذ جئت للوادي بدا بين دوحه	لعيني غدير طيب النهل والعل
فأسرعت نحو الماء يعدو بي الظما	وأوشك أن أعدو له سابقاً رجلي

فما كدتُ أدنو منه حتى أتت لـه — من البر شـاةٌ وهي ظامئـة مثلي
فأعطيت للشـاة الـوديعـة منهلي — وقلت أيا شاة الفلاة اشربي قبلي

وكانت اصابته بالأمراض الكثيرة المزمنة صدمة لوجدانه ومشاعره ، ظلت تعكس آثارها على شعره ... وان قـوة ارادته منحتـه التغلب عـلى المشاكل التى تملأ حياته وتشغل ذهنه ، وجعلت منه ينبوعاً متدفقاً بالرقـة والنبل الانساني فضرب مثلاً عالياً في الاخلاص والتجرد ونكران الذات ، وظل يسير فى طريق الكفاح الشائك الوعر حتى النهاية ، لدعـم القيـم الخيّرة التى تنشدها الانسانية جمعاء .

والسيد الصافي أوقف حياته دائماً لخدمة الشعر واتخذه وسيلة للتعبير عن الحياة والانسان وهو القائل :

يقول لم اتخذت الشعر شغلاً — انـاس همهـم نيـل الثـراء
فقلـت لهـم بأشـعـاري أغني — وهـل شغـل ألذ من الغنـاء
اذا أنا لم أنل بالشـعـر مـالاً — أنـال بنظمـه أقصى عـزائي

ويقـول :

سأشكر للدهر الخؤون خطوبه — وان كدت منها أفقد الرشد والصبرا
فان خطوب الدهر اذكت بصيرتي — وان خطوب الدهر أوحت لي الشعرا
وكم من مصابٍ حل بي فحسبته — سيفقدني روحي ويسكنني القبرا
فما زال يغلي فيّ حتى تفجرت — ينابيع شعري منه واندفقت نهرا

وتعثر الصافي في مسالك عيشه ، ودروب حيـاتـه ، وذاق مـرارة الحرمان والبطالة والتشرد ، وبات فريسة لشتى الاسقام فعبّر عن حالته النفسية القلقة التي يعيشها وينفعل بها وجدانه فقال :

لم تهبني يا رب رزقاً سوى الحس — بـدنيـا مملـوءة آلامـا
وضعيفـاً خلقتني لـم تـدع لي — غير جسمٍ يكـابـد الأسقـامـا

ووحيــداً تركتني دون خــلٍ غير بؤسٍ على ولائي داما
وخطوب الحياة لم تبقِ مني غير عزمٍ يكافح الأياما

وقـال :

انما الحزن لي صديق قديم عاش في مهجتي وعاشر فني
ولقد مر بي السرور كطيف ضافني ليلة وسافر عني

ولازمه الاخفاق في كل مجالات الحياة ملازمة الظل للانسان فقال :

سعيت لتحصيل السعادة جاهداً فزاد شقائي من ضياع جهودي
فطوراً حسبت العلم يحبو سعادة اذا السعد يمشي نحو كل بليد
وطوراً ظننت الصيت يسعد أهله فلم استفد بالصيت غير قيود
وقلت لعل الحب للسعد جالب اذا بي لنار الحب بعض وقود

وظل بالرغم من قلة ذات يده ، ورقة حاله مثلا رائعاً في الانفة والاباء والشمم فلن يسكب ماء وجهه ، أو ينام على ضيم ، أو يستخذي أمام هبوب الاعاصير ، بل بقي في موقفه الباسل الجريء دفاعاً عن رسالة الشعر المقدسة التي أبى أن يتاجر بها في سوق المديح والرثاء فيقول :

يساومني الزمان على اباء يساوي كل ما ملك الزمان
فأدعو صه فلست أبيع عزي ولو عرضت براحتك الجنان
متاعك ماله شارٍ بسوقي فسوقي لا يروج بها الهوان
لئن خادعت قبلي رب شعرٍ فلي شأن وللشعراء شان
لقد دخلوا بسوق الشعر ظلماً وكم عقدوا بها عهداً فخانوا
وكانوا كالهشيم أتته نار وقد زالوا وما زال الدخان

وحينما دعي لرثاء احد الموتى الاغنياء المتنفذين تفجرت فيه براكين النقمة والحنق فقال :

قلت للطالبين مني رثاء لعظيم في موقف التأبين

كيف أرثي سواي ميتاً واني		الحي في حاجةٍ لمن يرثيني
انمـا الحي بالـرثـاء لأولى		حين يشقى من ميت مدفون
كفنـوا الميت بالثياب جزافـاً		رب حي أحـق بالتكفـين

والصافي انسان ظريف ، خفيف الظل ، يرصد النكتة ، ويستملح الأفكوهة ، ويحفظ من النوادر الأدبية الشيء الكثير ، فهو لطيف المعشر ، حلو الشمائل ، بارع الحديث يمزج الحكمـة بالتهكم الـلاذع ، فيلامس شغاف القلب ، ويطرب الروح ، وله في هذا المجال اشـعار هي غاية في الطرافة التي تثير الالم والضحك في آن واحد (وشر البلية ما يضحـك) فيقول في افلاسه المزمن الأبدي :

صافحتني يـد امريء فـرآني		ساخنَ الكف من لظى الوسواس
قـال هذي حـرارة الايمـان		قلت لا بل حـرارة الافـلاس

ورأى الفقراء المتزوجين الذين لا يستطيعون حتى سد رمقهم ينسلون أطفالاً أبرياء فيتركونهم متضورين تحت غائلة الجوع ، ومخالب المرض وشظف العيش ، في الوقت الذي فيه الاثرياء المترفون من أرباب القصـور الشاهقة يتحرقون شوقاً لانجاب الاولاد ، ولكن آهاتهم ومحاولاتهم تذهب عبثاً ، فيقول :

كم غني لم يعطه الله نسـلاً		وفقـير يبـلى بنسـل كثـير
فلـو ان الامـور كـانت بكفي		كنت أخصي في الكون كل فقير

ويقول في رجل ثرثار :

كلامـك كالغنـاء يلذ لـكن		اذا ما طال يحصل منه ضد
فليتك كنت كالحاكي يغني		اذا شئنـا وان شئنـا يسـد

وقال في المتشاعرين الذين يعيشون على فتات موائد الأدب ويدعـون بما ليس فيهم ، فتمتلكهم الكبرياء والزهـو ، ويركب رؤوسهـم الطيش والغرور •

وكم في حياة الشعر من متشاعرٍ يعيش طفيلياً على الشعراء

وحينما يتطرق الى موضوع الاصدقاء الذين لا يرعون الذمام ، ولا يوفون بالعهود ، فان شعره في هذا المضمار يفيض سخرية ، وينضح تهكماً ، ويرشح لوعة ، فقد عانى الشاعر الكثير من جحود الاحباب ، وعقوق الاصحاب ، ولا أقل من أن نلم ببعض الملامح التى عبر عنها تعبيراً صادقاً نابضاً مليئاً برهافة الاحساس ، ودلت دلالة كافية على عمق التجربة التى عاشها بأعصابه ، واكتوى بنارها فيقول :

كم من صديق قديم عهد صحبته حي وعهد الحب منه فني
ما كنت أحسب والايام شاهدة ان الصداقة تبليها يد الزمن

وعندما تفقمت خيانة الاصدقاء وأصبحوا كالأموات الذين يستحقون التأبين أمسى الصافي في حاجة لبرقيات التعازي حيث تعاظم موت رفقائه الذين عرفوا بنكران الجميل ، ونسيان الماضي ، والكفر بحقوق الصداقة . وراح يقول :

اذا ماصديق خان عهد وداده فقد مات والتأبين فيه يليق
هلموا فعزوني وقولوا لك البقا ففي كل يوم لي يموت صديق

وعندما ظهر له خطأ اعتقاده بنزاهة أصدقائه وانزلاقهم في حمأة الدنايا ، ولاحوا له بعد وضعهم على المحك مباءة للانتهازية والرجس صار يقول :

كم من رفيق شغفت فيه لما بدا لي مثال قدس
أخاله في الورى ملاكاً ما لوثته الدنى برجس
حتى اذا ما امتزجت فيه وبان لي خاب فيه حدسي

وهناك بعض الرفاق تاج يلبس في الرأس ، وآخرون كالنعل لا يستأهل غير القذف به في النفايات ، فقال :

لا تأسفن على خل تفارقه الا اذا كان طبع للوفا فيه

بعض الرفاق كمثل التاج تلبسه　　وبعضهم كقديم النعل تلقيه

ويمعن الصافي في دراسة أخلاق بعض الناس الذين تبهرهم اناقة المظهر ، ويستحوذ على ذهنيتهم الضيقة الهندام البراق ، واللباس الأنيق فيخرون سجداً لمن يرفل في الحرير وان كان بليد الاحساس ، ميت الضمير ، ويشيحون بوجوههم عن ذوي المواهب الخلاقة الذين يعزفون عن التبرج الكاذب ، والطلاء الزائف وقد كرسوا جل حياتهم للبحث والتحصيل ، ويقدمون للانسانية العطاء السخي في الفن والأدب والعلوم ، فقال :

لبست ثوباً جديداً فاكتسيت به　　شأناً جديداً وصار الكل يكرمني
تغيرت نظرات الناس لي ولقد　　كانت تريني نفوراً حين تبصرني
فصار يبسم لي من كان يعبس بي　　وصار للصدر يدعوني ويجلسني
كأنما أنا هذا اليوم غيري في　　أمسي وما بدلت روحي ولا بدني
ان كان حسن لباس قد دعاه الى　　هذي الحفاوة بي في السر والعلن
فليمض توا الى سوق القماش لكي　　يلقي له سجدة العباد للوثن
ظننت البستي للبُله خادعة　　اذا بها خدعت حتى ذوي الفطن
الكل تفتنه الألوان زاهية　　وليس بالجوهر الغالي بمفتتن

وقال في لئيم :

متى تسأم لئيماً لا تهنه　　فانك ان تهنه دنا اليكا
ولكن أوله كرماً ولطفاً　　فان تكرمه يهرب من لديكا

وهذان البيتان هما صدى لقول الشاعر أبي الطيب المتنبي المشهور...

اذا أنت أكرمت الكريم ملكته　　وان أنت أكرمت اللئيم تمردا

والمرأة هذا المخلوق الانساني الرائع هي مصدر الهام لكل شاعر حيث أملت عليه ولا تزال تملي رائق الشعر الخلاب في لحظات الاشراق

النفسي ، فيستجيب لها شعوره الحي استجابة قوية ، ويقدم لنا معطيات جديدة تحمل طابع الحياة ودفئها وحرارتها ، ولا أدل على صحة ما نقرر الا أن نسوق للقراء الكرام بعضاً من غزل الصافي الذي تمور فيه المشاعر الرقيقة ، فله مقطوعات جميلة في الغزل ، وهي فيض شعور ، وانطلاقة نفس ، صب فيها عواطفه وانفعالاته ، ولم يكن الامعبراً عن أحاسيس قلبه الظامىء لينبوع الجمال الانثوي الرقراق ، وقال في الحب :

قد شاب في الحب رأسي والقلب ما زال طفلا
يا ربي ارجع شبابي أو هب فؤادي عقلا

وقال :

يا قاتلي ببعاده كن حاضراً حين احتضاري
ناران في أحشاي نار الهجر أو نار انتظار
يا ليتني لك كنت ظلاً حيث أنت تسير سار
اني لأحسد أهلك الهانين فيك وكل جار

وقال :

أتعذلني لأني فيك صب وتدعوني لحبك مقلتاكا
أحب عبادة النيران شوقاً لنار سعرتها وجنتاكا
هواك أحاط بي من كل صوب وأغرقني بلجته سناكا
كأن الكون أنت فحين أرنو اليه لا أرى شيئاً سواكا

وقال :

تمنيت من خدي حبيبي قبلة وما خده الوضاء غير شعاع
فجاد بها لكن بوقت وداعه فيا ليت كل العمر وقت وداع

وقال :

عشقت فكرتي حسان المعاني وهوت مقلتي حسان الغواني

المعـــاني تجيئني ســـافــرات ليت عنـد الحســانذوق المعاني
لتهـــاوت اذاً عـلي فظلـت أنتقيهـا مثـل المعاني الحســان
طفح القلب فوق عيني فأضحى ناظري مبصـراً بعـين جنـان
ان من لا يرى بقلب بصـير لهـــو أعمى عكـازه عينـاه

وقال تحت عنوان (الى ممرضة) ولعله كان نزيل أحد المستشفيات فالتقى بواحدة من ملائكة الرحمة الحسناوات فأدهشه حسنها الصارخ وهو الشاعر الحساس الملهم ففاض خياله الخصب بهـذه الابيـات التي تدغدغ الاعصاب ، وتهدهد الأحلام ، وترقق العواطف .. حيث قال :

بخديك أحببت زهو الورود وفي مقلتيك عشقت الذبـولا
اذا ما نظرت سبيت القلوب واما نطقت سلبت العقـولا
ينافس فيـك العليلُ الطبيب ويحسد فيك الصحيح العليلا
تمرّض كفاك أهل السقـام وحبك يولي الضنى والنحولا
عليلك ليس يريد الشـفـاء لئلا يكابد عنـك الرحيـلا

وقـــال :

سيفان عندك سيف هجرقاتل للعاشقين وسيف لحظ ماض
ان رمت قتلي فاقتليني منهما بظبى اللحواظ لا ظبى الاعراض

وقـــال :

أفدي حبيباً لا اطيق فراقـه فكأنما هو في الحياة حيـاتي
يعلـو زفـيري كلما أبصرته حتى تكـاد تمصـه زفراتي

وقـــال :

ناديت من أهوى فلاح أمامي وأتى اليّ بوجهـه البســام
لو كان يحضر كل ما ناديته ما كان غيراسم الحبيب كلامي

وقال في لاعبة تنس :

بالتنس قد لعبت فتاة بضة — لا غرو ان فاقت على الأقران
تأتي لها الكرة الصغيرة صبة — فتردها كالعاشق الولهان

وقال :

جاءت الي من الحبيب رسالة — من بعد هجر مدنف ونزوح
فوضعتها فوق الضلوع فأنعشت — قلبي وهزت للسعادة روحي
فتساءلوا عن سر ذا فأجبتهم — هذا الضماد لقلبي المجروح

والشاعر الصافي انسان نبيل تسمو نفسه فوق المطامع الزائلة ، وتشرق روحه بدماثة الخلق ، وصفاء الذهن ، ونضوج الشخصية ، ويترفع عن الابتذال والسباب المقذوع فقد قال للساخرين منه :

مهما سخرتم بي فلست مجيبكم — أنا لا اضيع فيكم الاوقات
يعطيكم نظري اليكم قيمة — كالشمس اذ تعطي الجماد حياتا
ينحط قدري كلما خاطبتكم — ويعيد قدراً منكم قد فاتا
كالنهر ينقص حينما يعطي الثرى — ماء يحيل به الجماد نباتا

وقال :

رجوت الله يسعفني بمال — لأسعف كل محتاج فقير
ولوملكت يدي يوماً شعوري — لجدت به لمعدوم الشعور

ويلقي الشاعر علينا درساً بليغاً في التضحية ونكران الذات في قصيدته (تينة الجبل) التي تتحمل حرارة الصيف ، وزمهرير الشتاء ، ونوائب الزمان دون أن ترفع عقيرتها بالشكوى ؛ بل تمضي قدماً في عرض ثمارها الدانية للناس بلا عوض ، ومن غير ضجيج ولا افتخار ، فقد أخذت على عاتقها اسداء الخدمات الجلى لبني الانسان ، فكم هو حري بنا نحن البشر ان نسعى دوماً لتطوير المجتمع نحو حياة أفضل ، ونعمل على بث روح التسامح والتعاون فيما

بيننا ، ونستأصل شأفة النزوات الشريرة الكامنة في قرارة نفوسنا ، فيقول :

نبتت في الجبال دوحة تين ... وقفت مثل وقفة الجبار
أصبحت لا ترى سوى البر حلياً ... لا ولم تشتمل بغير الوقار
لم تفاخر بالمجد دوحاً فنالت ... قصب السبق يوم عرض الثمار
وهي تسعى للبر دون ضجيج ... وهي تعطي الخيرات دون افتخار
وهي طي الخفاء تدأب كدحاً ... مستمراً في ليلها والنهار
تصهر الشمس رأسها كل صيف ... وتلاقي الشتا بجسم عار
قد تلقت حوادث الدهر تترى ... دون أن تشتكي من الاقدار
ما الذي ساقها لنفع البرايا ... دون ما دافع ولا اجبار
كم لها من يدٍ علينا ولكن ... ما عليها يد لغير الباري
لم تزل تأكل التراب ولكن ... تطعم الخلق أطيب الاثمار
ليتنا مثلها فنعطي جناناً ... لا لنفع يرجى ولا استثمار

أما تعلقه بجمال الطبيعة وحبه لها فحدث ولا حرج ، فقد اتخذ منها محراباً للفن يضيء له جوانب الفكر ، ويستقصي فيه أسرار الكون ، وحكمة الوجود ، ومعبداً للتأمل الروحي في الحياة والأدب ، واستشفاق حجب المستقبل ؛ وقصائده في هذا المجال تؤهله لان يكون في مقدمة شعراء الوصف المعاصرين ، فقد قال في (بقين) وهو أحد مصائف سوريا الفاتنة !

أيا بقين فيك الحسن يسبي - ... فما بك غير غانية وصب
ضياء البدر أخفته شموس ... تشع عليه من شرقٍ وغرب
لقد نشر الجمال بكل صوب ... وقد نصب الغرام بكل درب
الى بقين سرت بألف قلب ... وعدت الى الشآم بدون قلب

وفي اداء جميل أخاذ قال واصفاً زحلة :

أزحلة عم فيك الحسن حتى ... لتغلو فيك أسعار الدميم

توزع فيك قلبي دون حدٍ ... لما تحوين من حسن عميم
أرى واديك ممتلئاً بحورٍ ... فهل واديك جنات النعيم
وهل بنسيمك المعتل خمر ... فاني قد سكرت من النسيم
فيا وادي العرائش أنت وادٍ ... يفر لك الفؤاد من الهموم
نجوم الكهرباء بكل ليل ... تكوّن فيك افقاً من نجوم
نجوم كوّنت من كهرباء ... تلألأ في سماء من كروم
نجوم قد طلعن على شموس ... يلحن بغرة الليل البهيم
فليت الليل فيك يظل ليلاً ... وليت الصبح مات مع الغموم

وعندما كان في ايران قال في احدى لياليها ...

يا ليلة لي قد مضت في فارس ... طلعت تميس بحالك الابراد
قد غاب بدر سمائها فكأنها ... لبست لفقد البدر ثوب حداد
وكأن هذا الليل بحر هائج ... طغت الدجوم عليه كالازباد
وبدا لي الجو الفسيح كمسرح ... للنجم فيه محافل ونوادي
والشهب تسقط في الفضاء كأنها ... ألعاب نارٍ ليلة الميلاد
والبدر من خلل السحائب لامع ... كالجمر يلمع من خلال رماد

وفي الشتاء حيث السحب الكثيفة ، وهزيم الرعد ، ووميض البرق ، وهطول الأمطار ، وصفير الرياح ، والراعي وهو يسوق أغنامه في الأودية ، كل هذه الصور البديعة يصوغها الصافي في قالب شعري ساحر فيقول :

هذا الشتاء بدا من الآكام ... متلفعاً من سحبه بلثام
قربت طلائع جيشه منا ومن ... خلف الجبال بدت جبال غمام
وغدا يدمدم قائد من رعده ... متمنطق من برقه بحسام
وتسلح الراعي لسوق قطيعه ... بعصاً يهش بها على الاغنام
فبكل سهلٍ ماء طود شامخ ... وبكل وادٍ بحر مزن طام

فكأن بحراً قد تعلق بالسما | سبحت به سفن من الأكـام
والريح تثقل خطوها فكأنما | أثوابهـا ابتلت بمـاء هـام

وجلس بجنب نهرٍ فقال :

جلست في جنب نهرٍ فاغتديت به | ذا نشـوةٍ لأفـاعي الهـم تلتهـم
حيث القصوربموج النهرقد ظهرت | تهتز في المـاء لـكن ليس تنهـدم

ولا يفوتنا هنا أن نشير الى قصيدته في وصف (الشاي) التي نظمهـا يوم كان في ايران وترجمت الى اللغة الانكليزية فكان لها صدى بعيـد ، وقد أجاد في عرض صور شعرية تأخذ بمجامع القلوب ، ويهتز لها وجدان القاريء ؛ فقال :

لئن كان غـيري بالمدامـة مولعـاً | فقـد ولعت نفسي بشـاي معطـر
اذا صب في كأس الزجـاج حسبته | مذاب عقيق صب في كأس جوهر
عجبت له يكوي اللسـان حرارة | ويطفيء نـيران الجـوى المتسعـر
اذا فار ما بين (السماور) مـاؤه | سـمعت لـه أنغـام ناي ومزهـر
كـأن بـه صبـاً ينوح وقـد ذكى | لهيب الهـوى منـه بقلب مسعـر
وان بلغت نار الهـوى فيه حدهـا | بكى لوعـة في دمعـه المتحـدر
فثم تخـال الفحـم أفلاذ مهجـة | من الليل تلقى في نهـار منـورٍ
فان ضاق صدراً عن تأجج شوقـه | تـأوه في أنفـاس مـاء مبخـر
لئن يمتلك يومـاً جناحاً يطر بـه | الى حيث من يهوى وبالوصل يظفر
كأن كؤوس الشاي بضع نواسك | تحيـط بمعبـود من التبر أصفـر
وتفتـح فاهـاً بالدعـا فيجودهـا | بـذوب لجـين أو بـدر مفطـر
وأحسبهـا حول (السماور) تارة | بنـات مجوس قد أحطن بمجمـر
وتحكي لنا ما بين بيض صحونهـا | تمـاثيـل در في معابـد مـرمـر
وابريقه فوق (السماور) مرتقٍ | كمثـل خطيب جالس فوق منـبر

يفـوه ولـكن في عقيـق مقطـر ويـنطق لـكن في كـلام مصـور
(سمـاوره) يبـدو كشيخ معمـم من الصين يزهو في رداء معصفر

والصفي ينزع نحو الواقعية ، فالأدب في رأيه يجب أن يكون موجهاً هادفاً ، وعلى ضوء هذا الاتجاه النيّر راح يعالج المشاكل التي يعايشهـا ، وينظر بعين بصيرته النفاذة الى قضايا الشعب المصيرية ، ويقدم صورا حقيقية يضمنها فلسفته العميقة ، ونظراته الواعية في تصوير قلق جيلنا المعاصر ، فلا يلابس ذهنه الغموض ، ولا يجنح نحو التخيلات البعيدة عن واقعنا المرير ، فهو يعيش مع جموع الكادحين يتجاوب معهـا ، وينفعل بهـا ، ويستوحي منها ، ويؤثر فيها ، فتزداد شاعريته تألقاً وتوهجاً ، ولمـا كان الشاعر قـد انبثق من أعماق الريف العراقي ، فقد جلب نظره النافذ بؤس الفلاح وفقره المدقع ، وما يعانيه في حياته الكئيبة من مرض وجهل وفقر ، وما يقاسيه على أيدي الاقطاعيين المستغلين من اضطهاد واسترقاق وظلم ، وهو يقضي الاشهر الطوال في الحرث والسقي والزرع فلا يقطف من أتعابه وجهوده غير التعاسة والدموع والعرق ، أما اولئك الشيوخ المتنفذون الأثرياء فينثرون آلاف الدنانير على موائد القمار والميسر ، وفي مواخير الدعارة والفجور ، ولكن بعدهم الطوفان ، فيقول الصافي :

رفقـاً بنفسك أيهـا الفـــلاح تسعى وسعيك ليس فيـه فلاح
لك في الصباح على عنائك غدوة وعلى الطوى لك في المساء رواح
هذي الجراح براحتيك عميقة ونظيرها لك في الفؤاد جراح
في الليل بيتك مثل دهرك مظلم مـا فيـه لا شمع ولا مصبـاح
فيخر سقفك ان همت عين السما ويطـير كوخك ان تهب رياح
بغضون وجهك للمشقة أسطر وعـلى جبينـك للشقـا ألـواح
عرق الحياة يسيل منـك لئالئاً فيـزان منهـا للغني وشـاح
يتنازعون على امتلاكك بينهـم فلهـم عليـك تشاجر وكفـاح

كم دارت الأقداح بينهم ولم ... تملأ بغير دموعك الاقداح
حسب الولاة الحاكمون على القرى ... ان ثم أجساد ولا أرواح
يا غارس الشجر المؤمل نفعه ... دعه فان ثماره الاتراح
اقلعه فالثمر اللذيذ محرم ... للغارسين وللقوي مباح
يا واهب الخير الجزيل لشعبه ... أكذا يجازى بالعقاب سماح
قد أقسم البؤس الذى بك نازل ... ان لا تمر بدارك الأفراح
تقضي حياتك بالعناء ولم تكن ... في غير أيام السقام تراح

أما قصيدته (الطفلة السائلة) فتنبع من أسمى المعاني النبيلة ، مع صدق التجربة الشعرية المعاناة ، وروعة التصوير الانساني ، وتوكيد المعنى في ذهن القاريء ، وهي تجيش بشتى الاحاسيس المرهفة ، وأصدق العواطف وأرقها ، وتنبثق من الواقع الاجتماعي ، انها طفلة رائعة الجمال ، ساحرة المحاسن ، اضطرها الجوع الذي لا يرحم أن تتسكع في المقاهي لاستدرار عطف الجماهير ، فكان الأدنياء يوجهون اليها نظرات نارية محاولين التغرير بها ، وايقاعها في فخ الرذيلة ، ولكنها تقابلهم باباء وشمم ، وأحشاؤها تتقطع حسرات ، وفؤادها يتأجج لوعة وألماً فيقول :

جاءت تكفكف دمعة حرى ... تشكو الضنى والجوع والدهرا
جاءت تكفكف سيل مدمعها ... بيد وتسأل باليد الاخرى
صبرت على منع البكا زمناً ... وطغى الأسى فاستنفذ الصبرا
تهتز من بردٍ ومقلتها ... للحزن تعطي شعلة حمرا
ترد المقاهي كي تنال بها ... فلساً فيخرجها الورى قسرا
الفقر أصبح هالةً حجبت ... عن عيننا من وجهها بدرا
طمعت بأوجه معشر ضحكوا ... فأتتهمْ فتجهموا كبرا
ولقد تصادف من يضاحكها ... لكن بنفسٍ تضمر الشرا
يسخو لها ان طاوعته وان ... سألته قوتاً ردها حسرى

هـذي تطوف لكي تعيش وذا — يسعى ليرضي شهوة نكرا
فكأنها من ذلها أمة — لم تلق لما استنجدت حرا
جاءت لتشكو جوعها ومضت — تشكو الورى والجوع والزجرا

وعندما غمرت السيول الجارفة (القلمون) وأحالت بيوتها الآهلة بالناس الى طلول غرقى بالمياه الدافقة ، وذهب الكثير من الأطفال والرجال والنساء ضحايا هذا الطوفان الكاسح ، وصار الشاعر لا يسمع غير صخب العويل ، وحشرجات الموت ، وصراخ الثواكل ، وانهيار الجدران ، فتحرك وجدانه الثائر ، واستجاب الى هواتف انفعالاته وعبّر عن نوازع تنبع من داخله ، ومر بتجربة انسانية حية فقال :

أرأيت فاجعة السيول — أسمعت ضوضاء العويل
هذي خيول الموت تعدو — أم سيول كالخيول
لم يبق من تلك الديار — الآهلات سوى طلول
سيل الدموع من الثواكل — ضاع ما بين السيول
ما رق قلب السيل عطفاً — للشيوخ ولا الكهول
بكت الثكول وحيدها — فطغى على الأم الثكول
نادى الخليل خليله — فقضى الخليل مع الخليل

وظل الصافي يبدع في التعبير عن تجارب الحياة اليومية ، ويجسد هموم الناس الذين يحبهم ويرتبط معهم بأكثر من رباط ، وينتزع صوراً شعرية من بيئته ، وينقلها عن واقعه كأنها قطرات من دم القلب ، وفي قصيدته (صباغ الأحذية) يبرز لنا تجربته المريرة وما فيها من صراع مع الحياة ، وهي انسانية اللحن ، واقعية الصور فيقول :

جاء يوماً الي صباغ نعلٍ — وبنعلي صبغ من الايام
جاء نحوي من بعدما طاف يوماً — دون ربح غير العنا والسقام

قلت أحبوه درهماً غير اني خفت من أن يذله اكرامي
فغدا يصبغ الحذاء بحذق مبدياً فيه كل فن تمام
ثم بادرته بما ضم جيبي من نقود أعددتها لطعامي
فمضى هنئاً ورحت كأني ثمل بالسخاء لا بالمدام

ومن أهم مميزات الشاعر الصافي هي نزوعه الى الخلق والابداع، فلا احتفال بالتزاويق الفنية ، والصناعات اللفظية ، والمحسنات البديعية ، وبمثل هذه البساطة والشفافية يقول :

قيل لي فيم لست تعني بوشي وبتنسيق فائض الأشعار
قلت شأني ارسال شعري سيلا ما على التنسيق للأنهار
فحياة السيول أحلى وأبهى من جمود الأفكار والأحجار

وشعره أحاسيس قلبه ، ومرآة أفكاره ، وعطاء عاطفي ثر ، مخلص كل الاخلاص في كل ما نظم من شعر ، ويأنف أن ينزل الى مهواة الشعوذة والنفاق والدجل فيحرق البخور أمام أعداء الشعب الذين يستلبون حقوقه ، ويصادرون حرياته ، وينتهكون حرماته ، ولا يقيمون له أقل وزن ، ولذا لم يلق شعره العناية اللائقة به في حقل الدراسة الموضوعية ، والنقد النزيه بعد ان أصبح الأدب الثوري الواقعي يجابه بعنف الملاحقة ، وصرامة المطاردة من قبل الفئات الرجعية المرتبطة مصيرياً بالاستعمار ، فيقول :

وقائلة علام خملت ذكرا وشعرك فوق أوج الشعر راق
فقلت بضاعة الاخلاص عندي فليس تروج في سوق النفاق

ويصب على الخونة المارقين شواظاً من لهيب نقمته ، ويسلقهم بألسنة حداد من السخط ، وكيف يباح للمرء أن يفرط في حق وطنه الذي نشأ وترعرع على أرضه الطيبة ، وسكر بخمر نسيمه الفواح ، انه ينبري للذياد عن حياضه ببسالة وصمود ، اذا ما تعرض لغزو الطامعين ، وأحدق به خطر الاستعمار الغاشم ، ونحن نرى الثعالب تهب لصيانة مغائرها ،

والطيور تكافح عن أوكانها ، فكم حري بالانسان أن يستيقظ ضميره ، ويتقد شعوره ، ويتفجر احساسه للذب عن بلاده ، ويبذل من أجل الحفاظ على كرامته وحريته آخر قطرة من دمه فيقول :

يا من جهلت من الأوطان قيمتها ادخل حمى الليث تعرف قيمة الوطن
حتى الثعالب تحمي عن مغائرها والطير يدفع مهتاجاً عن الوكن
يا خائناً لبلاد قد نشأت بها ما خنت بالارض بل بالأهل والسكن
ما ذقت اذ خنت للاخلاص لذته ومن يذق لذة الاخلاص لم يخن
ان كان ديناً ولوع المرء في وطن فقد كفرت به يا عابد الوثن

ويبقى هذا الأديب الملهم الذي يسعى لخدمة الانسانية خدمة نافعة ، يكابد آلام الاغتراب بعيداً عن أهله ومواطنيه الغيارى منذ ان غادر بلاده الى ايران وهو في العشرين من عمره المديد ولا يزال يتنقل بين مدن وقرى سوريا ولبنان ... وقد أسدل عليه ستار النسيان وتقاذفته أيدي العواصف ، وما يبرح وهو في كهوف هجرته يجتر ذكريات الصبا ، ويقض مضاجعه الحنين ، وترتطم أحلامه بصخور وعرة من النكبات والشدائد الجسام فما لان ولا استكان وظل ذلك الانسان الكبير القلب ، والمناضل الصامد في وجه الأهوال فلا تتزعزع عقيدته ، ولا تلين قناته ، ويتحدى تقلبات الايام فى كبرياء وشموخ فيقول :

حتى م أقضي ثمين العمر مغترباً كأنني ليس لي مثل الورى وطن
فمن رآني أطوي الارض متنقلا يقول ما لي لا أهل ولا سكن
ظننت عن وطني في غيره وطناً فكذب الظن شوق الأهل والشجن

من الظلم الصارخ أن يعيش كل أديب نابغ في الشرق العربي على هامش الحياة ، وتذبل زهرة شبابه ، وتنطفيء شعلة عبقريته الوهاجة لما يلاقيه من عنت الزمن ، وغائلة التشرد ، وقسوة الاهمال ، وغضاضة العيش ،

وضراوة التنكيل ، والادباء الأحرار هم الطليعة الواعية المثقفة ، ورافعوا مشاعل الحرية ، وخالقوا الأفكار النيّرة لشعوبهم الصاعدة عبر القمم الشامخة في دنيا الحضارة والتقدم والتطور • وأحمد الصافي النجفي واحد من هؤلاء المفكرين الأفذاذ ، فقد عاش التجربة الجماعية ، وتخطى الحدود الضيقة ، ولم يقف عند نطاق مهمته الأدبية ، بل جعل من نفسه مقاوماً فدائياً شديد الايمان والثقة بمستقبل امته العربية فكافح لنيل سيادتها الوطنية ، وتطوير حياتها الفكرية لكي تسعد في ظل الاستقلال والحرية ولكنه ظل يعيش في جو مشحون بالاملاق والضياع والفاقة ، فى حين ينعم الادعياء الاميون فى رحاب القصور السامقة ذات الحدائق الغناء ، ويتبوأون المناصب الرفيعة ، وهم يتوارثونها أباً عن جد ، ويحتكرون قوت الملايين ، ويستغلون موارد البلاد أبشع استغلال ، وهم في حقيقة الحال لم يكونوا غير عملاء للاستعمار يقدمون له أوطانهم لقمة سائغة ليعيث فيها فساداً ويدفع بها القهقرى نحو الهاوية ، هاوية التأخر والتخلف والجمود لكي لا تلحق بركب الانسانية السائر نحو الازدهار والبناء ، وتمر على الشاعر الصافي فترة عصيبة من البؤس فلم يكن لديه غير خاتمٍ يذهب به الى حانوت الجوهري لبيعه فيقول فى مرارة وألم دفين :

ذهبت بخاتمي للبيع يوماً ... ولم يكُ غيره عندي متاع
قصدت بـه لمخزن جوهري ... وكان هناك للتحف اجتماع
وكان هناك شخص ذوشعور ... وفي عينيه من لطفٍ شعاع
فحدّق فيَّ حيناً ثم أعلى ... زفيراً قلت : ليس له انقطاع
وصاح بلهفةٍ يا ويح شعبٍ ... جحودٍ فيه شاعره يضاع
وكنت بعكس ذلك في سرور ... لأني صار لي شيء يباع

ونخلص الى القول ان الشاعر الكبير أحمد الصافي النجفي وان كان قد ظلمه جيله ، ولقي منه الاعراض والتعسف ، فان الاجيال القادمة

ستنصفه وتولي أشعاره ما تستحق من العناية والتقدير ، انها نماذج انسانية رائعة ، وأحاسيس تعبر عن ذاتية الشاعر ، وتصور انعكاس أوضاع المجتمع عليه ، وعمق الاحساس في تجاربه الحياتية ، فى ثوراتـه النفسيـة ، فى اتجاهاته الفكرية الخيّرة ، فى سعيه الدائب للتعبير عن جماهير الكادحين ، عن كفاحهم المستميت ، عن تضحياتهم المتالية من أجل العيش الكريم .

ان جل قصائده نابعة عن تحسس مرهف بواقع مجتمعه ، وتنطق بجلاء عن اسلوبه الخاص فى التعبير عن نفسه ، عن شخوص أشعاره الذين ينتزعهم من الاحياء الفقيرة المعدمة ، من زحام المقاهي ، من حشود المتشردين في عرض الشوارع .

ومع ايماننا بأن انتاجه الفكري والشعـري يحتـاج الى مزيـد من الدراسة والتحليل والتأمل للكشف عن مكامن عبقريته وأسرار نبوغه ، وبالرغم من عدم استيعابنا لأبعادو تحديد آرائه الثورية غير ان ما أخرجه من نفائس الأدب الرفيع ، وما أضافه من روائع الكتب للمكتبة العربية ستبقى كأكاليل الغار على جبين الخلود تشع بنور الفكر العربي المعاصر ، وتعطي الدليل تلو الدليل على ان الامة التى تنجب الابناء البررة لن تموت ! وانما هي تغـذ السير الحثيث شطر استكمال حريتها السلبية ، والظفر باستقلالهـا الناجز التـام !...

الصافي الشاعر المجدِّد

ليس هناك من شكٍ في أن أحمد الصافي النجفي شاعر بكل ما في هذه الكلمة من عمق وشمول ، متعدد نواحي النشاط الفكري ، ومن رواد الحركة الشعرية الجديدة ، وقد فتح آفاقاً رحبة أمام الشعراء المعاصرين ، وهو مثال رائع لحرية الرأي ، وانطلاق الفكر ، وله شخصية متميزة في الأدب الحديث ، وخص بعبقرية شعرية خـلاقة ، أسهم بنشاط ملحوظ في تدعيم اسس الانطلاقة الفكرية ، وتوطيد أركانها وتطويرها وازدهارها ، خلق للشعر فأعطاه كل قلبه ووقته ، فيـه نزوع الى الثورة والتمرد على تقاليد المجتمع الموروثة البالية ، يمثل مرحلة جديدة في تطور الشعـر العربي ، تبنى قضية الحرية الفكرية ، وكرس نفسه وحياته من أجلها ، عاش أحداث عصره ، وعبّر عنها بشعره الدافق ، وفنه الرائع ، وتصويره المذهل ، أمضى حياته مجاهداً في سبيل تطوير الحضارة الانسانية والسير بها الامام ، وقد ظهر في ظل الحركة الوطنية التحررية منذ ما يقرب من خمسين سنة ، فاختلط سبل الدفاع عن الاستقلال الوطني ، وحقوق الشعب، ورعاية مصالحه ، والتبشير بالمبادىء السامية ، والعمل على رفع شأن الادب وتقدمه ، وتحقيق رسالة جديدة في تطوير الشعر العربي ، تهدف الى خير الانسانية ، وتنمية المشاعر الوطنية ، والالتزام بمنهج خاص يقـوم عـلى الابداع والبناء والتجديد ، وانهاض الجيل الناشيء ، وشحذ مواهبه العقلية ، والسمو بحياته الخلقية ، فهوعدة المستقبل ورجاؤه ، فأضاء له معالم الطريق، ومسالك الحيـاة ، ولم يكف يومـاً عن ابداع الجديد من خوالد الفكر ، واقتناص أبكار المعاني ، والتعبير عن أدق المشاعر ، وأرهف الاحاسيس ، والتعرض لمشاكل الحياة ومصاعبها !

وقد بزغ نجمه فى عالم الشعر منذ مطلع شبابه ، كشاعرٍ موهوب تبوأ

المكان اللائق به بين الشعراء المعاصرين ، مكتمل الثقافة الشعرية ، ويملك الامكانيات الاساسية لها ، تلك الامكانيات التى ميزت شعره وجعلته نسيجاً وحده فى الشعر العربي ، فهو فريد بأسلوبه البسيط المعبر القوي ، وموهبته المبدعة ، وروحه الصافية ، وعمق معرفته ، واستيعابه لحياة الشعب ، قادر على الالمام بالموضوع الذي يتناوله من جميع نواحيه ، والتمرس بالمعاني الجديدة للشعر فى براعة وروعة ، معروف بذكائه اللماح ، واصالته النفسية ، وعقله المفكر ، وعاطفته الخصبة ، واخلاصه للشعب ، متميز بحدة شعوره ، وقوة حساسيته ، وتفانيه فى سبيل قضايا الوطن المصيرية ، وضمن حريته ، والحفاظ على استقلاله ، انه متواضع يؤنسك بأدبه وكرم خلقه ، لطيف المعشر ، حلو الحديث ، هادىء النفس ، رقيق الحاشية ، لين الجانب ، سريع الخاطر ، مستملح النكتة ، كثير الخبرة بشؤون الحياة ، وطباع الناس ، نزاع الى الحرية المطلقة ، ويتمتع بمزايا شخصية نادرة من أبرز خصائصها شمولية النظر الى الوجود والكون ، وربط نفسه بمسؤوليات جسام ، وركز دعائم أدبه على أسس فنية وطيدة ، وتوفرت له الاجادة ، وأوتي عمق الفكرة ، ويقظة الفن ، وخصب الانتاج وبساطة التعبير ، وانسانية الموضوع ، والنفوذ الى بواطن الامور ، والصدق فى العمل الفني ، والتحرر من التعابير الجاهزة ، وحسن الافصاح عن كل ما يرود خياله من تجارب وصور ، ساهم بنصيب وافر فى عملية تطوير الشعر العربي ، والانتقال به من التجزؤ الخطابي الى الوحدة الموضوعية المتماسكة ، ولشعره أثره الواضح فى نشر الثقافة ، وتطور الفكر الحديث ، لا يهتم بالزخارف اللفظية من جناس وطباق ، فطالما ضحى فى كثير من الأحيان بالأداء الفني من أجل حرصه على المضمون الشعري ! عزز مكانته الشعبية وأكسبه جهاده المتواصل ثقة وتأييد جميع العناصر الوطنية ، لما يؤمن به من قيم انسانية ، ولاستمراريته الدائبة الى خدمة

النوع البشري ، وسعادة بني الانسان !...

إنه شاعر يكافح عن فكرة عقائدية ، ومبدأ واضح ، ومنهج صحيح ، ويسعى الى نشر دعوة انسانية آمن بها ، وكرس لها حياته ، فاحتمل من جراء ذلك عنتاً كبيراً ، وعانى البؤس والشقاء ، وتجرع كؤوس الآلام والمحن ، وقاسى البطالة والحرمان والضياع ، وتمرّس بالمتاعب والمشاق ، وشرد فى الآفاق ، وقضى حياة مفعمة بالحيرة والقلق ، وفى كل يوم تنزل به محنة قاسية تغرقه بالبؤس والفاقة والعوز ! ولكن الشدائد مهما توالت فانها لم تدفعه الى اليأس ، وتسلمه الى القنوط ، ولم تقضِ على ذلك الطموح الشديد الذي يتأجج في جوانحه ، أو تنل من روحه الحيّة المتوثبة ، أو تحد من جموح أخيلته ، وترامي مطامحه ، بل كانت حافزاً له على المثابرة والجد ، واشربت روحه الجرأة والاقدام والصمود ، وتغلب على جميع العراقيل المثبطة ، وعاش فى كفاح مرير مع الحياة ، وهو يدرك ما فى طريقه من عقبات ، ولكنه صمم على الوصول الى أهدافه ، ورفض المهادنة والخضوع ، حيث رصد شعره لخدمة الشعب ، وهو بسبب من طابعه الشعبي العميق ، وكفاحيته المدهشة ، وصموده في مواجهة الغوائل والأحداث ، ولايمانه القوي بفكرته ، وثقته الكبرى بنفسه ، وثباته على العقيدة ، تعرض للاضطهاد والمطاردة ، وقاسى هزّات عنيفة من العذاب والاملاق والحاجة وحاولت السلطات الحاكمة اسكات صوته اعبّر عن حاجات الشعب ، وناصبته العداء وزرعت الهم في نفسه ، فضاقت به الحياة ، وعزت عليه الطمأنينة ، فهجر بلاده العراق متجهاً شطر سوريا ولبنان طلباً للرزق ، وفراراً من الظلم ، وليذوق طعم السعادة التي لا يعكرها ألم ، فوجد نفسه طليقاً ، ورد اليه اعتباره وكرامته وحريته ، وراح يهيم بالشعر ، ويقضي كل فراغه غارقاً بين الكتب ، إذ هو يعشق الانصراف الى المطالعة ، والانكباب على الدرس ، فتفتحت آفاقه الأدبية على اجواء بعيدة ، ووقف على الحقائق ،

وعرف أسرار الطبيعة ، وبسط آراءه التي لا تشذ عن منطق الحياة السليم ، وعرض الكثير من المشكلات الانسانية في شعره ، وعبّر بحقٍ عن عواطف الناس ، وعالج كل نواحي الحياة ، واتصل بالبيئات الوطنية ، واستقطب عناصر الخير في شعبه ، واكتسب حباً جماهيرياً متعاظماً ، لما اتصف به من صفاء النفس ، وقوة العارضة ، وسداد الرأي مع تحكيم العقل والمنطق في ابداء آرائه التى تتفق مع تطورات العصر ، وتنم عن وعي عميق ، وقدرة على التطور الذاتي ، والامكانيات الضخمة ، والقابليات المتفتحة !...

إنّه الانسان الطيب السمح الوديع ، والبعيد النظر ، والشديد الاحساس ، والرقيق العاطفة ، والمتزوّد بالموهبة الفطرية ، والممتع في معانيه ، والمتفرّد بالوعي الأدبي ، والمجدد بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنىً في ضوء الثقافة الادبية الحديثة ، وهو لم يجدد فى الاشكال الشعرية، فشعره يعتمد العمود الشعري التقليدي القديم ، ولكنه مجدد فيما يمتاز به من فكرٍ عميق ، وما ينفذ اليه من دقائق الحياة الاجتماعية ، وما يملكه من ملكةٍ صقلتها الدراسة والخبرة والتجربة ، وقد سار في طريق الجرأة والصراحة والبساطة ! مدافعاً عن مبدأ ، ومناضلا عن وجهة نظر تهدف الى أغراض سامية ، فوهب الحروف سماتٍ جديدة ، وأصدر شعره عن روحٍ عاطفية صادقة ، وعاش تجربة ملأى بدفقٍ من عبقرية الفن ، وأحب الحياة ، وعشق الجمال بكل حواسه ، ففتح أمام القارىء العربي آفاقاً جديدة فى الفكر ، واتسم بنكران الذات ، والصمود الراسخ عند المحن ، وفي الساعات الحرجة ، والمواقف الدقيقة ، فطريق الأدب الهادف ليس مفروشاً بالورود والرياحين ، وانما يتطلب قدراً كبيراً من الشجاعة ، لقد ومضت في ذهنه أفكار نيّرة فيها الكثير من آرائه في الحياة ، ومعتقداته الخاصة ، وهي جزء من رسالته المقدسة وقد صرح بها دون توجّس وتردد ، حيث تلقي ضوءاً جديداً على مشكلات الانسان المعاصر فتحمّل في سبيل عقيدته النصيب

الأكبر من مكاره الدهر ، وسببت له المتاعب ، ولكنه ظل يستشعر الاخلاص لوطنه ، ويؤمن بالشعب من خلال مشاكله الاقتصادية والسياسية ، يعززه عقل راجح ، وايمان قوي بأن كفاحه المجيد من أجل مستقبل وطنه الأفضل سيكتب له الظفر !

وهو شاعر واعٍ تمام الوعي بمهمة الأدب الواقعي الذي هو من مستلزمات الحياة الانسانية ، انه الحقيقة الساطعة التى تشع من نفسه ، وتفرض شخصيته ، وتتحدى الزمن ، انه شديد الارتباط بالشعب ، فصوّر آلامه وآماله ، وأفصح عن أمانيه ومطامحه !

وكثار هم الشعراء ، ولكن أحمد الصافي النجفي هو الشاعر الملهم الواسع الخيال ، الرحب الآفاق ، الذى يعبّر عن روح العصر ، ويماشي التطور ، ويسعى دائماً الى توسيع مداركه ، والشعر هو العمل الفني الأصيل الذي توفر له ، وتخصص فيه ، حيث صدر من أعماق قلبه الانساني الكبير ، وانبثق من واقعنا ، ودعا الى التحلي بنبل الاخلاق ، وتبنى سامي الاغراض ، والتحرر الفكري ، والثورة على النظم البالية ، ووضع الافكار المثالية موضع التطبيق ، وتشييد صرح الحضارة على اسس الفضائل ، وخدمة البشرية بالاعمال المثمرة فيقول :

جبت بالشعر كل ناحيــة　　سابقاً كل شاعـر فطن
شعـراء هم لـدى فئـة　　وأنـا شاعر لـدى الـزمن

يجمل بالأديب أن يصرف جل اهتمامه للافصاح عن العواطف الانسانية الصادقة في أجلى معانيها ، وأوضح صورها ، والاستجابة لدوافع الخير ، وقصيدة (لي ولكم) لون جديد يطلع علينا بـه الشاعـر أحمد الصـافي النجفي ، تنطق بما يتحلى به من الاقتداء بذوي الأخلاق العاليـة ، فهي تموج بالحدوس الانسانية الجميلة ، وتتصف بصدق روحيته السمحة ،

وسمات شخصيته المحبية ، وفيها مضامين انسانية جديدة ، وتجارب حياتية معاصرة ، وصور صادقة تنبيء عن الهدف السامي الذى يقصده ، ويحاول الوصول اليه ، وفيها فيض من النور الوهّاج الذي يضيء لنا سبل الحياة ، ويكشف فيها جوانب خيّرة يعيها ضميره فننفعل بصدقها ، وتزيدنا معرفة بالحياة ، وتقويم الاخلاق فقد رسم فيها صورة عميقة عن الحقيقة والجمال والخير •

وواضح تماماً : ان ابراز مثل هذه المواقف يمثل الجانب الضخم من شعره الجدير بالاكبار ، فليس هناك من مشكلة بينه وبين الناس اذ أعطاهم الثمار المربحة ، ورضي لنفسه الازهار الملونة ، والمروج الخضر ، ولهم السفائن المحمّلة بالبضائع الغالية ، وله البحر ، ولهـم القصر وما فيـه من حرائر ورياش وغيد حسان ، وله مناظره المبهجة ، ولهم المدينة الزاخرة بالملذات واللهو والمتع ، وله العطر الفواح ، والنسيم الحلو ، ولهم الجسوم وله الروح ، ولهم دنياهم الزائلة ، وله الشعر الخالد الذى تتغنى به الاجيال الصاعدة عبر الدهور !

وهكذا اتسقت للشاعر فكرة صحيحة عن الشعر ، وقدسية رسالته في الحياة ، فحقق فيه عاطفة انسانية نبيلة ، وكشف المحتوى الحقيقي لحياته الحافلة بالتجارب ، وبما ساد الروح الانسانية من قلق !

والقصيدة قوية الملامح ، كبيرة الدلالة على قدرته الفكرية ، ومن بنات أفكاره السامقة ، ولم ترد لذاتها وانما لتخدم غرضاً من أغراض الشعر لما تضمنته من قيم انسانية مصاغة بأسلوب شائق مشرق !

واذا كان نجاح الدراسة لأدبية مرده تحليل نفسية الشـاعـر من شعره تحليلاً صادقاً ، فان هذه المقطوعة الشعرية تبرز لنا نفسية أحمـد الصافي النجفي على حقيقتها ، نفسيته العبقة بالاريحية والنقاء والنبل ••!••

ولما كان الاساس في الفن هو الابداع ، فهذه القصيدة تعد من الشعر الرائع ، وسر نجاحها يكمن في عفويتها وصدقها مع ايجاز بليغ ، ويضفي عليها الصافي في الوقت ذاته ، الطلاوة والبساطة والروعة ، وفيها يطل علينا بوجهه الانساني المشرق ، وباسلوبه العربي المبين فيقول :

يا قوم ما لي مشكل معكم ... لقد اقتسمنا وانتهى الأمر
لكم الثمار تباع رابحة ... ولي المروج الخضر والزهر
ولكم سفائنكم محملة ... في البحر ماخرةً ولي البحر
والقصر لي منه مناظره ... ولكم أثاث القصر والقصر
ولكم مدينتكم وما ضمنت ... ولي النسيم الحلو والعطر
الروح لي فخذوا الجسوم لكم ... دنياكم لكم ولي الشعر

ويبدو لي ان شعر الصافي فن يساير الحياة ، استوحاه من صميم المجتمع فأحدث تطوراً هائلاً في مضمون الشعر ، وقد توفرت له الموهبة الأصيلة ، والموسيقى العذبة ، وعاش تجربته الشعرية في جموح عاطفته ، وانطلاق شعوره ، فجاء شعره مرآة تعكس ألواناً وصوراً جديدة مقتبسة من الحياة ، فنجد في قراءته متعة فنية لا حد لها !

وقصيدته (مجاورة الأفعى) مظهر من مظاهر ثورته على المجتمع ، بدت من خلال صراع عاطفي جامح ، ووصل الى هذا الشعور من احتدام تجارب حياته ، وبعد حرب نفسية طاحنة ، واعتماد على خبراته الشخصية أدرك بفطنته ، وثاقب نظره ، ولما اتسم به من دقة الملاحظة ، ان الكثير من الناس تنطوي نفوسهم على الخداع والمكر والهدم ، والسعي دوماً لعمل الشر ، والقضاء على عناصر الخير ، فقد جاور الشاعر أفعى قرابة عامين كانت تسكن في سقف غرفته ، دون أن تمسه بسوء فقد انعدمت بينهما الاطماع والاحقاد ، وساد حياتهما الصفاء التام ، وحسن الجوار ! وجاء اليه

القوم يحذرونه من لذع سمها ، وما دروا أنهم مصدر السم الزعاف الذي ينسكب م نألسنتهم الحداد ، ينهشون بها الاعراض ، ويسلقون بها الابرياء ، وفي ثورة نفسية عارمة يقول :

جاورت أفعى في السقف ساكنة ... تطرب لي بالفحيح أسماعي
وان تلوت القريض تنصت لي ... كأنها أطربت لأسجاعي
خصمان ساد الحياد ساحتنا ... لم تعلن الحرب غير أطماع
قالوا تحذر فالسم في فمها ... فقلت سمي منكم وأوجاعي
أأتقي لذعها وكم بكم ... من ذي لسانٍ بالقول لذاع
عامان مرا بنا وما هي لي ... سعت بشرٍ ولا أنا ساع
وكم وكم منكم صباح مساً ... للشر داعٍ ، للخير مناع

وفي شعر أحمد الصافي النجفي نماذج من الشخوص ، وفي مقطوعته (جارتي والمرآة) يصور لنا امرأة قد حار في أمرها ، فهي ذات دلٍ مقيت ، وكبر بغيض ، وتغمره موجة من الفرح حين يراها راقدة في تختها ، لأنها تلوح له كالميتة وهي تنام نومة الأبدية في قبرها الضيق الموحش ، ولما تطرق أقدامها مسمعيه لا يبالغ اذ يقول ، انها الحيّة الرقطاء قد قامت من وكرها ، وفي الصباح اذا ما وقفت أمام مرآتها بوجهها القبيح المقطب الجبين ، فان المرآة نفسها تتمنى لو تتكسر ! وخلاصة القول : إن في صوتها صور اسرافيل وفي حياتها يكمن عمر عزرائيل فينشد :

لي جارة قد حرت في أمرها ... ودلها الممقوت أو كبرها
أفرح ان ترقد في تختها ... كأنها ترقد في قبرها
أقول اذ أسمع أقدامها ... قد قامت الحية من وكرها
تنساب كالأفعى على مهلها ... أعوذ بالرحمن من شرها
تزعج عند الصبح مرآتها ... فترغب المرآة في كسرها
سأختصر القول لدى وصفها ... إن جاء من يسأل عن سرها
فصور اسرافيل في صوتها ... وعمر عزرائيل من عمرها

إن الطابع الأول للفكرة السامية التي يعتنقها أحمد الصافي النجفي ويدعو اليها هي ان يقول الحق بمنتهى الصدق والصراحة لا يبغي من وراء ذلك سوى خدمة الناس ، وقد وجد الحق دائماً في اندحارٍ فظيع ، يلاحقه الباطل فيشبعه صفعاً واضطهاداً وتنكيلا ، ويعلن عليه الحرب الشعواء فيهوي في قلب المعركة شهيداً مضرجاً بدمائه فيقول :

أجد الحق دائماً في اندحـار — يزحف البطل والضلال وراءه
أي حربٍ لم ينصر الحق فيها — تاركاً فـوق ساحهـا أشـلاءه
انظر الحق كيف يهوي شهيداً — ثم يمضي مودعـاً شـهـداءه

وشعر الصافي حافل بالدعوة الى التفاهم والتسامح والتآخي ، وكل ما توحي به العاطفة الانسانية الكريمة من الفة ومودة وخير ، زاخر بالمعالجة الحكيمة للأوضاع الفاسدة في المجتمع ، وطالما طالعنا بمعانٍ جديدة تركت صدى عميقاً في الأوساط الأدبية !

وفي مقطوعته (المساواة) يدعو فيها الى الاخاء بين أبنـاء الانسانيـة كافة ! فالاعشاب النابتة بجنب المياه يستظل بعضها بظلال بعض ، وليس هناك ذل أو كبرياء ، وان اختلفت أشكالها ، ولكنها في مجال العيش على السواء ، ألم يكن خليق بالمجتمع الحضاري ذي الرقي الانساني أن تعم بينه المساواة ، ويسوده الايثار والوئام والمحبة فيقول :

ألا يا حبذا عيش الاخـاء — لاعشابٍ نبتن بجنب مـاء
فنبت يستظـل بظـل نبتٍ — ونبت مستظـل بالسـمـاء
فلا هـذا دنا للارض ذلاً — ولا ذاك استطـال بكبريـاء
فهم في الخلق مختلفون شكلاً — ولكن عائشون عـلى السواء

وفي قصيدته (عصر الكهرباء لا تغرنك) يظهر طابعه الخاص في تقصى مفهوم الحياة ، وهو الشاعر الذي جعل شعـره تعبـيراً حقيقيـاً عن

الواقع ، ومرآة صادقة لحياة الانسان ومجتمعه ، والذى تشغل ذهنه قضايا فكرية عصرية ، قضايا الحياة ومشاكلها ، نفاذ البصيرة ، قوي الحجة ، متين اللغة ، تفتحت أفكاره على مكنونات الوجود ، وأحب الحقيقة غاية الحب ، ومنها يستلهم مادة غزيرة لشعره الذي يتبلور عن عاطفةٍ جارفةٍ تتصف بالعنف وروح التمرد !

والقصيدة كما هو واضح في غاية البساطة ، تتفجر عنيفة قوية ، تحس بنبرة اخلاص فى ثنايا تعابيرها ، وتحمل أحاسيس صادقة ، فهذه الاختراعات الحديثة لم يبتكرها العلماء لخدمة البشرية ، وانما لتدمير معالم الحضارة ، والقضاء على الشعوب الحرة المكافحة ضد الاضطهاد الدموي ، والسياسة الجائرة ، والاجهاز على كل حركة تحررية تسعى للانعتاق من نير الاستعباد ، لتبقى اداة طيعة بيد الاحتكارات !

وليس من المنطق في شيء أن يقول الناس انهم قد صعدوا الى السماء في حين قد هبطت نفوسهم الى هوة الرذيلة ، ويدعون انهم يعيشون فى عصر النور ، النور الذى لم يكن في حقيقته غير ظلامٍ مغلفٍ بضياء زائفٍ ، اننا ينبغي أن ننفض أيدينا من العلماء بعد أن ماتت ضمائرهم ، واشتط بهم الأمر بحيث أخذوا لا يهدفون من وراء أي اختراعٍ مفيد للانسان يبتكرونه سوى الاثراء الفاحش ، انهم سند للزور ، وحرب على الحق !

وان المنطق يطاوعه ، والدليل لا يعوزه ، وقد أثبتت الأحداث صحة هذا الرأي ، فهذه فلسطين العربية التي سلمها الغرب لقمة سائغة الى العصابات الصهيونية فألحق بأهلها الشرعيين أفدح الأضرار ! حيث شردوا من ديارهم وأرضهم ، ولجأوا الى القفار يسكنون في الخيام الممزقة ، ويعيشون على ما تجود به أيدي وكالة الغوث الدولية .

وكانت لفتة كريمة ، وعاطفة طيبة ، أن يقر الشاعر الحق في نصابه

ويفصح عنه بصراحة ، انه دين في عنقه أن يصرح دوماً بأن هذه الابتكارات العجيبة في ميادين العلوم كانت وستبقى عامل تحطيم لكل القيم الفكرية فيقول :

لأمامٍ نسير أم لـوراء	لا تغرنك أعصر الكهرباء
لا تقولوا الى السماء ارتقينا	فسما النفس غير هذي السماء
ليس يجدي وقد هبطتم نفوساً	ان صعدتم بالعلم للجوزاء
لا تقولوا نعيش في عصر نورٍ	ذا ظلامٌ مموّه بضياء
قد غسلنا من العلوم اكفاً	حين ماتت ضمائر العلماء
كل يومٍ يأتوننا باختراع	مسرع في دمارنا والفناء
ومتى أوجدوا اختراعاً مفيداً	لم يروموا منه سوى الاثراء
اجراء للخير والشر يشرون	بمالٍ كأسفل الاجراء
أي وزر في الكون ما أيدوه	أي حق لم يختضب بالدماء
أطبقوا كلهم على الحق خنقاً	وفلسطين أفصح الشهداء

ولعل قصائد الحب أكثر القصائد لصوقاً بانفعالات النفس ، لما فيها من حرارة اللهفة ، وتدفق الشعور ، ولما لها من وقع جمالي في النفوس ، ولتوفر عنصر الصدق فيها ، ولا نسمع بين أنغام هذه القصائد الا صوت القلب وحده !

والشاعر أحمد الصافي النجفي له مثل غيره من الرجال قلب ينبض بحب المرأة ، ويؤمن بالحب كقوةٍ مبدعةٍ خلاقة ، وقد تكونت شخصيته على هذا النمط من الايمان بالحب ، واتيح له حظ وافر من غزارة المواهب، والشاعرية المصوّرة ، وحرارة العاطفة وصدقها وعمقها ، وأصبحت المرأة محور نظرته الى الكون ، تثير فيه عاطفة الحب ، فيشب قلبه بين ضلوعه حارقاً البخور في محرابها ، ومرتلا صلواته في معبد الفن ، لتمنحه دفء

الحياة ، وتروي عطش الشباب ، فهو انسان يتأوه ويتعذب تحت وطأة الحرمان ، ويئن ويصرخ في وجه الهجران •

وفي قصيدته (غصن يغني) يصف امرأة ذات جمال صارخ ، وانوثة فاتنة ، تمر منه كل يوم وهي تغني بصوتها الحنون ، فتسري في جسمه قشعريرة طاغية ، انه مسوق بقوة خفية الى الشغف بها ، والتفكير فيها ، والاشفاق عليها من أن يصيبها أذىً حتى من النسيم الفاتر الرقيق ، فقد بات يحبها أقصى ما يمكن من الحب ، وأصبح نهباً لعاصفة من العواطف العنيفة ، فهو يحب في ظمأ عاطفي حسي ، اذ راح يرتل شعراً وجدانياً صافياً ، ولم يكن هو الواله الوحيد بها ، فان الكون بأسره ولهان بها ، حيث يقول :

يا مهاة تمر وهي تغني	وهي لحن ومشيها ألحان
أنت غصن ان ماس يرسل لحناً	أم كمان أم بلبل سكران
أنت روح مجرّد أم ملاك	أنت انس منزّه أم جان
أنت شعر مجنّح أم خيال	أنت معنى في النفس أم وجدان
حيثما لحت قد سكرت سروراً	أنت كأسي أنت الطلا والحان
ولهي فيك لا يزيدك شيئاً	فبك الكون كله ولهان

وفي قصيدته (كاد يعروني ارتياب) ينسج من ذكرياته الماضية صوراً حسية لم تزل تعيش حيةً عى أعماقه ، ويكسوها حللاً قشيبة من فنه ، ويصوغها بأسلوبٍ سلس ، ولغةٍ متينة ، مع سلامة الأداء التعبيري الحافل بالمعاني الجديدة ، والالفاظ الجميلة ، فهو ما برح يئن من فرط الحب ، يمنّي نفسه بأحلام لذيذة ، فياض العاطفة ، مشتعل القلب ، وقد أحب حباً صادقاً مبرحاً عنيفاً ، تنبض في أعماقه عواطف مضطرمة ، وروحه الظمأى الى الجمال ترتفع الى أجواء روحانية سامية فى عوالم الوجدان ، وهو

يحكي قصة حبه الراحل في شـوق ملتهب ، وعاطفـة جياشـة ، تراوده نشوة الأحلام ، وتستحثه نوازع الوجد ، فينشد أهازيج الحب في لحن عاطفي حالم ، ينسكب حاراً لاهباً متدفقاً من نبع صافٍ رقراق ، فيه الكثير من رقة الحس والتحليق الخيالي البعيد !

لقد اشتد ولعه بحبيبته الهاجرة ، وتفانى في حبها ، وانشغل بها ، بعد ان بهره جمالها الذي يداعب خياله ، وجمحت به الرغبـة الى رؤياهـا ، ولكنها ما فتئت تحرقه بنار الصد ، وشعلة البعد ، وهى محط آماله ، وموضع رجائه !

والقصيدة مجموعـة من العواطف المتصارعـة ، تفيض بالاحاسيس المنطلقة ، وتموج بشتى الصور الفنية التي نشأت عن تجربةٍ عاطفية صادقة، تجربة صميمة عاناها الشاعر ذاته فقال :

أكمـا يـرغـب عـذالك	صـــد واجتنـــاب
أنـا أهـواك وتهـواني	فلـم هـذا العـذاب
زدت في صـــدك حتى	كـــاد يعـروني ارتياب
بلحـــا ظي لـك نطـق	صـــارخ ايـن الجـواب
حسبهـــا ايمـــاءة	منـك اذا عـز الخطـاب
انـا امـــا فاتني المـــاء	يـــروّيني الســراب
أنت تهـواني وان كذب	دعـــواي الصحـــاب
فشـــهود الحب مـا فيهن	زور وكـــــــذاب
يشـــهـد السكر بجفنيك	ومـــا كـــان شـــراب
واصطبـاغ الخد بالحمرة	مـا فيهـــا خضـــاب
حـين أرنـو لـك تفتر	ثنـايـاك العـــــذاب
وأنـا شـاهدي الأدمع	والقلـــب المـــذاب

والشاعر أحمد الصافي النجفي لم يقصر انتاجه الشعري على جوانب معينة من الحياة ، فهو ممن استهواه التغني بجمال الطبيعة ، وتتجلى براعته كفنانٍ في كونه كبير الدراية بمواطن الجمال .. ومن أسرار الاجادة الشعرية لديه ، إن يراعه ارتشف من الطبيعة ألواناً ، يسعفه خيال رحب ، وذوق حساس ، وعذوبة اسلوب ، وسلاسة لغة ، وعمق فكر ، وامكانيات فنية في اختيار الألوان ، وقصائده في وصف الطبيعة لوحات فنية رائعة الجمال ، تسمو بالقاريء الى أجواء فنية سامية ، تنفسح لها الآمال ، وتنتعش بها الروح فهو يستشعر بشيء من الغبطة تلامس قلبه ، حينما ينضو عنه غلالة الحزن فيرتاد حقول الازهار ، وحدائق الورود ، ويصغي الى أفراح الطيور ، وضحكات النجوم ، ويشم عبق الأنفاس ، ويعكف على تصوير المناظر الطبيعية الخلّابة !

وفي قصيدته (سكرة الصباح) نجد حشوداً من الصور الحافلة بالرؤى الزاهية ، ونراه مقبلاً على الحياة ، مندمجاً في كيان الطبيعة ، فيقول :

سكرت بنسمة الصبح المندّى	وكان نديم سكرتي الصباح
وكانت تعزف الأوراق لحناً	يواكبه من الطير الصداح
وأطربت الديوك فهاج منها	مع الصبح التخاطب والصياح
وراح النجم ينظر بانكسارٍ	الينا حين أعجله الرواح
وخلنا موكب الاصباح نسراً	يمد له على الدنيا جناح
وأغضى النرجس الوسنان طرفاً	وحي الورد وابتسم الاقاح
وراح الكون يحتفل ابتهاجاً	وجلله سرور وانشراح
وراحت تسكر الدنيا حبوراً	كأن الصبح للايام راح
فليت الشمس ضلت في سراها	ولا طلعت ودام لنا الصباح

وما فتئت الطبيعة توسّع آفاق شعره ، وتمده بالخصب ، وتحرره من صليل أغلال الحياة ، وتضاعف من رهافة حسه ، وتزوّده بالروعة الفنية التى تأسرنا وتهزنا ، وتنمي فيه الذوق فيحلق في سماء الفن ، مجنح الخيال، مرفرف الأحلام !

وفي قصيدته (حفلة نور) يصف لنا البدر وكأنه قد عقد حفلة نور حيث سكر الكون كله بخمر سناه ، وملأ الأجواء ببحار النور ، وراح هو نفسه يسبح فى تلك البحار الطافحة بالضوء ، وتعرت الكائنات من حلة الظلام ، وبدت كعرائس سحرٍ تحيط بها هالات من النور المضمّخ بالعبير !

وهكذا رسم الشاعر هذه الصور بريشةٍ ساحرة الألوان ، تنفذ الى مكامن القلب بغير استئذان ، وتفصح عن انطلاقاته النفسية المتحررة من الضغائن والاحقاد ، وتبرز قدرته على الخلق والابداع ؛ وتكشف عن براعته فى انتقاء الالفاظ الموسيقية ! وتبدو القصيدة كائناً حياً متماسكاً ، ومنسكبة في روعةٍ مسكرة متداخلة الأطياف والظلال ، وقد تبسمت مباهج الحياة في عينيه ، فقال :

ملأ البدر ضوءه بالجبور	فكأنا منه بحفلة نور
سكر الكون كله بسناه	هل سناه مشعشع بالخمور
ملك الليل قد أقام بقصرٍ	ملء عين الفضاء ملء الدهور
ملأ الجو أبحراً من نور	ومضى سابحاً بتلك البحور
جعل الكائنات أشباح وهم	راقصات بكهفها المسحور
لبست كلها غلالة نور	وتعرّت من حلة الديجور
فتجلت لنا عرائس سحرٍ	صبغت بالخيال بل بالسرور
وأحاطت بهن هالة عطرٍ	يا لنور مضمّخ بالعبير
ها هو الليل نافس الصبح حسناً	فاختفى الصبح خاشعاً للبدور

والشاعر الصافي قد روّض نفسه على التأمل الطويل في محاسن الطبيعة ، يغذّي بها فنه ! ويستوحي منها شعره ، ويوسّع افق تفكيره ، فهو ينتجع تحت ظلال اضاميم الورود المزهرة ، فيتسنى له الابداع والاجادة الفنية ، فيعرض صوراً رائعة يظللها بالألوان المتوهجة ، ويخرجها لوحات فنية نابضة بالجمال ، فيها فكر وعاطفة ووجدان ، تبرهن على مواهب أصيلة عند الشاعر !

وقصيدته (الى البحر) ذات اسلوب نابض بالحياة ، تتدفق منه طاقات الحيوية ، مشرقة البيان ، متينة البناء ، رصينة التعابير ، وللبحر ارتباط نفسي بحياة الشاعر ، فهو يعدو اليه فى الصباح فترفرف روحه فوقه رفرفة الطير ، وينشق من جوه عبيراً مسكراً ، ويلثم أمواجه الراقصة ، داعياً الناس لمشاركته بهذا الهناء المباح ، ويمضي مظللاً تصاويره الشعرية بالألوان الجميلة ، عائشاً التجربة بكل معانيها في رحاب هذا الجمال الشعري الرائع ، مرتلاً الحانه العذبة فيقول :

بكرت أعدو مع الصباح	للبحر ، والبحر كل شيء
رفرفة الطير بالجناح	مرفرفاً فوقه بروحي
أسكر منه بغير راح	أنشق من جوه عبيراً
بمائه معلياً صداحي	أغمس مثل الجناح فكري
عن شكر ربي ، عن ارتياحي	أعلن باللحن كل حين
لمثل هذا الهنا المباح	أدعو البرايا بكل صبح
فأشرك الموج بارتياحي	الثم أمواجه بروحي
راحت وعادت مع الصباح	كأنني موجة ، مساء

ونلحظ لجمال الطبيعة في لبنان الأثر العميق عند الشاعر ، فقد أضفى على جوهره الشعري اشراقاً وروعة ، وزاد في اذكاء مواهبه ، وتدفق مشاعره

ونمو رؤيته الشعرية ، ورصد تخيلاته وتصوراته ، ونقله الى عالم حافل بالحياة المتشحة برداء المفاتن ، والموشاة بأفياء النعيم ....!..

وفي قصيدته (لبنان) شعر سائغ بديع ، وخيال واسع رحيب ، وأنغام قوية تؤثر فينا مع عمق الشاعرية فى التصوير والأداء ، وهو صادق في التعبير عن عواطفه ، دقيق الوصف ، رقيق العبارة ، جميل التصاوير ، ولبنان القطر العربي الساحر بجباله الشم ووديانه الخضر ، وحقوله الزاهية ، وغاباته الزاهرة ، وانهاره الجارية ،ونسائمه العذبة قطعة من قطع الجنان ، وصورة من صور الفردوس تخلب الباب الشعراء ، وتجذب اليها قلوب العشاق حيث تحت ظلا لها الوارفة تصفو الحياة ، ويحلو الوصال ، فيتناثر بين حنايا الشعاب همس الشفاه ، ولفح القبل ، فيقول :

بلبنان الطبيعة في ازدهار	وللنسمات سكر كالعقار
كأنك يا مناظر بحر حسن	كأني زورق في الحسن جار
بليلي لست أرضى عنك نوماً	أأرضى عنك نوماً في نهاري
لبست من الضباب ستار وهم	فزاد جمال وجهك في الستار
يكلمني النسيم بألف معنى	سماوي من الالفاظ عار
تدغدغ وجهي النسمات حتى	أخف لها فأهزأ بالوقار

وللشاعر أحمد الصافي النجفي ولع كبير بالبلابل ، فهو يصغي الى تغاريدها بسكر مذهل ! وله فيها أضاميم جميلة من الشعر ، وتأملات فكرية اسانية ، خطرات سابحة في أجواء الخيال ، وصور بيانية حالمة ! وفي قصيدته (انا سامع وحدي) يقول :

يا بلبل الصبح اقترب	أنا سامع وحدي غناكا
لو كنت تعرف صبوتي	لأتيتني فلثمت فاكا
اني أخوك وان حرمت	من الجناح فزر أخاكا

روحي كروحك طاهر   وهواي نوع من هواكا
وأطير مثلك في الفضا   لكن فضاي سوى فضاكا

ويقول :

ماذا تثرثر في الصباح الباكر   يا خير فنانٍ وأبلغ شاعر
غرد ، فديتك بالغناء الساحر   فلأنك قدوة ناظم أو ناثر
للطير أسمع جوقة لكن بها   أنت المعلم رغم كل مكابر
كرر غناك ، فليس غيري سامعاً   فالعبقري مخاطب لعباقر
أسفاً يضيع غناك دون مسجّل   يا ليت لحنك مثبت في الخاطر
بك أثمرت هذي الغصون فجئتنا   بثمار أسماع لنا ومشاعر
هل في زهور الروض مثل بلابل   هل في الوجود سوى وجود الشاعر

ويعود الشاعر الى البلبل ليأنس اليه في تأملاته ، وينشرح له صدره ، وينعم به الفكر ، فان أغاريده تضفي على الشعر مسحة من الفتنة والجمال ، وتشحذ الأذهان ، وتلهب القرائح ، وتصقل المواهب ، وقد وجد الشاعر لأغاني البلبل استجابة كاملة في نفسه تثير التعاطف نحو انفعالاته العاطفية !

والشاعر يعد نفسه من زمرة البلابل ، إلا ان القضاء قد قص جناحه ، ورماه في وهدة القفار ، يعاشر الأشواك ، ويبث الشكوى ، وقد طال أسره دون أن يتلمس طريقاً للانفلات من سجن الحياة فيقول :

نفد القول لي فجدد غناكا   إن درسي نسيته في نواكا
وأنا حائر كحيرة عقلي   فلك السعد ، مطلقاً من حجاكا
إن سجناك دون ذنب فعذراً   من حجانا بلاؤنا وبلاكا
هات غرد وأنسني كل قولي   واعد لي مرفرفاً في سماكا
بي تسمو اليك حين تغني   ثم أهوي أن تنقطع عن غناكا
أنا من زمرة البلابل لكن   طال أسري ولم أجد لي فكاكا

قص جنحي جاني القضا ورماني | في قفار ، اعاشر الأشواكا
عد وغرد وانسني هم سجني | ما الهناء الصحيح الا هناكا
أنت تخلو وان شكوت فرجع | ان شكواي أقلقت شكواكا
أنت تشدو رغم السجون واني | من شكاواي أزعج الأفلاكا

ويلتقي في أحدى الرياض بلبلان ، فالأول قد سجن في قفص وحوله كل ما يشتهي من فواكه وحب وري ، والثاني يعيش طليقاً في الفضاء الرحيب ، باحثاً عن غذائه ! وقد جرى بينهما حوار •••

فقال الأول ـ لماذا كل هذا الطواف والتشرد ولم تذق طعم الاستقرار والأمن في حين انا أنام ملء العين لم أخش صائداً ولا نسراً ولا نصلاً ، وأقض سحابة نهاري بالرقص والغناء ، فهلم إلي وشاطرني عيشي الحلو الرغيد ، فرد عليه الثاني بكل بساطة ••• ولكن طعم حريتي أحلى !

تلاقى بروض بلبلان فواحد | له قفص قد نيط بالفنن الأعلى
له حوله ما يشتهي من فواكه | وحب وعيش يجمع الري والأكلا
وثان طليق باحث عن غذائه | اذا لم يجده يغتذ الشمس والظلا
فناداه ذو العيش الرغيد الا ابتدر | الى قفصي اشركك في عيشتي المثلى
إلا مَ طواف مزمن وتشرد | ولما تذق أمناً نهاراً ولا ليلا
وأرقد ملء العين لم أخش صائداً | ولا أختشي نسراً ولا أتقي نصلا
أقضي نهاري بين رقص الى غنا | كأن الغنا والرقص لي أصبحا شغلا
هلم لعيشي الحلو ، قال رفيقه | صدقت ولكن طعم حريتي أحلى

وفي قصيدته (أنا واحد منكم) يهنيء الطيور على عيشها الطليق ، حيث الفضاء الفسيح مسرح لهوها ومرحها ، والنجوم الزهراء رفاقها الأوفياء ، أما الشاعر ، الشاعر بالذات فقد قص القدر جناحه ، وأحاط به سجنه المظلم الذي يلاقي فيه العنت والاكراه ، ويعاني كابوس الهم الذي

جثم على صدره أياماً طوالاً ، وتطغي على حياته سيول الشدائد والمحن !

وهكذا نرى الشاعر وهو في زحمة العواطف ، وصخب الأمواج ، حاد الشعور نزاعاً الى تقديس الحرية ، يسطر كلمات من ذوب القلب ، كلمات معبرة عن التأزم النفسي الزاخر بأحاسيس تنبض بالخير والأمل والتضحية مع البراعة في الخلق والتصوير ، والصدق في التعبير عن المشاعر فيقول :

أيا طير من ريشكم فانسلوا — وطيروا هنيئين أو حوّموا
أعيش بروحي في جوكم — كأني أنا واحد منكم
فيا ليت جسمي من جسمكم — ويكسوه ريشكم الأنعم
فنمضي معاً أينما شئتم — ونحيا معاً حيثما رمتم
وكيف يطير خيالي وقد — احاط به سجنه المظلم
يطير بجو يقص الجناح — وفي الرجل قيد له محكم
ومسرحكم طبقات الفضاء — وبعض رفاقكم الأنجم
وبعض بلانا لكم واصل — تطير به لكم الأسهم

وتلقى الشاعر عن الطير كثيراً من الدروس النافعة ، فهي ترتل اغنياتها الرقيقة فتبعث السلوان الى جميع القلوب دون تفريق ، وبغير ثمن ، ولا تطلب شكراناً من أحد ، كالزهر يجود على الناس بالشذا ، والنجم يشع على المبصرين والعميان .!..

فكم هو خليق بالانسان أن يعمل الخير حباً في الخير ! فيقول :

دروس طير على الأغصان صادحة — تفوق عندي دروس العرب والعجم
كل يؤدي غناه غير مفتخر — أو طالب للثنا من سامع فهم
الكل يمنحنا النعمى بلا ثمن — وليس يطلب شكراناً على النعم
كالزهر جاد علينا بالشذا كرماً — والنجم شع على ذي مقلة وعم

والشاعر أحمد الصافي النجفي لن تعوزه الصراحة حينما يصب جام غضبه ونقمتــه على اولئك الذين يوجهون الى أشعــاره انتقادهم الخالي من الشواهد والأسس ، والذين يزاولون وظيفة النقد دون أن يتزودوا بنزاهة الضميــر ، ورســم فكرة كاملة عن الدراســة التحليليــة الجــــادة . والتي تعتمد النصوص أساسا لها ، مع ايمانه القوي بضرورة النقد الذي هو أفضل سبيل لازدهار الادب وتطويره ، وان ممارسة حق النقد جــزء لا يتجزء من مهمام كل أديب واع ، على أن يكون صريحا وموضوعياً ، ووفق أحدث المناهج النقدية ، ومعالجة الموضوع بالارتكاز على معرفة تامة بالنقد الموجه ، لا مجرد ترصيف الفــاظ خالية من أي مضمــون فكري ، ولقتل الوقت فيما لا طائل تحته ، وبحيث تنتفي الاغراض المقصودة منهــا دون كبير فائدة !

والشاعر يود أن يكون للنقد صفة الموضوعية والتبلور والنضوج ، ووضع الدراسات النقدية في اطار منهجي ، والخضوع لمقاييس النقد وتطبيق نظرياته ، لتكون للناقد أكبر اسهام فى تطوير حركة النقد الادبي ، لان المجهودات الفكرية أحوج ما تكون اليوم الى النقد البنّاء ، اذ ليس النقــد تمويهاً للحقائق ، وتزلفاً بالمدح ، وحرقاً لبخور المجاملة ...

والاستاذ الصافي في قصيدته (الذوق الناقد) بعد أن تحسس فوضى المفاهيم النقدية ، ورأى ما تنطوي عليه نفوس النقّاد من جهل ودس ولؤم ، راح يتخذ من ذوقه المرهف ناقداً وقاضياً لشعره ، وان الدهر كفيل بتخليد روائع الآثار الادبية ، وقد فند ودحض مفتريات النقاد الباطلة فقال :

رضيت مــن ذوقي لي ناقــدا وقــاضيــاً رشوتــه تستحيــل
ضللني النقـــاد في زورهـــم فجلهـــم بالنقد يطفى الغليــل
الدس واللــؤم سـجايــاهــم فاشطب عـلى النقـاد الا القليل

مـا اتخذوا النقـد لهم حرفـة إلا لخبثٍ في النوايـا أصيـل
دعني أقـل ما شئت ولينقـدوا فالدهـر بالخالـد منـا كفيـل

وفي قصيدته (روحانية الشعر) يتناول موضوع الشعر الذى خص الله به أجل الناس ، فهو روح قدسية ، والاتجار به يفقد قيمته الغالية ، وهو مخلوق مـع الافلاس ، والشعراء ملائك ، والناس أجسـاد ، وهـم أرواحهم ، وجنسهم يخالف أجناسـهم ، وان المدنيـة الآليـة الحاضـرة ستقضي عليهم ، لأنها خلقت لكل ذي احساس بليد ! فيقول :

الشعـر روح فـذة قـدسيـة خص الالـه بهـا أجـل الناس
لكن حفظ مقامهـا صعب عـلى من لـم يكن ذا مرةٍ ومراس
من يتجر بالشعـر يفقد قدسه فالشعـر مخلوق مـع الافلاس
والشاعرون هم الملائك موهوا بـين الانـام بمظهـرٍ ولبـاس
والناس أجساد وهم أرواحهـم كم ذا من الجسد النفوس تقاسي
هم زائدون على الوجود لأنهـم جنس يخالف سـائر الاجناس
ستدوسـهـم مـدنيـة آليـة خلقـت لـكل مبلد الاحسـاس

وفي قصيدة « الشعراء » يبرز لنا أحمد الصافي النجفي المزايا الرائعة التي يتسم بها الشعراء ، فهم رسل الله الصغار الى البشرية جمعاء ، والأوتار التي تنبعث منها الأغاني الساحرة ، والخيال الذي ليس له قرار ، تنبو بهم الدار والجار ، ولا يهنيهم الليل والنهار ، يعيشون في دوامةٍ من الهواجس المضطربة ، والذهول الغامض ، وهم نورونار ، وواحة فيحاء ، وروضـة خضراء ، في حديثهم عبق الأزهار ، يشعون أقماراً في ليالي الهناء ، ولكن حياتهم بين الورى إسار محكم ، وسجن رهيب ، وقـد حـار العقـل في تكوينهم ، لأنهم ملائك أطهار ، فكيف صاروا اناساً يثيرون أعجاب الناظرين ودهشتهم !

ان الشعراء بما يملكون من وعي أصيل ، وخيال خصيب ، وذهن متفتح وبما يتحسسون من الوقائع يستطيعون أن يكشفوا حجب الغيب ، ويتنبأون عن الاحداث قبل وقوعها ... وأنهم يفجرون ينابيع الخير والعطاء .

يا أيهذا الواحد القهار — رفقاً بمن همهم الاشعار
فالشعراء رسلك الصغار — وهم لمن شاء الغنا أوتار
وهم ثمار ما لها أشجار — هم غرباء قطنوا أو ساروا
هم كالخيال ما لهم قرار — لهم وان لم يرحلوا أسفار
الدار تنبو بهم والجار — لا الليل يهنيهم ولا النهار
عيشهم بين الورى انتحار — خصمهم الزمان والاقدار
ذهولهم سكر ولا عقار — من دونما خمر ، بهم خمار
هم حالمون ، حلمهم جبار — بكل شيء لهم عثار
وهم طيور ما لها أوكار — حيث المسا جاء هناك الدار
نورهم ان شئتم أو نار — هم واحة حيث الورى قفار
هم روضة زاهية معطار — حديثهم كشعرهم أزهار
وهم بليلات الهنا أقمار — هم الخمور وهم السمار
وجودهم بين الورى إسار — العقل في تكوينهم يحار
ملائك فكيف ناساً صاروا — بلا جناح ، وهم أطيار
يعجب إذ يراهم النظار

ولو حاول الانسان أن يصغي بروحه لسمع للكون العجيب لحناً سماوياً رخيماً لا تعيه آذاننا الصماء ... فان عازف الكون لا يتوقف عن عزفه الأبدي ما دام هناك شعراء مجيدون .. فهم أوتاره ذات الرنين الشجي ، والنغم الدافىء فيقول !

إصغ بالروح تلق للكون لحناً — لا تعيه آذاننا الصماء

عـازف الـكون مستـمر بعزف أبـدي أوتـاره الشعـــــراء

وغني عن البيان ، ان أحمد الصافي النجفي قد توافرت له جميع العناصر الفنية التي أهلته لأن يكون شاعراً عبقرياً مبدعاً ، يصور المجتمع بأمانةٍ اخلاصٍ ، ويقدم الواناً ومشاهد من الحياة الواقعية في كثيرٍ من البساطة والسهولة والوضوح ، وقد زادته حوادث الايام المريرة حنكـة وخبرة وتمرسا بفن الأدب ، وأبدى مقدرة فائقة على الصراع مع التقاليد ، وجعل من شعره وسيلة لمعالجة الآفات الاجتماعيـة ، ورسم المواقف الانسانيـة بريشةٍ فنية بارعة ، وجاب الرحاب الواسعة من الحياة ، وغذّى النفوس بالقيم الرفيعة ، وهو صادق في تعبيره الفني ، عميق في تفكيره الواعي..!..

وفى قصيدته (العبقري) يكشف لنا عن السجايا العالية التى يتماز بها العبقري ، فهو كالطفل في براءته وطهره ، وكالشيخ فى عمق تجاربه ، وسعة مداركه ، يعيش غريباً بين الناس ، وحلّق بأفكاره في عوالم خفيـة رحبة ، وكأنه طيف لا يمكن مسكه ، وسر كامن في قلب الدنيـا ! متميّز برهافة حسه ، وشفافية روحه ، وتواضع نفسه .

يقـولـون اني عبقـري فقلت ان صدقتـم فـلا تضفوا علي بامجـاد
هو الطفل والاطفال تهوى اقترابه أخ لهـم لكن لـه سن أجـــداد
ولـكن لـه غيـوبـة كـل فتـرة فيصبـح فيالنادي غريباً على النادي
يحلـق فى أفكـاره وهـو بينكـم يداعب أو يلهـو فيـأتي بأضـداد
يعيش كانسان وفى الجن رهطـه ويبـدو كأفـرادٍ وليس كأفـراد
هوالطيف يدنولست تسطيع مسكه هو السر في قلب الدنى مختفٍ باد

وأصبح للشاعر مستودع عظيـم من الاختبـارات لطبائع النـاس ، شديد الاحساس بحركة الحياة المتطورة ، وهو يرى كثـيراً من الرواسب والتقاليد ما تزال تسود المجتمع الذي يعيش بين ظهرانيه ، وهذه الظواهر

الاجتماعية تستلزم فيما تستلزمه المعالجة الجادة ، ومن خلال التجارب الخصبة التى مر بها الشاعر وهو يسعى جاهداً في معركة الحياة ، شاهد أنماطاً من الناس فى مثالياتهم الزائفة ، وعقائدهم البعيدة عن روح العصر ، ووفرة ادعاءاتهم المضللة ، فوجد فقاقيع المياه نجوماً لامعة ، والعواء الأجش غناءاً رقيقاً ، والكلام الفارغ شعراً رائعاً ، والمجانين امراء للشعر ، فيقول :

كثر الأدعيـاء فى الأرض حتى — فسد الذوق والهوى والهـواء
فالفقـاقيـع فى المياه نجـوم — والعـواء المضني لدينا ، غنـاء
والـكلام الهـراء شعـر بديع — ومجانـين شـعـرنـا أمـراء
كيف سمّوكـم لدينـا ضـلالا — شعـراء ، هـل مات الشعـراء
جاءكم من يطهر الجـو منكـم — فتواروا يـا أيهـا الأدعيـاء
إن تكونوا عـلى القريض وباءً — فقـريضي للأدعيـاء وبـاء

وفي الوقت الذي تسود فيه فوضى المقاييس ، يعيش شاعرنا الموهوب أحمد الصافي النجفي على هامش الحياة ، وتحاول بعض العناصر المتطرفة اسدال ستار كثيف من النسيان عليه ، ولكنه وقف أمامها كالطود الراسخ الأشم ، وهو يصرخ في وجهها قائلاً :

تعجب صاحبي لخمـول ذكري — وفـوز البعض بالذكر المجيـد
فقلت ترفّعاً ، دعهـم يعيشـوا — فليس يضـر عيشهـم خلـودي
لهم عمر سوى عمري ، قصير — وشعـر ألحـدوه في المهــود
فدنياهـم سـوى دنيـاي ، قبر — ودنيـاي الـوجـود بلا حدود
وهم في الكتب عاشوا وهي تفنى — وعشـت بعالـم الروح المديـد

والشاعر يرى الناس يزرعـون الأرض ، ويستسقـون السحـاب ، ويجمعون الحبوب من أجل مئونة العام ، أمـا هـو بالذات فيمـده فيض الالهام بالشعر الرائع وهو مئونة عامه . ان انتاج أرضـه الذي تجود بـه

لسماء هو هذا الشعر الذي يغذيه على مر الأعوام حيث يقول :

أرضي سوى أرض الانام سخية ... فهي الكريمة تنتمي لكرام
الناس يستسقون در سحابهم ... ويمدني فيض من الالهام
من حبهم جمعوا مئونة عامهم ... وجمعت من شعري مئونة عام
فنتاج أرضي والسماء تجودها ... شعر يغذيني مدى الأعوام

ويحاول عشاق شعره عبثاً أن يعثروا عليه ، اذ ليست له في الارض دار ، فهو كالنسيم يعيش حراً طليقاً ممتزجاً بأنفاس الخزامى ، وآهات العذارى •

هذا الشاعر الملهم الذى غمس قلمه في آلام شعبه وسطرها حروفاً تعبّر عن تلك الآلام ، والذي ينطلق شعره من أرضية خصبة لاعداد الجيل الواعي الذي يؤمن ايماناً تاماً بأهداف امته العربية المجيدة لصنع الغد الأفضل ••• هذا الشاعر الملتزم بتطلعات الجماهير الكادحة يعيش متشرداً بلا مأوى فيقول :

يروم زيارتي عشاق شعري ... فلا يجدون لي في الارض دارا
تراني كالنسيم أطوف حراً ... فلست ولا النسيم نرى قرارا
فزوروني بأنفاس الخزامى ... وزوروني بآهات العذارى

وينحي الصافي باللائمة على اولئك المقلدين لشعراء الغرب حيث جلبوا الأصباغ البراقة وطلوا بها شعرهم القبيح ، وما دروا ان الشعور الصادق أهم عناصر الشعر القوي المؤثر ، فقد مات عندهم الشعور ، وأصبحت أجواء الشعر موبوءة الهواء ، وهي اليوم بأمس الحاجة الى شمسٍ باهرة الضياء لتعقيم ما علق بها من لأدران فيقول :

ومقلدين من القريض صباغه ... ومهدمين لروحه تهديما
عرضوا عليٍ فنونهم فأريتهم ... شعراً يحطم فنهم تحطيما

جلبوا صباغ الغرب ثم طلوا به شعـراً قبيحاً عندهم وجسوماً
عافوا الشعور وأركنوا لفنونهم اذ مات عندهـم الشعور قديمـا
الغرب أرسل صبغ حسن كاذب فأشـاع فينـا حسنه الموهومـا
الشعر موبوء الهـواء فهـل لـه شـمس تعقـم جـوه تعقيمـا

وليس هناك من ريبٍ ان شعر أحمد الصافي النجفي هو الشمس الذى تعقم تلك الأجواء العفنة ، وقد سكب في الشعر العربي المعاصر دماً جديداً أعاد اليه انطلاقة وحيويته وتدفقه ، وغمره بوشاح رفاف من الافكار والقيم ، وبكل ما يختلج في صدره من مشاعر ورغبات ، ومـا جاش فى نفسه من آلام وآمال ، فقد وجد فيه متنفساً للتعبير عن حريته المكبوتـة ، فشعره هو الخلق الفني بأجلى معانيـه ، غنّى فيه عواطفـه ، وكشف عن نوازع نفسه ، فعرفنا فيه صوتاً قوياً مجلجلاً لشاعرٍ بليغ العبارة ، صادق في التعبير عن أفكاره ، رائع فى ملامح صوره الشعرية ، تتماوج الذكريات في مخيلته المبدعة ، وهو مثال فذ من أمثلة الجرأة وحرية الفكر ، فيقول :

ان شعري عتيق خمـرٍ قـوي ليس يسـطيعـه سـوى السكير
تصرع السامعين جرعة شعري إن فى جرعتي دنـان خمـور
يرفـع اللاصقين الأرض قولي فيعـانون منـه قلـع الجـذور
إن شعـري بالـكهـرباء مليء ملهب الحس والحجى والشعور
مفعـم بالغــذاء يطفي قليـل منه جوع الحجى وجوع الضمير
لي نـور لسـدرة الخلد ينمى ولـذا يبهـر النواظر نـوري
يطلـب المنتشي بشعـري نقـلا من (دخان) أو من سلاف خمور
جاعـلاً منهما جناحـاً ليسمـو لاحقـاً بي الى أعـالي الأثـير

ان الصافي ذو الفكر اللماح الذى يعينه على استنباط الحقائق ، والوعي الكامل لمتطلبات العصر ، والاسلوب الزاخر بالجمال والقوة ، والمتمرد على

المجتمع المكبّل بالأصفاد ، والذى حدّد ملامح الطريق للشعر الجديد حري به أن يقول :

لا أقبل الشعر ان لم يأت طوع يدي   فلست أسعى اليه سعي مجتهد
الشعر يقصدني اذ لست أقصده   كأن روحي نمير والقريض صدي
والشعر ان يدن من روحي أنتشي طرباً   كالروض ينعش روح الطائر الغرد

ويحز الألم في نفس الشاعر حين يرى الصحف تنكر لرسالتها المقدسة وتسف الى الحضيض ، فتصبح آلة طيعة بيد تجار الأدب الرخيص ، وتغدو بوقاً للتهريج ،وسوقاً للاعلانات الكاذبة ، وأرضاً خصبة للتضليل ، وتشويه الحقائق ، فنلمح من وراء هذه البوادر السيئة انكماش أفق الآداب الراقية وموتها ، فيروج الحصا ، ويختفي الجوهر !

هل ترتقي الآداب في عصر به   لا صيت إلا للأديب الموسر
فيبيع بالاعلان سقط متاعه   ويحيطه ، بتجبر وتكبر
صرنا نبيع بمالنا أصدافنا   بالمال كنا للجواهر نشتري
والصحف للتضليل أضحت آلة   لما غدا الاعلان أربح متجر
راجت من الاعلان أسواق الحصا   حتى أختفى في السوق صافي الجوهر

ومع كل هذه العوائق والعقبات التي تقف فى وجه الأدب الهادف ، فان كتب الشاعر أحمد الصافي النجفي لا تشترى بالمال ، انما بالروح لأنها سبقت جيلها بما حوته من أفكار خيّرة متحررة ، فهي خالدة على توالي العصور ، لا تسعى للشاري مطلقاً ، وهل يسير حوض الكوثر للظمآن ؟ إنها هدى للتائهين الحيارى ، ونبراس ساطع للموغلين في بيداء الظلام !

كتبي بغير الروح ليست تشترى   ليست لهذا العصر بل للأدهر
ما ان سعيت لبيعها فمقامها   فوقي وفوق المال فوق المشتري
يسعى لها الشاري ولا تسعى له   هل سار للظمآن حوض الكوثر

لـم أطبع الأشعار الا رحمـــة   فلقد جعلت بهـا هدى التحـير

إنه سيبقى مفخرة يزهو بهـا الزمان ، لأن شخصه الكريم قد صيغ من معـدن الفضـائل ، وفي أصلـهالعريق يجري دم العروبة ، العروبة الواعية ذات المجد الصاعد ، والشأنالعظيم الذي يروع الاعداء الطامعين ، فيقول :

وغداً سيفخر بي ويزهو عالمي   وستدعيني بعــــده الازمـــان
أمـا أنـا فالى الفضـائل نسبتي   إذ لا زمـان يضمني ومكـــان
واذا غدوت الى العروبة انتمي   فعروبتي مجد يروع وشـــان

وكيف لا يبقى اسمه في عـداد العباقرة الخالدين ، وكان قلبه الخفاق مفعماً بحبٍ سامي الأغراض ، نبيل المآرب ، فعاش حياته كلهـا عاشقـاً متيماً وسيقضي شهيد الهوى ! وأي هوىً هذا الذي تشبعت به روحه ، وسال في دمه الحار المتدفق ، إنه ذاق الأمرين من أجل الحصول عـلى معشوقـه ، وكيف لا يظل طوال عمره معذباً مضطهـداً تلاحقـه المآسي ، وتبطش به النكبات ، وقد كان معشوقه الأول السؤدد ، فيقول :

ومن كان مثلي سـامي الهوى   فمعشـوقـه الأول الســؤدد

وأحمد الصافي النجفي هو الشاعر المتمزق الضائع في متاهات الحياة، يقاسي مرارة الغربة الموحشة ، ويغالب عواصف الحـرمـان واللوعــة والبؤس ، ويفيض قلبه بالحنان ، ويتحمـل آلامـاً نفسية تضطرم في صميم مشاعره ، وقد تفتحت عيناه على هذه الحقيقة المرة الأليمة ، حقيقـة الهم والقلق والحزن ، فيقول في الدمع المكبوت :

أهوى البكاء ولا أدري له سببا   فليجر دمعي طليقاً أينما ذهبـا
كأن نفسي من الدنيا قد امتلأت   دمعاً يفتش عن مجرى لينسكبا

فان رأيت عيوني غير باكية | فالدمع مكتتم فيها وما نضبا
نسيت آلامي الجلّى فذكرني | بها وأرجعها دمع لها انتسبا

إن شعره تعبير عن الوجدان ، يكشف فيه كثيراً من جوانب نفسه ، وقد أوحت به اليه زوابع الخطوب الهوجاء ، ورواه من دم قلبه المثخن بالجراح ، فقال :

تسر برؤية شعري الجميل | ولم تدر من أين أحضرته
نفذت به من ثنايا الخطوب | ومن دم قلبي رويته

وقد طحنته الحياة بقسوة الآلام ، وتزاحمت على جسمه العلل، عاش الألم بكل ما فيه من حقائق مرة ، واضطربت حياته ، وسدت في وجهه السبل ، وافترس الهم صدره ، ونهش الكمد قلبه ، وتحسس أوضار الوحدة ، ووطأة الفقر ، ولهفة الحنين ، يرافقه شعور دائم بالغربة القاسية ! وكأن الكآبة صفة ملازمة له ، وهي تدفعه الى الابداع والاجادة ، وفي قصيدته (مبتكر) يقول :

كل شعري نادر مبتكر | شعر غيري مثل غيري هذر
كيف لا أعطي لكم مبتكراً | مثل شعري شخصي المبتكر
لم يقلد صائغي في خلقتي | عندما كان يصاغ البشر
ليس من قلد شعراً ، شاعراً | هام بالتقليد من لا يشعر
صار خصمي من مشى في أثري | مثلما أصبح خصمي ، الأثر

وزهد الشاعر في ملذات الدنيا ، وقنع بنزر قليل من حطامها ، ولم يصب حظاً من توفيق ، وقد حف به اليأس ، فلم يستطع منه انفلاتا وتحررا ، وعاش في شقاء نفسي ، وغمس قلمه في جراح قلبه ، فظهرت على شعره مسحة من كآبة وحزن وألم ، وانهارت أحلامه دفعة واحدة ، وظل قلقا مضطرب النفس ، يسير في طريق مليء بالأشواك والصخور ،

يشعر بأزمةٍ عميقة تنتاب ذاته المتمردة الحائرة !

وفي قصيدته (المزايا والواجبات) يرى في فكره طموحاً خلاقاً ينيط به واجباتٍ ومسؤوليات ضخاماً فيقحم كل عقبةٍ كأداء من أجل نجدة الملهوف ، واسعاف اللاغب ، ويعلم أن جسمه النحيل ما زال أسيراً للضنى هدفاً للنوائب !

والقصيدة تصوّر مدى الآلام التي يعانيها ، وصدى التمزق النفسي ، وعنف الانفعال العميق ، وتفصح عن تجربته النفسية المريرة ، فيقول :

يريني طموحي واجباتٍ وفيرةً	ومهما أجاهد لم أزل دون واجبي
فروض الصبا والأهل والمجد والهوى	ونجدة ملهوفٍ واسعاف لاغب
بقلبي ما زالت تهز كيانه	وجسمي أسير للضنى والنوائب

وقصيدة (لا كل ولا بعض) تبعث في النفس الأسى والحزن الدفين ، وتذكي فيها شعوراً بالأسف الشديد ، لما يقاسيه شاعرنا الصافي من أمراض نقض مضجعه ، وتنغص عليه حياته ، فلم يكن له من مناص سوى الارتماء في أحضان الكآبة ، ولم يحس عذابه انسان ، وهو يسفع دمع قلبه .

ولعل من أبرز ما يتصل بحياته هو العذاب والتشرد والتيه ! وفي لحظةٍ من لحظات تجربة الحزن ، وقد زادت ظروف حياته قسوة ، وهو في ذروة الصبر ، وقوة الارادة ، قال :

الهي هب لي بعض جسم يعينني	فجسمي لا كلاً يعد ولا بعضا
لقد حرت في ترميمه فلو ان لي	بناء سواه كنت انقضه نقضا
مدى العمر لم يسطع قياماً بحاجتي	فهل الله ابتلاني به فرضا
أغذيه من جهدي فيزداد ضعفه	واوسعه عزاً فيوسعني خفضا

لقد قست الأيام على الشاعر ، ونغصت عليه عيشه ، حيث ما زال يعيش بعيداً عن وطنه منذ مدة طويلة ، يدفعه الشوق والحنين الى التلهف

لرؤية ملاعب صباه ، ومرابع شبابه ، وان الصراع الذى يضطرم في صدره يبلغ اليوم أشده فهو كلما رأى زهراً يزدهي على أغصانه سرعان ما يهوي عليه بلهفةٍ حارة ، ولا يحاول قطفه لأنه يموت أن تغرب عن موضعه الأصلي ، فكيف بالشاعر المضاع وهو يحيا غريباً تتقاذفه رياح الاسفار ، وأعاصير الاغتراب ، فيقول والمرارة تملأ قلبه :

أقبّل الزهر في الاغصان مزدهياً ... وما تسوّغ كفي قطف أزهار
جربت من غربتي ما لست أحمله ... فما اكلف غيري غربة الدار
تموت للغربة الازهار ان قطفت ... فكيف يحيا غريب رهن أسفار

إن الآلام التى رافقت حياته ، وما ولدته له من أحاسيس وشعور ، جعلت شعره يجيء مصوّراً للحياة التى عاشها ، ومعبراً عن المحيط الذى نشأ فيه ، لا ينفك يعاني حزناً وشقاء لا مزيد عليهما في ظلمات غربته الدامسة ، وظل سنواتٍ ملأى بالاشجان والآهات يبث شكواه الى قروب أبناء امته ! ولكن تلك القلوب قد استحالت الى أحجار صماء لا تعي ولا تستجيب لنجوى شاعر يعيش في أتونٍ مستعر من الحيرة المضنية مما حدا به أن يقول :

إلهي لماذا خلقت غريباً ... اخاطب أحجاراً دعين قلوبا

وقال ... وقد صدر قوله عن أحاسيس انسانية :

أضعت ضياء العين يوضح طرفكم ... وأبقيت جزءً موضحاً لطريقي
لقد كنت أعمى العين جهداً لتبصروا ... فأجعل حق الناس فوق حقوقي

والشاعر يعلم جيداً سر النقمة التي مني بها ، فهو لم تقعد به الآلام المتلاحقة عن اداء رسالته كشاعر دعاه الواجب الانساني الى الاسهام الفعلي في تحطيم أصنام الغدر والخيانة ، وهدم بيوت الدعارة والفجور ، وسلب غرور النفوس الطائشة ، وعمل على ايقاظ النيام ليحرمهم من أحلام الهوان

والخمول ، كي يهبوا للذود عن كرامة الوطن ، واسترداد حريته ، واذكاء نار الثورة المقدسد ضد الغزاة المستبدين فيقول :

لماذا تـوالـت علي النقـم وخلي علي كخصـم هجـم
أجل أنـا أدري بسـر الألـم فـاني لمـوقـد ذاك الضـرم
أأحطـم أصنامهـم ثـم لا يثـور الأولى يعبـدون الصنم
أأهـدم أبياتهـم ثـم لا يضـج الأولى بيتهم قـد هدم
أأسلب منهـم غـرور النفوس ولا يـرسـلـون على الحمـم
أأوقظهـم مـن سبات حلـو وأحـرمهـم من لذيـذ الحلم
فـلا غـرو ان حاربـوا موقظاً وان قـابلـوه بثـارٍ ودم

وأما في قصيدته (سر الخيبة) فانه يبرز لنا عوامل خيبته في كل الحرف التي زاولها كالوظيفة والتجـارة والصناعة والكيميـاء والتنجيـم والسحر ... فقد أصيب بالاخفاق والفشل الذريع ، لأنه شاعـر تسبح روحه في عوالم خفية من الحقيقة والخيال ، ويقدّس معاني الاخـلاص والتضحية والصدق فكان تصيبه الخسران المبين في كل عمـل مارسـه ، لأنه أسمى من أن ينحدر الى حضيض الاحتيال والكذب والغش فيقول :

لقد جبت في هذي الحياة مسالكاً واذ أنـا في كل المسـالك حائر
فمذ أنا جربت الوظيفـة عفتهـا أأصبـح مأمـورا وطبعـي آمـر
وجربت عقلي في التجارة برهة واذ بي لرأس المال والعقل خاسر
وقلت لعلي في الصناعـة ناجح واذ أنـا للمصنوع والصنع كاسر
ورحت بعلـم الـكيمياء مولعـاً أجـرب مفتونا كأنـي جـابر
اذا ذهبي يغـدو نحاسـاً لخيبتي وعلمي قـد دارت عليـه الدوائر
فوجهت للتنجيم والسحر وجهتي واذ أنا مسحـور وما أنا سـاحر
فأدركت من بعد العنا سر خيبتي وأيقنت بعد البحث اني شـاعـر

والشاعر بعد ان بلغ سن الثالثة والسبعين من عمره المديد ، آن له أن ينعم بشيء من السعادة تتناسب ومستوى مكانته الأدبية المرموقة ، بعد حياة شاقة كرسها لتجديد الشعر العربي المعاصر ، والتقاط الموحيات بدقة وعمق ، والقضاء على الأوضاع الفاسدة التي ركز شعره لمعالجتها ، وقد وفق معنىً ومبنى ، وتناول الاشياء تناولاً موضوعياً من ناحيتي القيمة والجوهر ، وأصبح شعره الرائع عنصراً قوياً مؤثراً فى دنيا الأدب الحديث يلوح كوميض أمل فى عالم الظلمات السحيق ، وان كان ما زال محافظاً على البناء الشعري القديم فكل قصائده فلذات من قلبه ووجدانه وروحه !

أفما ينبغي الآن أن ترد عنه غائلة الشقاء وتمحي كل آثار التعاسة المريرة من حياته ، وتزاح سحب الذكريات الاليمة السوداء العالقة فى أجواء مخيلته ! وهو الذي يقول :

سرى مشيبي من رأسي لأهدابي وهدت الجسم آلامي وأوصابي
وأعيت العين عن عرفان من نظرت فصرت أعرف بالأصوات أصحابي

ورغم تقدمه فى السن فهو ما برح يرسم لنا صوراً شعرية ذات مضمون تتمثل فيه النزعة التجديدية التى تجعل القاريء محلقاً فى عالم من الاعجاب والدهشة ..

فالشاعر يقابل خصومه التقليديين بحلمه الجميل ، ودموعه تبتسم رغم توالي الخطوب عليه ... ولكنه صبغ روحه بالهموم ، وراح يشكو لكي يطرب السامعون على رنين انغامه الحزينة . فقال :

قابلت أعدائي بحلم قامع وتبسمت رغم الخطوب مدامعي
وصبغت بالروح الهموم فها أنا متألم أشكو ويطرب سامعي

ان الروائع الشعرية التي ابتكرتها عبقرية الشاعر الصافي تعد خطوة موفقة فى مجال تطور الشعر ، وقد حقق عليه الشعر العربي المعاصر الحلم المنشود على أوسع نطاق ، وأتم صورة ، وأكمل وجه ، فهو يتوغل الى أعماق النفس البشرية فيبعث فيها الغبطة والابتهاج ، والكآبة والألم في آن

واحد ، ولـم يحتفظ بخصائص القصيدة العربية الموروثة دون تجديد أو تطوير ، وانما كان نتاجه الفكرى شيئاً جديداً فى عالم الشعر ، عالج فيـه مشاكل الانسان ، وكشف عن هواجس النفس ، وعبّر عن قوى الشعب الكامنة ، واستقصاء العلل ، واطلاق حرية التفكير والتعبير ، والافصاح عن خلجات الشعور ، وهو بارع فى الوصف والتحليـل ، ماهر فى ابراز نظرته الى الحياة ، ورسم صورة كاملة لنفسية جيلنا المعاصر ، وأحسن التعبير عن المشكلات الاجتماعية ، والظروف القاسية التى سادت حياته ، والانطباعات الواعية التي تركزت فى ذهنـه ••• وان التغني بنوازعـه العاطفية الخاصة لم يصرفه عن الاهتمام بالمشاكل الكبيرة العامة ، انه رائد من رواد حركة التجديد ، شق طريقه الى مكانه اللائق بثبات وحزم ، ولم يستسلم لليأس ، أو يسيطر عليه القنوط ، بل ازداد صلابة وطموحاً ، وظل يواصل العمل باندفاع واخلاص ، وانطلق بكامل حريته التامة ، وصراحته المعهودة يعبر عن رأيه ووجهة نظره ، وقدّم خلاصة موقفه من الحياة ؛ وأطل على الناس بشعره الممتع البديع ، فى وقت بلغ فيه الصراع الفكري ذروته ، وأطلق لنفسه العنان فأفصح عن كل ما تجيش بهـا من آلام وآمال •••!•

والقصيدة عنده وحدة عضوية متماسكة الاجزاء ، ترتبط بالحيـاة ارتباطا وثيقا ، تنسجم وطبيعة النفس البشرية ، وتعبّر عن تمزّق جيلنـا المعاصر وقلقه وضياعه ، وتجسد ارادة الشعب ، كل شعب يعشق الحرية ، ويستميت فى الذود عنهـا ، وأعرب عن احاسيسه وشعوره الصادق الذى ينبع من القلب ، قلبه المملوء بالعواطف المتأججة ••!

لقد أوجد ملامح جديدة فى دنيا الشعر ، وفى وحدة البناء الشعري لما استوعبه من مضامين فكرية ، وصور انسانية ، عاشها أحاسيس وعواطف وأحداثاً ، وهى من ناحية الشكل امتداد لقوالب الشعر الكلاسيكية •

وهو معروف بموهبته الفنية فى الشعر ، وبحلاوة تعابيره ، وجمال فنه الشعري ، وسلاسة اسلوبه ، ووضوح اتجاهه الفكري وقد أجاد التعبير عن روح العصر ومشاكله أروع الاجادة ، وصور الحياة بما فيها من جمال وخير وحق ، واحتل مكان الصدارة بين حملة الأقلام ، لتجاربه الطويلة فى مضمار الحياة ، ولنشاطاته الواسعة فى حقل الأدب ، ولملكته القوية الخلاقة ، وروحه الاصلاحية ، وشعوره الرقيق ، وابائه وشرف نفسه ، وطيبة قلبه ، وصفاء سريرته ، وخلوص نيته ، واصالته فى الفن ، وابداعه فى الشعر ، واحساسه بمرارة الحياة ، وقيامه بالاعمال النافعة التى تكفل للوطن القوة وعزة الجانب وتضاعفت شعور أبنائه بالانعتاق والكرامة ، وتنير لهم الطريق فى مسيرتهم الظافرة نحو حياة أفضل !

وان أوساط الشعب العربي فى كل مكان ، تقدر له مواقفه المشرفة من قضايا الحرية والاستقلال ، فقد ظل شاهرا سلاح الايمان والاقدام والعزيمة ، وهو يناضل ويجاهد ليشق طريقه فى سبيل الوصول الى أهدافه العليا من أجل رفاه الشعب ، والقضاء على أعدائه الموغلين فى الخيانة والجريمة ، والصائدين فى الماء العكر ، والعاملين فى الظلام فسعى الى تقويض سلطانهم الجائر الذي كان قائماً على هدر حقوق المواطنين ، وقمع حركاتهم الوطنية بكل الوسائل .

لقد وفر بمؤلفاته القيمة أسباب الثقافة والمعرفة للملايين من أبناء شعبه ، لما حققت لهم من حرية فى التفكير ، وما أوحت به من عبر ، وما فتحت أمامهم من منافذ الأمل . وتشير الى ما يخالج نفسه من الرغبة القوية فى توسيع نطاع الرخاء الاقتصادي بين الناس ، وتصوير الواقع الانساني، وان سلامة اتجاهاته ، ونزاهة غاياته ، ومساهمته فى نشر الثقافة مساهمة فعالة ، كل هذه العوامل قد تظافرت وكونت منه شخصية تمتاز بقوة الملاحظة ، والاعتماد على النفس ، والعواطف الانسانية الثرة ، والملاءمة بين

المشاكل العامة والمشكلة الخاصة ، والقدرة على العمل لاسعاد الآخرين والتعبير عن أماني جيلنا الضائع المتمزق الذى يبحث عن نفسه .

وانني لأقف بكثير من الاجلال أمام قصائده التي هي غاية فى الروعة والابداع ، وأكثرها مستوحاة من قضايانا الوطنية ، فتزيد فى حبي له ، وتضاعف من اعجابي به ، اذ تتكشف عن شاعر ملهم عامر الأيمان بمستقبل الامة العربية المجيدة ، متحرر الفكر ، متفتح الذهن لا يعوزه العمق في تقصي الغاية ، واستيعاب التفاصيل ، والادراك الواعي بما يجدّ من أفكار واتجاهات فى هـذه المرحلة الحاضرة التي يجتازها العالم ، وهي مرحلة انطلاق شامل فى كل المضامير والمجالات ....!..

وهو بعد أن خبر الحياة فى حلوها ومرها . وأحاط بسير رجال الفكر ، أصبح أغنى تجربة ، وأعمق مفهوماً لمشكلات العصر الراهنة التي تعرف خلالها عن كثب الى جميع النواحي الاجتماعية ، وكشف الطريق الى قلب الشعب ، وحمل مشعل اليقظة الفكرية ، ومشى فى خطى مطردة للوصول الى الهدف المنشود ، وهو يمارس عملية البناء والتطوير ، ويغرف من ينبوع الفن العربي الأصيل ، ويضرب على أوتاره الحساسة فى آفاق الحياة الانسانية ، ويخاطب الوجدانات بانفعال انساني ظاهر ، فيتغلغل شعره فى شعاب النفس وجوانبها ، فهو تعبير صادق عن أدق خلجات الشاعر ، وصورة من صور مجتمعه ، ووحي خياله الرحيب ، ووليد التأثر العاطفي ، ونرى فيه صورة صادقة من الحياة التي نعيشها ، مع قوة التعبير ، وجمال المعنى ، ورشاقة الأسلوب ، وسحر البيان ، وعمق الفكرة ، وسهولة لألفاظ ، والايحاء الذاتي المؤثر ، والجرس العذب الحالم ، وانه بآثاره الفكرية دعم الحركة الأدبية الناشطة ، بعد أن كنا نعاني جدباً فى الانتاج الأدبي !

ان فى قراءة شعر الصافي لمتعة كبرى ، اذ يشعر قارئه بلذة غامرة قلما تتاح له فى الكثير مما يقرأ ، وكلما تقدّم الزمن زاد جدةً وطرافة ،

لما يحمل في ثناياه من الفكر السامية ، وسعة المدارك ، ومرونة الأسلوب ، ولاتسامه بطابع الابتكار ، وميزة الصدق ، والخفقة الوجدانية • ولالتصاقه بالحيـاة ، ومناهضته للآراء التي لم تعـد تستقيم مـع واقع حياتنا الفكرية الجديدة بمعناها الانساني الشامل !

ولم يقتصر شعره على وصـف جوانب محـدودة من أوضاعنـا الاجتماعية ، بل تناول جميع مناحي الحياة من خلال معطياته الانسانية ، فله في خدمة الأدب قدم راسخة ، وجهـد رائـع مخلص ، يفوق حـد التصور ، فضلا عن جهوده الكبيرة في مضمار الكفاح الوطني •••!•

انه لمن المريع حقاً : أن يقع مثل هذا الأديب النابغ الكبير تحت عبء النوائب ، وتستبد به الظروف القاسية فتملأ مآقيه بحبات الدمع لما يلاقيه من النسيان والجحود والغبن ، ويكابده من دوافع القلق النفسي •••

وكم حاول جاهداً أن يجد مخرجاً لهذه الحالة التي لا تطاق ، والتي يعاني منها الأمرين فلم يفلح ، وهو منذ اكتحلت عيناه بنور الحياة ، واذا به يأخذ من الآلام والأسقام بأوفى نصيب ، ويصطدم بالواقع القاسي ، واقع الأديب الذى نذر حياته دفاعاً عن أمجاد امته ، فلا يعبأ بالمصاعب التي تعترض طريقه ، ولا تفت في عضده توالي النكبات ، رغبة منه في سلوك الطريق الوعر من أجل تهيئة أسباب الحياة الكريمة لأبناء وطنه ! وقـد يهون الأمر لوقف عند هذا الحد ، ولكنه عاش طيلة حياته مشرداً غارقـاً في خضم الويلات فلا يدرأ أحد عنه عواصف البؤس ، ويحيطه بعنايته ، ويرعاه بحدبه ، ويوليه بعض اهتمامه ! وليس أقتل للمواهب من الاهمال والفاقة ، والوقوع في أزمة نفسية خطيرة !

ان الشاعر أحمد الصافي النجفي ، لم ينل من أبنـاء قومـه غـير الاعراض ونكران الجميل ، شأنه شأن كل أديب ذي تراث مجيد ، وله دور بارز في التمسك بقدسية الحرف ، وشرف الكلمة ، وفي العمـل

الدائب المستمر من أجل تحرير الامة العربية من قيود الاستعمار وعملائه المأجورين الذين يدبّرون المؤامرات لتفتيت الوحـدة الكفاحيـة ، وخنق الحركة القومية النامية ، للانفراد بالحكم ، والاستئثار بالسلطة التي تحول دون تعزيز التعاون بين كافة المواطنين ، ووضع الخطط الاصلاحية موضع التنفيذ ، فيطمس وجه الحقائق ، وتتأخر البلاد عن الركب السائر نحـو ذرى الازدهار والتقدم وتظل فى المؤخرة تجر أذيال الاخفاق والخيبة ...

إن الشاعر أحمد الصافي النجفي ، وهـو انسـان مثالي يعيش فى صميمنا ، وسار بقدم ثابتة الى مكانه الرفيع بين رجال الفكـر الأحـرار وارتقى ذروة المجد بأعماله الفكرية الخالدة التي تدل على مـدى المجـد الضخم الذي بذله ، واضعا نصب عينيه خدمة البشرية برمتها ! ان هـذا الأديب النابه العملاق الذي يمكنني القول بمنتهى الصراحة ، انه مفخرة من مفاخر بلادي ! يعاني اليوم أوجاع الأمراض ، وجفاف الحياة ، وجفاء الاصدقاء ، وقسوة الاغفال ، وان حالته الصحية والمعاشية تتردى الى حـد الخطورة !

وكانت الغربة أشد وطأة عليه بما أثارته فى نفسه من شعور جارف بالألم العميق ، فى حين ينعـم بلذائذ العيش من لا يستـأهل ان يوصف بالأديب ، ولا يستحق الحياة !

ان الوفاء يقتضينا أن نعمل على توفير جوٍ من الرعاية لشاعرنا الكبير أحمد الصافي النجفي ، واعادة الاطمئنان الى نفسـه ، وضمـان العيش الهنيء له ، وتذليل كافة الصعوبات التى تقف فى طريق سعادته ، والتغلب على كل ما يجابهه من عقبات ، والتخفيف من وطأة الفاقة التى ينوء تحتها ، ولتتضافر كافة الجهود لتحقيق هذا الطموح الكبير ، طموحه فى العودة الى وطنه بعد أن بلغ الثالثة والسبعين من عمره المديد ليعيش بين أقاربه ،

وابعاد شبح الغربة عنه ! الغربة الجدباء التي تضني حياته ، وتملأه هماً وكمداً وشجىً !

وأخلص الى القول : ان الشاعر الصافي الذي اتسم أدبه بالخلود لم يلق من بني وطنه غير المجافاة والاجحاف والعزوف واسدال ستار من النسيان عليه ، النسيان الذي كاد ينشر اليأس فى نفسه ، ويقتل الأمل فى قلبه ..!

وانــه ليزيدنا فخــراً واعتــزازاً ، وتغمر صدورنا النشوة والابتهاج ، حين نعلم جيداً ان هذا الشاعر اللامع سيظل موضع اعجـاب وتقدير الاجيال المتعاقبة على مر الزمان ، ما دامت الحياة تنبض فى الانسان بعد ان ترك آثاراً أدبية لا يمكن للايام طمس معالمها ..!..

ان يود كل مواطن غيور أن يرى الصافي فى رغدٍ من العيش ، تمشياً مع روح العدالة والانصاف والحق فى تقديـر الشعـب لـذوي المواهب الخـلاقة ، وانه لما يعزز قولنا هذا ، ان الصحف الوطنية العراقية انبرت تطالب برفع الحيف النازل على الشاعر ، وانتشاله من هوة الأحزان والازراء والشجون !

ان أحمد الصافي النجفي انشـودة رائعـة من أناشيـد العبقريـة ، ستتغنى بها أفواه البشرية على مدى العصـور ، وان تاريخ المفكـر العربي المعاصر سيكتب له صفحات مشرقة بمدادٍ من نور ، وسيبقى مثالا خالداً من أمثلة الكفاح المقدّس من أجل ترسـيخ دعـائـم الحريـة والحـق والعدل ..!

وان سيرة حياته الحافلة بجلائل الاعمال ، وعظائم الامور ، والملأى بالايثـار والتضحيـة والنبـل ، والزاخرة بالاقـدام والتفـاني والجـرأة ، والساطعة بأنوار الشهامة والتقشف والزهد ، ستظل شعلة وهـاجـة الى الأبد ، يهتدي على ضوء تعاليمها قادة الشعوب فى ثوراتهم الوطنية ضـد الظلم والطغيان ، فتدفعهم الى المزيد من التضحيات والمثابرة والصمود لوضع

ركائز الاستقلال التام ، والسيادة الوطنية الكاملة ..!..

وقصيدة « فننا وفنهم » من أحدث قصائد الشاعر وأروعها ... فقد أظهر فيها اعتزازه بالشور القومي ، وحبه الشديد لأمته العربية ، وذلك بالاشادة بالشعر الذي هو ديوان العرب وفنهم العريق المستمد من أعماق النفوس والافكار ، والمقتبس من خطرات الارواح ... وأما الفن الغربي فهو منحوت في الاحجار والصخور التي تتعرض للتحطيم والكسر ...

ويتألم الشاعر ، وتعصف به ريح الأسف حينما يرى شعرنا العربي تكتسحه تيارات الشعر الغربي وملابساته فيطغى عليه المسخ ، ويغزوه التقليد فيفقد طابعه العربي الاصيل فيقول :

يا شعر يا أسمى وأجمل ذخرنا ... لماذا غدوت اليوم رهن التأخر
لئن سجّل الاقوام في الصخر فنهم ... ففي الشعر سجّلنا بدائع عبقر
وان يفن فن الصخر ان مسّه البلى ... فهيهات يبلى الشعر في مر أدهر
من النفس والافكار ألواح فننا ... كما ان في الاحجار فن التحجر
ترافقنا أنّى نسير فنوننا ... وتلزمنا ان نبد أو نتحضر
وفنهمو لم يرتحل برحيلهم ... وان كلفوه رحلة يتكسر
هم العرب أرواح من الروح فنهم ... وفنهمو باقٍ وان لم يسطر
بنينا من الاشعار كل عمارة ... بهدم أكف الدهر لم تتأثر
لنا الكلمات الباقيات على المدى ... تهزّ مباني كف كسرى وقيصر
قلاع وايوان على الرّق أسست ... ونحن أقمنا كل شرع محرّر
تباركت الأهرام لما تعرّبت ... وقلنا بها : من يشته الفخر يفخر
تركنا الورى تهتم في حسن مظهر ... وكان اهتمام العرب في حسن مخبر
ولكن أضعنا اليوم آيات فننا ... بفن دخيل كالح الوجه أغبر
مسخنا على أيدي الاعاجم شعرنا ... ولوعاً بتقليد ودعوة منكر
سخرنا بعصر الانحطاط بشعرنا ... الى أن بلغنا اليوم عصر التدهور

عبقرية الصافي

الشاعر احمد الصافى النجفي شيء رائع فى مفاهيم الانسانية والوطنية والاخلاص ، ونموذج حي فى صفاء النفس ، وطهر القلب ، وصدق اللهجة ! حمل مشعل النور والمعرفة للناس ، وصوّر كفاح امته وبطولاتها وتضحياتها فى سبيل نيل حقها المهدور ، واستقلالها المغتصب ، فأصبح شوكة حادة فى حلوق المستعمرين وعملائهم المأجورين ..!

وهو ذو شاعرية متدفقة ، وصاحب مدرسة متميزة فى الشعر العربى المعاصر ، مدرسة شعرية قائمة بذاتها ، وقد وصل بأعماله الفنية الى مستوى الاعمال الكبيرة التى تعتبر نقطة تحول فى تاريخ الشعر الحديث ! لم يحفل كثيرا بالالفاظ الضخمة ، وقد اختار التعبير الموحي المؤثر ، وان الصور الشعرية التى طالعنا بها فى خرائده المبتكرة هى صور حسية ، عبّر فيها عن احساس عميق بالحياة ، بأسلوب راق شيق ، وترفع عن التقليد لانه مقبرة الابتكار والانطلاق والتجديد ! وجمع بين التجربة الذاتية ، والقضايا الاجتماعية العامة ، وتفتحت عبقريته الشعرية الزاخرة على استيعاب المعاني الانسانية الرحبة ، وملك القدرة على التعبير بصدق ووضوح عن أدق الخلجات الانسانية واعمقها ، واخرج منها عملا شعريا ضخما ، واغنى الشعر ، واكسبه ألوانا جديدة ، والتزم الوحدة العضوية فى بناء القصيدة ..!

وهو من رواد حرية الفكر الاوائل ، وحماتها البواسل ، ومن شعراء الرعيل الاول الذين حلقوا فى سماء الابداع والاجادة والخلق الفني ، وبرز فى دنيا الادب كاسم كبير ، عظيم القدر ، رفيع الشأن ، مرهف الشعور ، ذكي الفؤاد يملك طاقات مبدعة للتعبير عن حاجات الانسان ومشاعره ، وانطلق فى رحاب الحياة فتجاوبت افكاره مع روح المجتمع الذى يعايشه .!

شعره مرآة صادقة لعواطفه ، صانه عن الابتذال والمتاجرة ، ودافع

به عن حقوق الفقراء والمظلومين ، وعبر فيه عن حياته وحياة الملايين من ابناء الشعب ، يتأثر بهم ، ويؤثر فيهم ، وأشرع قلمه للذود عن استقلال وحرية امته ووطنه ، فقضى شطراً كبيراً من عمره في زوبعة عاتية من احداث الزمن ، ومشاكل الحياة الاجتماعية ، وشؤون السياسة والادب والعلم ، وغدت حياته حافلة بأروع الدروس في الشهامة القومية ، والغيرة الوطنية ، والتفاني في سبيل مصلحة الشعب والوطن ، فنلمس في سيرته اسمى معالم الرجولة ، وعزة النفس ، وعلو الهمة ، فهو لا يرتضي بالحرية بديلاً ، او بالكرامة عوضا ، وضرب في التضحية والايثار ونكران الذات مثلا سيبقى حديث الاجيال على مر السنين ، انه الرجل كل الرجل نبلا وشمما وجرأة ، ونفسه المنطوية على الاباء والشرف والخير يتجسد فيها مقته للرياء والنفاق والملق ، وغرامه بالصراحة والصدق والعفة ، وحبه للعدل الاجتماعي ! وقد تمرس بأعباء الكفاح الثوري ، وشق طريق النضال والصمود بسخاء تضحيته، وقوة عقيدته ، هازئا بكل الاحداث التي وقفت ضده، ولم يأبه بالعوائق التي عرقلت سيره في دروب الجهاد المقدّس ، اذ حنكته الشدائد والمحن ، وتبلورت مفاهيمه للحياة ، فأصبح المثل الاعلى الذي يجب ان يحتذى في طيبته المتناهية ، وصبره على المكره والخطوب ، ونظراته الصائبة ، وتأملاته العميقة ، وتفكيره الواسع ، وتقديسه لمعنى الحرية ، ونبذه التقليد والمحاكاة واقتفاء الأثر ، وسعيه الحثيث من اجل تطوير البشرية واسعادها ، حتى بات رمزاً لانكار الذات في سبيل خدمة الانسانية الشاملة ، فانه يؤمن بالانسان ويثق به ، ويحفزه الى العمل الجاد المتواصل لتحسين حاله واحوال الشعوب كلها ..!

انه أديب مبدع ، ومفكر عميق ، قلبه ينبض بحب الآخرين من بني الانسان ، وفي بردتيه يكمن روح الشاعر العبقري ودقة احساسه ، والرجل الوديع ، الكبير القلب ، اليقظ الضمير ، ذو العقل الواعي الحصيف ،

والعواطف الفياضة الخيرة ، حلق ممعناً في اوسع الآفاق ، وطوف في ارجاء فسيحة ، وعوالم رحبية ، واوغل في صميم الحياة ، وعرض نماذج انسانية في قالب شعري اخاذ ، وشخص امراض المجتمع ، وابرز ملامحه الاصيلة ، وعبر عن اهتمامات شعبه ، وسعى الى تقدمه وتطوره ، وطالعنا بخيالات وسوانح رائعة ، وخرج بمفهوم الشاعرية الى نزعة الابداع ، وخلق الصور البارعة ، وجدة الموضوعات التي تتجلى فيها روح التمرد على التقاليد البالية ، والنزوع الى الحرية المطلقة ، والتي ترتكز على الثقافة الواسعة ، والجهد المرير ، والتجارب الكثيرة في مجالات الحياة .

انه ليس مجرد شاعر كبير ملهم ، بل ذو خصال فريدة ، وخلال نادرة ، فهو يتميز بعمق الفكرة ، والنظرة الذكية للحياة ، والعاطفة المشبوبة ، والموهبة الخلاقة ، والنزعة الى التجديد الطامح الى الكمال ، وسمو الخيال ، وخصب القريحة ، وبراعة التصوير ، يتفاعل مع افكار الناس وعواطفهم ، ويعرب عما تثيره احداث الحياة في نفسه من انفعالات وخواطر فيخرجها لوحات فنية اخاذة في غاية الدقة والروعة ، تأخذ باللب براعة وصفها ، وتحمل سمات جديدة للواقع ، تتسم بها شخصيته وخصائص شعره ، وتعطي دليلا قاطعا على انه مصور بارع يعكس في فنه مشاهد الحياة بواقعها الحقيقي ، اطل من نافذة احساسه الذاتي الى رحاب الانسانية الواسعة ، وصور مشاعره وافكاره بصور مستوحاة من تجاربه ومحيطه وانسانيته النابعة من فيض المشاعر المتدفقة ، وعبر عن آرائه الجريئة ، التعبير الحر الثوري ، وحمل في ذهنه فهما متكاملا ناضجا لرسالته الفكرية التي أسهمت مساهمة فعالة في عملية البناء الجديدة للحياة المنشودة ، وأدخلت النور الوضاح الى اعماق النفوس ..!

انه قمة شاهقة في الشعر العربي المعاصر ، غنى أجود شعره الانساني ، وخرج الى الجماهير بأدبه الناضج المتكامل ، واغنى التراث الادبي بدواوينه

القيمة ، فأثر فينا بمعانيه العميقة ، وهزنا بعواطفه المضطرمة ، وانتزع اعجابنا بروائع نتاجه الفكري ، وقصائده الخالدة التي تحدو الشعوب الى غدها المشرق • ليعيد لها القدرة على اكتساح الركائز الاستعمارية ، وممارسة حقها في اقامة صرح سيادتها على كامل ارضها ••

وشعره مرآة لنفسه ، انعكست على صفحتها جميع مزاياه الخيرة ، فهو شديد التمسك بالحق ، وصريح لا يتلون ، لم يتنكب لموقف انساني نبيل ، وغاص الى اعماق القضايا الحياتية التي يجابهها الانسان في كل زمان ومكان ، ونفذ الى اغوار الحياة ولم يقف عند جزئياتها العارضة ، وشكلياتها المتغيرة ، تدفق لسانه بالشعر كما يتدفق الماء العذب من الينبوع الصافي الزلال ، فخلق آفاقا شعرية جديدة نهض بها الى المستوى العالمي ، وخط في سفر الخلود تصاوير فنية رائعة ما عرفت الانسانية مثيلا لها الا نادرا • فقد زخرت بالمعاني الانسانية السامية ، والعواطف الصادقة التي تعج بها نفسه كانسان حي يعاني مشكلة الحياة والوجود ، ويخوض معركة التحرر الفكري في بسالة وحزم ، ولايبالي بالتضحيات الغالية ، والمصاعب الكبيرة ، وينطلق بنتاجه الادبي الى صعيد انساني مترامي الافاق ، فيتوخى الطرافة في المضمون ، والجدة في المحتوى ، ويتحاشى السبل المطروقة ، فقد وجه افكاره البناءة نحو الحياة فدرسها ، وتتبع ظواهرها ، والقى الاضواء الساطعة على خفاياها ، تدعمه شاعرية رحبة الجوانب ، فيها ومضات ذهنية وهاجة لفتت اليها انظار النقاد ، ومؤرخي الادب •• ففتح صفحة جديدة في سفر الشعر العربي الحديث ، وسجل تاريخا حافلا بروائع الآثار المجيدة ••

ولما كانت مهمة الشاعر مرتبطة جذريا بالمجتمع فقد قدر المسؤوليات الملقاة على عاتقه ، واستوعب ابعاد المرحلة الراهنة ، وفجر الطاقات الشابة الفتية ، وانتشلها من الضياع في متاهات الحياة ، وهيأ لها المناخ الملائم

لاستمارها فى واقع ثورى عملي •

ان الناحية الانسانية لدى الشاعر احمد الصافي النجفى قد طغت على كافة اتجاهاته الشعرية ! ففى قصيدته « اليتيم » صادق فى وصفه لليتيم كأروع ما يكون الصدق ، محيط بحياته احاطة تبعث على الاعجاب ، وتثير لواعج الاحزان ، فقد اعطى صورة حية بارزة المعالم ، لما يعانيه اليتيم فى حياته من العذاب والفاقة والالم ، وجسد اهتزازاته العاطفية ، وانفعالاته النفسية تجسيدا فنيا موحيا ، وينطوي على شاعرية عميقة تزخر بشحنات متدفقة من الاحاسيس الملتهبة ، ويحمل تعبيرا عفويا صادقا ، ويتضمن تجربة شعورية غنية متماسكة الجوانب ••! •

ففي احد الازقة الشعبية الضيقة ، ابصر الشاعر يتيما قد مات أبوه قبل فطامه ، فرضع الذل والهوان مع حليب امه ، اذ ذاق مرارة الاضطهاد ، فلاح دامع العين ، معقود اللسان ، مشحوب الوجه ، وقد أجهش بالبكاء واشرف بالدموع والرعب يملأ قلبه ، اذ ليس هناك أحد يفزع اليه ليحميه من الاذى الواقع عليه من لدن رفاقه ، ويأتي شاكيا الى امه ، ويسألها عن والده فتجيبه فى تهدج راعش •

ـ ان اباك غائب ، فيرد عليها والشوق يعصف فى كيانه

ـ ولكنه لماذا لم يرجع حتى الآن؟ فتظل الأم واجمة لاتحير جوابا •

ولربما لمس عطفا ورعاية من انسان عابر ، فيعدو اليه فى لهفة جامحة مناديا ابي •• ابي ، مناشدا أياه ان يثأر له من الاطفال الذين ساموه سوء العذاب ، وطالبا منه ان يشترى له دراجة ليركض بها فى الشارع ولكن هذا الرجل الغريب يلاطفه ويودعه فى مرارة ولوعة !

وعندما يرى الاطفال مع آبائهم الذين يقتنون لهم كل ما يبتغون من الثياب والحلوى تشتعل بين ضلوعه نار الغيرة ، ويضل يرمقهم بطرف

دامع ، وهو يجري خلفهم ، وكلما اقترب منهم نهروه وطردوه باحتقار وازدراء .

وطالما جلس الى يتيم آخر يتبادلان الاحاديث بذلة وخضوع ، متباعدين عن الصغار السعداء ..

وحينما يمر من المحال التجارية ويشاهد اللعب والدمى فى واجهاتها البراقة تتصاعد من حنايا صدره الزفرات والآهات ، فهو لا يستطيع شراءها، ويبقى طائفا فى الاسواق على غير رشاد وهدى ، وفى قلبه انات مكتومة !

وقد يركب العصا متخذا منها دراجة ليشبع رغبته القوية ، ويعيش فى عالم الاوهام ، وهويرتدى الملابس الرثة التى ورثها عن ابيه بعد ان تقصرها الام ، وتخيط شقوقها ، فى حين كان امثاله من الاطفال يزهون بثيابهم الجديدة ، وعلى ثغورهم تسطع اشراقة الابتسامة الوضاءة .!

وهكذا يمضي الشاعر راسما بريشة فنه الخلاق وقائع حياة اليتيم تلك الحياة المشحونة بالاستكانة والبؤس والشجن ، صابا جام نقمته على تردي الاوضاع التى تركت الملايين من من الناس يسكنون فى اكواخ حقيرة ولا يحصلون من ضروريات الحياة الا على النزز القليل الذى لا يكاد يسد الرمق ، وفى هذا من الحيف النازل عليهم ما يأباه العدل والحق والانصاف . وترفضه كل الشرائع السماوية ، وتكافحه الشعوب النامية التي ملكت زمامها وأصبحت قادرة على تقرير مصيرها ..

لقد ألهب اليتيم خيال الصافي وشاعريته ، وهو الذى ترسب فى اغواره حب شديد للطبقات الفقيرة التى انبثق من اعماقها ، فراح يعيش فيمأساة مروعة لانهاية لها ويصور صراعالانسان ضد الاستغلالوالاستثمار والاحتكار ، ويرسم مشاهد الحياة اليومية البائسة دون افتعال، بأسلوب مليء بالانفعال والتأثر ، لما يمتاز به من حساسية تنبع من اعماق نفس غنية بمنابع العطاء والخير والصدق !

انها من شوامخ القصائد العربية المعاصرة ذات المحتوى الانساني ، وصورة مؤثرة قوية التعبير لما تقاسيه الطبقة الدنيا من ضنك العيش ، وغائلة الجوع ، وقد لون معانيها باحاسيه وعاطفته ووجدانه ، يحالفها المزيد من الصدق الفنى والمشاعر العنيفة ، والمرارة الحياتية ، والملامح الشعرية ا لغنيةبالسمات الانسانية ، استكناه دقائق المعاني ، فيقول :

أودى الردى بأبيه قبل فطامه فحسا المذلة فى حليب المرضع
مستسلم والرعب يملأ قلبه اذ لم يجد عند الاذى من مفزع
فتراه يلعب فى الزقاق وطالما من صحبه يمنى بضرب موجع
فيجيء يشكو ضاربيه لأمه فتجيب شكواه بجارى الادمع
فيقول اين ابي فتدعو غائب فيقول غاب ؟ فما له لم يرجع
فتظل واجمة وليس تجيبه الا بزفرة قلبها المتوجع
ولربما وجد الحنان من امرء فدعاه انت ابي وكنت مضيّعي
ابتاه خذني واشر لي دراجة اعدو بها عدو النشيط المسرع
واثأر من الاطفال لي واضربهم وليتقونى ان رأوك ابي معى
ويظل يلثم ركبتيه توسلا متمسكا فى ذيله يتضرع
فيجيبه هذا بثغر باسم وعيونه تهمي كسحب همّع
ويقول سوف اجيء بيتك فى غدٍ ويمد نحو الطفل كف مودع
لهفي لطفل لا يزال يعيش فى امل بكف الحادثات مضعضع
ولقد يقول له الصغار بأنه قد مات عنه ابوه قبل وما يعي
فيجيء يركض كى يسائل امه والنار منه تشب بين الاضلع
فتكذب الام الحنون مقالهم وتقول لاتجزع ولا تتفجع
ولكم يرى الاطفال مع آبائهم متمتعين بهم واى تمتع
يشرون ما تهواه انفسهم لهم والطفل ان يأمر اباه يسمع
فيغار منهم ثم يركض خلفهم لكنه ان يدن منهم يردع

فيظل يرمقهم بطـرف دامـع ويعـود منهم فى حنا متقطـع
ويعود للصبر الجميـل لانـــه ألف الشقا فبعدهم لم يطمع
متذلل لـم يـدر عـلة ذله او سر وطأة بؤسه المتجمـــع
تعيا الرجال من الخطوب وحملها كيف احتمال الخطب المترعرع
ولقد تراه الى يتيم جالســــا متفاهمين بروح ذل مخضـــع
متباعدين عن الصغار كأنمـــا حسباهم نسلا لجنـس ارفـع
أما اذا افترقا : فكل منهمـــا يدنو لهـم خوف انفراد مفزع
لكن تراه كالغريب امامهـــم يرنـو لهم كالسائح المتطلـــع
واذا اراد الاشتراك بلعبهـــم لم يلق منهم غـير سب مقـذع
ولكم يرى لعبـا لدى مستودع فيردد الزفـرات للمســـتودع
لعب تمنى لو يطيق شراءهـــا ليعيد بهجـة قلبـه المتصـدع
فيطوف فى الاسواق ثم يعود فى قلب على اللعب الصغار مـوزع
ولربما ركب العصا دراجـــة ليسد رغبتـه بوهم مقنـــع
ولقد تخيط الام اثوابـــا لـه فصلن من ثوبي ابيـه الاروع
او قصرتها من طويل قبائـــه او ضيقتها من رداه الاوســـع
يزهـو الصغار بزاهيات ثيابهم ويلوح ذا مـــن برده بمرقـع

وهكذا يجيد الشاعر رسم الشخوص كروائي فذ لا يفوته الكشف عن كل صغيرة وكبيرة من أسرار النفس الانسانية وانفعالاتها وتطلعاتها ، ورصد تخيلاتها وحركاتها ، وسكب حوارها فى قالب شعري ... فيخرج العمل الادبي فى اطاره الفني المتناسق .. ! ..

ان الشاعر أحمد الصافي النجفي الرجل المثالي عاش حياة حافلة بالضياع والشقاء والبؤس ، يتفجر لوعة وشجناً وأسى ، وليست قصائده سوى انعكاس حيرته وقلقه وتذمره ، صوّر فيها ما تأثر بـه من وقائع وأحداث ، وما أوحت اليه الحياة من أفكار وقيم ، وبما استقر فى أعماقه

من عواطف الالم والتمرد والحنين •• !

وقصائده في هذا المضمار تمثل تجربة الضياع ، وتمتاز بقوة العاطفة وصدقها ، أبرز فيها عمق أحاسيسه ، وشدة انفعالاته ، ووصف آلامه أروع وصف ، ورسم صوراً مجسمة عن قلقه الروحي ، واضطرابه النفسي ، وعبر عن آلام الانسانية المعذّبة ، اذ أن الروح التي تسيطر عليه هي روح الاحساس بما يعاني الفقراء من تعاسات ومسغبة وعوز ، وتصوير صراعات الانسان الضائع في بيداء الحياة ••• !

وقصيدته « كم من دخان » مستوحاة من واقع انساني حي لـه أبعاده ومشاكله الموضوعية ، وفيها يصور تصويراً مؤثراً المصير المفجع الذي يلقاه الفقراء الجياع على أيدي الاغنياء المتخمين من اعتداء وتعسف وجور ! اولئك الذين يقيمون في قصورهم الباذخة التي تطل على آلاف الاكواخ الحقيرة المصنوعة من الخوص والبردي وسعف النخيل ••

ولما كان الشعر الحق يجب أن يكون ترجماناً لحياتنا الواقعية ، ونفوسنا القلقة ، فان الطابع المميز لشعر أحمد الصافي النجفي هو طابع التعبير عن هموم النـاس ببساطة وعفوية ووضوح ، مع النفاذ الى أغـوار المجتمع من أجـل رفع مستوى شعرنا العربي المعاصر ، وجعـله متفاعـلا مع الشعب ، ومصوراً لآلامه وآمالـه ، لان الانسان أغـلى رأسـمال في الحياة ، فينبغي التصدي لحل مشاكله العامة ، والدفاع عن حقوقه السلبية مهما كان الثمن غالياً •• !

وهذه المقطوعة بالرغم من قلة عدد أبياتها تعتبـر بحق أثراً فنيـاً مبدعاً ••• فالنتاج الادبي الجيد الخالد ليس بالكم وانما بالكيف ، فهي حصيلة فكرٍ نير ، وتجارب شعورية مريرة ، واحساس مرهف بما يعج به المجتمع من بطالةٍ ومآسٍ وادقاع ، وما آلت اليه الاوضاع من انحلال وتسيب وتردٍ •••!

ان تعاظم عدد الفقراء ، لم يكن مرده حكم الله تعالى ، وانما هو ظلم الاغنياء المتعسفين الذين ابتزوا الاموال ، واحتكروا الثروات ، وجعلوا من البلاد كأنها مزرعة لهم ، يتصرفون بها كما يشاؤون ، وينظرون الى أبناء الطبقات الشعبية كأنهم عبيد وخدم لهم ، يستغلونهم أبشع استغلال ، يسوقونهم الى العمل كالسائمة ، فكم من غني عاش على جوع فقير ، وكم من قصور اقيم صرحها على أشلاء كوخ حقير ، ولرب بيت فخم يشاد على الجماجم ، ونهر يجري بالدموع ، وثمرٍ يجنيه غير غارسه ، وغارس لم يقطف ثمار أتعابه .. !

أجل أيها الاغنياء المستبدون ، لا تسخروا من زفرات البؤساء المحرقة ، وآهاتهم المتصاعدة من أعماق صدورهم المحطمة ، فكم من دخانٍ منذر بالنار ، نار الثورة العارمة التي تسحق كل من يقف في طريقها من المحتكرين الطغاة ، ومصاصي دماء العمال والفلاحين أبناء الطبقة الكادحة والمسحوقة ... فقد انطلقت شرارة الثورة يصاحبها مد شعبي متعاطف معها ، وسوف لن يخمد أوارها حتى تحقق آمالها التقدمية..

وفي تعبير قوي عن شعور الاستنكار والسخط يقول :

قد كثّر الفقراء ظلم ذوي الغنى ... لم يكثر الفقراء حكم الباري
كم عاش قوم من طوى قوم وكم ... عمرت ديار من خراب ديار
فلرب قصرٍ بالجماجم مبتنى ... ولرب نهرٍ بالمدامع جار
كم مجتنٍ ثمراً ولم يغرس وكم ... من غارسٍ لم يجن من أثمار
عجز الفقير عن استعادة حقه ... فأحال ذنب الفقر للاقدار
أغني ! لا تسخر بزفرة بائس ... كم من دخان منذرٍ بالنار

وهو كثير الاهتمام بأمر الناس ، ولا من أحد يهتم بأمره ، واذا عم الهناء أفراد المجتمع ، فلم يكن شريكاً لهم ، اما اذا أصابهم الغم ، فهو

يغرق معهم في عباب الغموم لذا فانه يتمنى أن تصفو الحياة لهم ، ويرغد عيشهم كي لا تضاعف همومهم همه الذي يلقي عليه ظلاً كثيفاً من الأوصاب والارزاء ، انه يتحسس قيمة حياته الانسانية فعبّر عن تجارب معاشة تنبع من صميم ذاته ، فيقول :

أراني بأمر الناس اهتم كلهم ولست أرى فرداً بأمري يهتم
فلست شريك الناس ان عمهم هنا ولكن شريك الناس ان عمهم غم
فدعهم يعيشوا في هنـاء فانما همومهم منها يضاعف لي الهم

وفي قصيدته « اللذة الخالدة » اجدني ازاء عمل فني ضخم ، فهي من روائع القصيد ، تسمو الى عوالم مجنحة شامخة الذرى ، وترتفع الى مستوى انساني رفيع ، في أهدافها ومراميها وعمقها ، وتشهد له بفن تصويري خلاب ، اذ فيها من بدائع التصوير ما يرفعها الى مراتب عالية من الفن العربي الاصيل ، تكشف عن أسرار عبقريته ، وتفصح عن قدرته على الابتكار والتوليد ، وعلو كعبه في مضمار الشعر الانساني ، وقد أبدع كل الابداع فكرةً واسلوباً وتعبيراً ، وتحري دقة المعنى واستيفائه ، وحرص على ايراد كل الملامح الدقيقة ، وانفعل انفعالاً صادقاً بقسوة الواقع ومرارته ، فاُعتبرت بحق ذروة انتاجه الادبي ، ونمّت عن قدراته الخارقة في ابتكار المعاني ، وابداع الصور ، وغناه بذكائه اللماح ، وفنه الاخاذ ، وهيمنته على موضوعه في استخدام ألفاظ وصور من الحياة الواقعية الراهنة ، ونبذ المفردات والتعابير المحنطة ..!

ان الشاعر مهما كتف الدهر يديه ، وطوى البؤس كتاب أنسه ، فقد مارس جميع لذات الصبا العارمة التي لم تلبث ان ماتت كلها ، وظلت ذكراها عالقةً بالقلب ... بيد ان هنك لذة واحدة ستبقى خالدة مدى حياته ، تتجلى دائماً في ناظريه ، تنعش أحشاءه كلما رام الأسى أن يشوبها بناره المستعرة .

ففي ذات ليلة ، وكان عائداً من نزهةٍ أرقصت الهناء في بردتيه ، ولم يكد يدنو من بلدته واذا بأنين يستفز اذنيه اذ كان يتصاعد من أعماق هرة تلمع مقلتاها وسط الدجى المكفهر ، وتعلن شكواها له ، وحاول انهاضها ، ولكنها هوت وطفقت تلثم رجليه ويديه ، فقد كسر اولئك الجناة المجرمون ركبتها بحجرٍ ، ورموها خارج البلدة من غير طعام وماء ، فأحس بلوعةٍ تتلظى في قلبه ، وانتابه شعور هز وجدانه ، وهو يطيل الصمت والتفكير ، وقد عانى ظروفها وآلامها وتحسس بها ، ولمس قسوة المجتمع عليها ، فحملها بين ذراعيه ، واخذت تعلو كتفيه كطفلٍ تشع عيناها بأنوار البراءة والطهر ، وعلى وجهها امارات الجوع الصارخ ، وأسرع بها للدار ، وأحضر لها كل ما كان لديه من الأكل ، وظلت تعيش في كنفه الوارف ، يغمرها بالحنان والدفء والحب حتى برئت من دائها ، وهو ينظر اليها نظرة الاب العطوف الى بنته الصغيرة الوادعة .. !

واعترت الشاعر من عمله هذا لذة سكر لها وجدانه ، فهي أحلى مذاقاً ، وأشد تأثيراً في النفس من سكرة الصهباء الزائلة ... !

انها لصورة رائعة ومؤثرة ، وعمل فني كامل ، على نحو يهز المشاعر ، فالصافي ذو بصيرة نافذة يرى ما لا يراه الكثير من الشعراء وان هذه القصيدة أروع صورة يمكن أن ترسمها ريشة فنان مبدع ، وأوضح دليل على براعة الشاعر وعبقريته ، وقد عبر بها عن الاحاسيس والمشاعر التي جاشت بها نفسه ، وصوّر الافكار والعواطف النبيلة التي انبجست من أعماقه ، وأعلن ثورته العارمة في وجه الظلم البشري ، ودعا الى الاخذ بأسباب التعاطف والرحمة والمحبة ... ! فقال

انا مهما كنف الدهر يدي — وطوى بؤسي كتاب الانس طي
لم أدع من بين لذات الصبا — لذة تعتب بالترك علي
وأرى اللذات ماتت كلها — قبل لكن ذكرها في القلب حي

ليتها ماتت ولم تبق لها — نار ذكرى في الحشا تكويه كي
وكأني حين أبغي عودها — مستعيد اذ أتتني الشمس في
وأرى لي لذة خالدة — تتجلى دائماً في ناظري
لذة تنعش أحشائي اذا — رام أن يشوي الاسى أحشاه شي
جئت ليلا عائداً من نزهة — والهنا يرقصني في بردتي
لم أكد من بلدتي أدنو وقد — لاح لي من بلدتي أول حي
واذا جبانة تبدو واذ — بأنين مستفز أذني
يتعالى في الدجى من هرة — خلتها تبكي فأبكت مقلتي
لمعت وسط الدجى مقلتها — ورنت تعلن بالشكوى الي
رمت أن انهضها لكن هوت — وغدت تلثم رجلي ويدي
واذا من حجر قد كسرت — ركبة منها فهدت ركبتي
فرموها خارج البلدة من — غير أكل تغتذي منه وري
فلذا أسرعت للدار بها — وهي تعلو مثل طفلي كتفي
ثم أحضرت اليها مسرعاً — كل ما كان من الأكل لدي
برئت في كنفي من دائها — ثم عاشت مثل اخت لابنتي
فأعترتني لذة من عملي — سكر القلب بها في جانبي
ان في الصهباء سكراً وأرى — سكرة الوجدان أحلى سكرتي
ان هذي لذة خالدة — لم تزل تزداد لي شيئاً فشي

ومن غير ريب ان الشعراء أكثر الناس انفعالا ، وأقوى تأثراً بتيارات الحياة ... والاستاذ الصافي رسم كثيراً من اللوحات الاجتماعية الخالدة ، وجاء شعره رائعاً لوفرة حظه من الصدق العاطفي ، وسهولة التعبير الفني ، وانطلاقة من واقع فكري انساني شامل ، فهو بركان ثائر من الاحاسيس والعواطف والمشاعر ...!

وبينما كان الشاعر مصطافاً في أحد المصائف السورية ، وقد أوى الى

فراشه فى وقت القيلولة ، اذا به يستيقظ فجأة على زقزقة عصفور صغير دخل الغرفة وهو يسف على الارض ، وكانت امه تمرنه على الطيران قبل أن يكتمل نمو جناحيه ، فما كان من الشاعر الا أن آواه وأسعفه حتى قوي جناحاه فأطلق سراحه ..!

وفى قصيدة « شاعر وعصفور » تتجلى براعة أحمد الصافي النجفي فى الوصف التصويري ، ومعاناة التجربة الشعورية الاصيلة ، فقد أوحى الينا بأفكاره من خلال تصويره ، ورسم دقائق الانفعالات النفسية !

وفى هذه القصيدة بالذات من القوة والرجات العاطفية ما يجعل القارىء يهتز من التأثر ، فانها شعر ملتهب غني بالعواطف ، ينبع من القلب والفكر والوجدان ، فى وحدة متماسكة متدفقة ، تلقي أضواء ساطعة على شخصية الشاعر وملامحه الانسانية والنفسية ! فيقول

اهـلا بعصفـور صغيرٍ لاجيء	قذفت الي بـه يـد الاقـدار
مـاذا أتى بك يا صغير لغرفتي	أحسبتني طيراً من الاطيـار
هل امك البلهـاء للطـيران قد	ـاقتك لكن قبـل حين مطار
كـم ذا ترف لكي تطير مسارعاً	والهـر منتظـر بأرض الـدار
فأشـكر الهك أن هـداك لساحتي	فكفك عطف الـوالدين جواري
وحللت مـن كنفـي بعش آمـن	اسمى وأمنع من ذرى الاشجار
ارفقت لي فأتيت تؤنس وحـدتي	ومتى صدحت اجبـك بالاشعار
لك من خيالي ، اذ تطير ، مرافق	يا ألطف الخـلان والـزوار
حسبي وحسبك جو شـعرٍ آمن	فالجـو ممتلىء من الاخطـار
عجباً كـلانا طار قبل أوانـه	ونأى الطموح بنـا عن الاوكـار
فبـدأت بالاسـفار مثلي يافعـاً	وأنا بلغت نهـاية الاسـفار
فوقـاني الله الوحـوش اناسـياً	ويقيـك ربك كـل طيرٍ ضـار
مرن جنـاحك فى فنائي طـائراً	ثم انطلـق لتطـير دون عثـار

لا تخش من أسري ففيه لك البقا   ما ان تـرى حريـة كاســاري

وفي قصيدته « ذكرى سمكة » قيم مثالية ترقى الى صعيد انساني رفيع ، انبثقت عن ذات الشاعر ، ومثلت جانباً حياً من جوانب روحه الشـاعرة الصافية ، وفيها فيض زاخر من الصور الشعرية المشبعة بالنظرة الانسانية العميقة ، والمزايا الفنية البارعة فى التعبير والتصوير ، وابراز المضمون فى اطار جيد ، فقد جلس الشاعر على ضفاف العاصي ، وقلبه طائر يحاول أن يتخذ له وكراً على الماء ، ورأى النجوم الزواهر تسبح فى النهر ، وترقص فوق الامواج ، وهي تطفح بالطلاقة والبشر ، وشاهد الاسماك تنأى وتقترب لتلثم ثغر الشاطيء الاخضر ، وشعر وهو الشاعر الحساس بأنها جائعـة تبحث لها عن طعام ، فراح يلقي لها بالفتات من الخبز ، ولكنها فرت مذعورة من رجفة الماء ، وهي تنظر شزراً ••• ويأتي الصياد بالشص الذى فيه يكمن الموت ، وقد وضع فوقه اللحم ليخفي معالم جريمته النكراء ، فتوافدت عليه الاسماك تحسب ان رزقاً وفيراً قد هيأه لها القدر وكانت سكرى من شدة الجوع ، ولم تكد تنهش احدى الاسماك اللحم حتى شك الشص نحرها ، فأستبد بها الاضطراب ، ورامت الفرار ، غير ان الصياد جرها الى الارض ، وطفق لسانها المخضب بالدماء يشكو غدر الناس وبطشهم ، ثم اسلمت الروح الى بارئها ، وهي تلهث حرى ، وشتان بين الشاعر الذي اطعمها لتحيا ، وبين هؤلاء القوم القساة الذين قدموا لها الاكل لتجرع كأس الموت الطافحة بالمرارة •

وعلى هذا الطراز الرفيع سار فى هذه القصيدة العصماء ، تتملكـه عواطف ثائرة ، وتختلج نفسه الانسانية بالمشاعر الملتهبة ، وعرض هـذه المأساة من خلال صور فنية متكاملة نابعة من طبيعة أصيلة لا تصنع فيها ، ذات حظ وافر من الاثارة والانفعال والقوة ، وفيها تجسيد لاحتدام الصراع ازاء الحياة الرهيبة القاسية •••! فيقول

في ضفاف العاصي جلست وقلبي ... طائر يبتغي على الماء وكرا
كلما هبت الرياح عليه ... خلت فيه الشباك تنشر نشرا
ورأيت النجوم تسبح فيه ... وهي فوق الامواج ترقص بشرا
ليس تخشى في ناعم الموج أن تزلق ... اما هوت ولم تخش كسرا
ورأيت الاسماك تنأى وتدنو ... لاثمات من شاطيء النهر ثغرا
وبدت لي كأنها جائعات ... قلت فلأكتسب من البر اجرا
ثم القيت بالفتات من الخبز ... ففرت من رجفة الماء ذعرى
ثم عادت للفحص تسرع بالسبح ... وترنو بالعين للخبز شزرا
واتاها الصياد بالشص يحكي ... ذنب العقرب اختفى ليغرا
كمن الموت فيه ثم تخفى ... جاعلا فوقه من اللحم سترا
فأتته الاسماك تحسبه رزقاً ... وكانت من شدة الجوع سكرى
لم تكد منه تنهش اللحم حتى ... شك منها الشص المعقف نحرا
فغدت في المياه تولي اضطراباً ... وتروم الفرار والخيط جرا
سقطت في الصعيد يشكو لسان الدم ... في حلقها من الناس غدرا
كم مضت في المياه ترقص بشراً ... فغدت في الصعيد ترقص قسرا
تبتغي السبح في الصعيد فلا تستطيع ... سبحاً وليس تستطيع سيرا
أصبحت مثل معقد وسط نار ... يتلوى اذ لم يطق أن يفرا
تلهم الريح عن ظما بدل الماء ... لتروى والقلب يزداد جمرا
تعبت فأرتمت واسلمت الروح ... بجنب المياه تلهث حسرى
انا أطعمتها لتحيا وقومي ... أطعموها لتجرع الموت مرا
ثم لم يكفهم نفاق وغدر ... فرأوا رحمتي جنوناً مضرا
ان يك الرفق بالضعيف جنوناً ... فأنا أعظم المجانين طرا

وفي قصيدته « الشاعر والقط » ألوان من فيض النفس الانسانية ، واشراقات الذهن المتفتح ، تلمح سيماء الشاعر وشخصيته تظهران بوضوح

من خلال شعره النابض بالارهاف والحيوية والصدق ، والزاخر بالمحبّة التي تتسع لكل الوجود ، فلشاعر يقول : انني لم أرد ضيفاً نزل علي سواء كا نمن الحيوان أو الانس أو الجن ، ولم أخرج من بيتي الديدان ، ولا أدفع البق عني ، وادع القط يفترش حضني آمناً مطمئناً ، وتأخذني نشوة الفرح والرضا كلما لجأ الي من مطاردة الانام وفظاظتهم ، ويدخل تحت عباءتي كأنها ملك له ، ويحك بذقنه كفي ارتياحاً ، ويقفز لاعباً فوق متني ، ويعض أناملي بلطفٍ ، ويخدشها بغير حقدٍ ، ويلاقي الناس في توجس ونفور ، فهو شاعر القطط التقى بي ، فألف بيننا الطبع الاصيل ، فله روح كروحي وشعور كشعوري ، فيجلس أحياناً رافعاً رأسه مستغرقاً في التفكير كفنان ذي عقل راجح ، أو كعاشق هائم فتنته لحاظ هرة كحلاء الجفن ، وحينما يلمحني من بعيدٍ يقفز الي راقصاً ، ويغني لي بمواء جميل ، فقد فضلته على نفسي ، وصرت اقدم اليه طعامي ، وكلما قرص بعض الناس اذنه جاء الي شاكياً هذا الاذى ، وصاح متذمراً ساخطاً .

ـــ انظر لجنسك من بني آدم كيف يسعون دوماً الى ايلامي ، فأجيبه قائـلا :

ـــ لقد عانيت منهم الكثير من الاضطهاد والتعذيب دون أن أرتكب جرماً ، ولذا اتخذتك صديقاً حميماً لم أخنه ولم يخني ، وأود لو تكون ابناً لي لا افارقه مدى الأيام ، فأسبغ عليه فيضاً من مشاعر الحنان ، وعطف الابوة الذي لا ينضب له معين ...!

ان هذا القط الوفي قد ولد في الشاعر هذه الاحاسيس الانسانية التي يتجاوب صداها في جنبات النفوس ، وأذكى قريحته ، وأرهف احساسه فأنتج هذا الاثر الشعري المشحون بالتعبير الحسي ، والتصوير الموحي ، وطواعية الاداء ، فيقول :

ولست ارد ضيفاً قـــد اتاني　　　مـــن الحيوان أو انس وجن

ولست بمخرج ديدان بيتي   واخجل حين دفع البق عني
وكم عانيت من خجل لقط   بحضني قد أقام كأنه ابني
يراه الناس حيناً لا صقاً بي   وحيناً لاحساً كفي وذقني
وكنت مكابدا خجلا لطردي   قطيطاً قط لم يذنب ويجنِ
حياي من القطيط حياء نبل   وليس حياي منهم غير جبن
ففاق حياي منه على حياهم   لذاك ضممته لي ضم خدن
يطارده الانام بدون ذنب   فيلجأ هارباً منهم لحضني
كأن لم يلق غيري من مجيرٍ   له في حالتي خوفٍ وحزن
يخال عباءتي ملكا لديه   فيدخل تحتها من غير اذن
وكم قد خال غاراً ردن ثوبي   فأقبل واختفى ما بين ردني
يموء فليس يفهمني مراداً   فينصب عينه بازاء عيني
يحك بذقنه كفي ارتياحاً   ويقفز لاعباً من فوق متني
يعض اناملي عضاً لطيفاً   ويخدشها دعابا دون ضغن
يلاقي الناس مضطرباً نفوراً   ويلقاني بقلب مطمئن
فهل هو شاعر القطط التقى بي   فألف بينه طبع وبيني
يرى قلمي على القرطاس يجري   فيمسكه ترى ما كان يعني
ايبغي ان ينافسني بشعري   ونظرته عن الاشعار تغني
وينظر في سطور السفر حيناً   وبالاظفار معنى السطر يجني
له روح كروحي فهو كهل   ويلعب هائشاً كصغير سن
ويجلس رافعاً للرأس حيناً   يفكر مثل ذي عقل وفن
بماذا كان مفتكراً تراه   بفارٍ أم بلحمٍ أم بجبن
وهل هو عاشق فتنبه يوماً   لحاظ هريرة كحلاء جفن
يحرك ذيله اما يراني   ويقفز قفزة الظبي الاغن
فيبقى راقصاً بالقفز بشراً   لدي وفي مواه لي يغني

وان دغدغت منه الصدر اخفى مخالبـــه وفر ولم يسؤنـــــي
يصيح متى اكلت لديه وحدي ويقـرع ساخطـاً سناً بسـن
فوا عجبي ينـــــازعني بأكلي أكان احق في خبزي وسـمني
لقــد عودته الاطعام جــوداً فأصبح في غذاي أحق منــي
ويقرص اذنــــه بعض فيرنو إلـي ويشتكي ذاك التجنــي
يصيح انظر لجنسك كيف يبغي ويقرص لى، ولم اقرصه، اذني
فأدعو ليس هذا الجنس جنسي ومـا بي خلة للناس تدنــي
وكم عانيت منهم دون جـرم اذا يا افسدت فى الكل ظنـي
لذاك قد اتخذتك دون صحبي صديقاً لم اخنــه ولم يخنـي
وكنت اود لــو تبقى جليسي مدى الايام لو صح التمنــي
وكنت اود لو تغدو لي ابنـاً أورثه اذا صـــح التبنـــي

ومن هذه الروافد الخيرة تنهل قصيدة «الشاعر والفار» التي تكشف لنا عن مضمون ابتداعي ، فيـه معنى بارع ، وتصوير رائع ، حيث يرود الشاعر عوالم شعرية مترامية الاطـراف ، تدل على عمق احساسه الفني ، وصدق اختلاجاته النفسية ، ودقة ايماءاته البعيدة المدى ..!.

وهكذا صرنا نجد ظاهرة فريدة في شعرنا العربي المعاصر ، هي ظاهرة التعاطف مع الحيوانات الاليفة والضعيفة ، والذب عنها ضد الارهاب الوحشي الذي تمارسه بعض الفئات التى طبعت نفوسها عـلى الشماتة والقسوة واللؤم ... وتفننت فى استخدام اساليبها الرهيبة فى الاجهاز على الضعفاء ...

ان هذه الظاهرة قد اجاد فى التعبير عنهـا الاستاذ الصافي وسار في هذا المضمار اشواطاً بعيدة ، وتحرر من قيود الاغراض الشعرية التقليدية، لينطلق في آفاق جديدة .. !

ان هذه الفأرة قد اثارت مشاعره ، والهبت احاسيسه ، اذ كلما هم ان ينام راحت تقرض ثيابه فتقلقه ، وحينما يستيقظ ، تلوذ بأذيال السكينة فتحرمه من نعمة الرقاد ، فنهد ركنه ، وتعرضت صحته للانهيار ، وقد غرها حلمه الطويل ، وصبره الجميل ، وطالما ناشدها ان تكف عن اذاه ليلاً ، ولتقرض وتأكل نهاراً ، فهو في النهار أخو عناء وجهدٍ وسقم ، واذا ما هبط الظلام على الكون ركن الى النوم لينسى همومه وآلامه وامراضه الكثيرة التي انهكت قواه ، فأصبح شيخاً هزيلاً يئن تحت وطأة العذاب الشديد •

وضاق الشاعر ذرعاً بالفأرة ، ونفد صبره ، فأحضر لها مصيدة ووضع فيها الخبز المغموس بالدهن ، ولما اقتربت منها وقعت فى قبضة الاسلاك ، وصارت تبعث انيناً مريراً ، وأخذت تشكو للشاعر مصيرها المؤلم ، وتطلب منه العون ، ولكنه قام اليها ليشفي منها غليله ، فتفاقم انينها ، ورفعت اليه طرفاً كسيراً تستعطفه ، وتعاهده على التوبة وعدم التعرض له ، ولم يلبث ان تغلبت عليه طيبته المتناهية ، وتحركت فى نفسه عو امل الاشفاق والرحمة والحنو ، تلك العوامل الخيرة التي تكونت منها شخصيته الفذة ، فأطلق سراحها ، وشملها بالغفران والصفح والعفو ••!

ولكن بعض ذوي النفوس المريضة قابلوا هذا العمل الانساني الرائع من لدن الشاعر في سخرية لاذعة ، واثارو بركان نقمتهم عليه ، بيد انه لم يعبأ بسخطهم وانتقادهم الطائش ما دامت الفأرة قد رضيت عنه ••!

على هذا النحو من البساطة فى التعبير ، والاصالة فى التصوير ، قد خلق لنا صوراً معبرة عن حالاته النفسية ! فبلغت القصيدة ذروتها فى الابداع ، وتركت فى النفس الأثر العميق ••• حيث اطلق فيها العنان لشاعريته ، فكان كثير من البراعة والاجادة يكمن فىهذا الغرض الشعري البكر ، اذ قال :

وربة فأرة بالقرض ليـــلاً متى ما رمت نومـــاً اقلقتني
اذا شـعرت بيقظتي استكنت وان شـعرت بنومي ايقظتني
فتحرمني الرقاد مدى الليالى وحرمان الرقاد يهد ركني
لعمري غرها حلمي وصبري لها حتى غوت واستضعفتني
كأن لم تلق عندي عزم قط فلو اصبحت قطـــاً ما اتتني
اذا جاء النهـــار تعف عني واما جن ليلـــي أرقتني
فهل هي فى النهار تطوف مثلي وتأوي فى الظلام معي لوكني
وهل هي فى النهار تنام رغداً وتسهر فى الدجى بالقرب مني
أقول لها اقرضي وكلي نهاراً وفى الليل اتركيني واسكتني
فأني فى النهار اخو عنـاء وأطـرح العنـا ليـلاً بكني
أنـام واسـتريح بـه لانسى همـوماً فى نهاري اجهدتني
فيشفي النوم أمراضاً ثقالاً بجسمي انهكتـــه وانهكتني
دعيني استريح فى الليل وارثي لما بالجسم من ضعف ووهن
فمهما رمت أن ترثي لحالي ألحت فى أذاي ولم تدعني
ولما لم أطق صبراً عليهـا ولو كنت اصطبرت لجننتني
أتيت لهـا بمصيدة وفيهـا وضعت الخبز مغموساً بدهن
ومرت بضع سـاعات فرنت بها الاسلاك كالسهم المـرن
سـمعت أنـين فأر أمسكته وكن يصيح من خنق وسجن
فكانت فارتي الحمقاء تشكو وتدعو الويـل طالبـة لعون
فقمت لها لكي اشفي غليلي وأرهقها كما قـد أرهقتني
فـزاد أنينهـا لمـــا رأتـني وبالطرف الكسير استعطفتني
دعتني فى لسان الحال أني أتوب اليك فأتركني وشأني
لذا أطلقتها وعفـوت عنهـا ومـا اتبعت احساني بمن
وظل الصحب ينتقدون صنعي وكـل واثق بفسـاد ذهني

فلم أعبأ بسخط جميع صحبي	وقد أرضيت ذاك الفأر عني

وعكس الشاعر واقع حياته المؤلم على مرآة الحقيقة ، حيث تجاذبته عوامل القلق ، وتقاذفته قساوة الايام ، فملأت نفسه حزناً ، وجعلته هدفاً للمعاناة والآلام والاوصاب ... ان الهم شق طريقه الى روحه ، وأضحى معزى بقلبه الملتاع ، فلا يفارقه في اليقظة والمنام ، ولا يجلوه رنين العود ، ولا كؤوس المدام ، واذا ما طار في الجو فأنه يلحق به ، واذا حط على الارض انتصب أمامه ، فكأنه صديق حميم له ، وهو صادق الهوى والغرام ، فيقول في « الهم الوفي » .

لي هـم أضحى بقلبي مغـرى	لم يدعني في يقظتي ومنـــامي
ليس يجلـــوه لا رنين المثاني	عن فؤادي ولا كؤوس المـدام
فاذا طرت طار في الجو خلفي	واذا ما حططت حـط أمـامي
فـكأني لـه صـديق حميـم	وهو لي صادق الهوى والغرام

وأبياته التالية بالغة الروعة في الابانة عن انسانيته ، وجنوحه عن حب الذات والانانية والاثرة ، فهو يفيض قساوة على نفسه ، بينما يدفق قلبه حناناً وحباً وعطفاً على غيره من الناس ، ويذرف الدموع الغزار ، اذا ما ناب سواه خطب فادح ، ورزء جامح ... ! ..

ولطالما يرثي الانام لحالته التعيسة حينما يرون بؤسه ، ولكنه هـو يبتسم لما آل اليه وضعه من املاق وفاقة وكمد ، فآلام روحه ليست كآلام الناس ، فهم يأسفون اذا أبصروا فتقاً في ثوبه ، فيجيل فيهم ناظره متهكماً ساخراً ، اذ ماذا تهمه فتوق ثوبه ، ما دام عرضه سيظل سالماً لن يثلم ، وان روحه النقية ، لا شأن لها بالجسم والرداء فهي غريبة عنهما ..!...

وقد أوفى الشاعر على الغاية في التعبير عن الروح الانسانية ، والاعراب عن فلسفته في الحياة ، وما تعتريه من انفعالات ومشاعر عند ارتياده لمجاهل

النفس البشرية ، ومعالجة الامراض الاجتماعية الخطيرة التي تتوغل فى صميم المجتمع ، وتحد من امكانياته الخلاقة ، وفى طليعة هذه الامراض البالغة الضرر هي عبادة المظهر ، وعدم النفاذ الى الجوهر ، فكان رد الفعل فى نفسه عميقاً ، فقال :

قلبي عـلى نفسي يفيض قساوة ... وعلى بني الدنيا يفيض ترحمـا
ابكي عـلى غـيري اذا ما نابه ... خطب فيجري الدمع منهلاً دما
يرثي الأنام لحالتي اما رأوا ... بؤسي وانظـر حالتي متبسـما
آلام روحي غـير آلام الـورى ... ولكم فرحت بما رأوه مؤلما
ان يبصروا فتقاً بثوبي يأسـفوا ... فأجيل فيهـم ناظري متهكمـا
ماذا تهمني الفتـوق بمئـزري ... سـيظل عرضي سـالماً لن يثلما
ما شأن جسمي والرداء فأنني ... مهما بي اتصلا ، غريب عنهـا

وفى « لماذا الحسد » عواطف شاعر حساس ، وروح انسانية خليقة بكل تقدير ، حيث يسعى الصافي الى تركيز فكرة مثالية ، هي نبـذ الحسد ، فهو يحب السمو لكل الانام ، ويعشق كل طامـح للسؤدد ، ويعجب من حسد الناس له ، لانه لم يسبق له أن حسد أحداً من البشر ، ويحسب نفسه أباً للبرايا ، فيهنأ بعيشهم الأرغد ، ويشقى لحالهم الأنكد ، ويتساءل فى لهفة ظامئة ، أيحسد الأب أبناءه اذا رآهم يرفلون فى حلل السعادة والرفاه والنعيم ؟ وهو لم يذق طعم الرخاء !

ان هذه الابيات تموج بشتى الاحاسيس والافكار التي تحمل الطابع الانساني ، وفيها تصوير دقيق لنفسية الشاعر وواقعه الحياتي ...
وفى اخلاص ووفاء وصدق يقول :

أحب السـمو لـكل الانام ... وأعشق كل اخي سـؤدد
وأعجب من حسد الناس لي ... لأني بعمـري لم احسـد
وأحسبني للبـريا أبـاً ... فأهنـا بعيشـهم الارغـد

وأشقى بعيشهم الأنكد　　وأرفع ساقطهم باليد
وهل يحسد الأب أبناءه　　اذا سعدوا وهو لم يسعد

وفى « الشباب الآفل » شعور ملتهب بما يخالج نفس الشاعر المتوترة من يأس وقنوط وتجهم ، وهي ترى نضرة صباها الغض يذوي ، وفى غصنها اللدن تمشي رعشة الذبول على الرغم منها !

انه الف الحزن وهو صديق قديم له ، فلا يخشى فقد السرور ، انما يخشى فقد الحزن الذي عاش فى مهجته ، وعاشر فنه ، ووجد فيه مصدراً مهماً من مصادر الالهام ، واما السرور فقد مر منه مرور الطيف العابر •

وهذه الابيات وليدة عاطفة قوية ، وشعور جياش ، واحساس زاخر ، فيقول :

ذهبت نضرة الصبا الغض مني　　ومشت رعشة الذبول بغصني
كلما مر من شبابي بعض　　خلت بعضي مضى على الرغم مني
لست أخشى فقد السرور اذ شبـ　　ـت ولكن أخشى غداً فقد حزني
انما الحزن لي صديق قديم　　عاش فى مهجتي وعاشر فني
ولقد مر بي السرور كطيف　　ضافني ليلة وسافر عني

ان هذا الألم الذى عاناه الشاعر طويلاً قد أثار قريحته الثرة ، وجعله فى غمرة من العواطف الملتهبة ، فنظم قصائد تفيض بالقلق والحيرة والنقمة على الحياة ، وكأن ينبوعاً قد انفجر فى صدره ، متدفقاً بانفعالاته النفسية وتجاربه الذاتية •••!•••

إن الذين اعتادوا أن يحكموا عواطفهم الشخصية فى الامور ، من اولئك المترفين راحوا يوجهون للشاعر اللوم على الشكوى المريرة التي يبعثها من حين لآخر ، دون أن يلموا بجوانب حياته بعض الالمام ، ولو أنهم أحسوا مثله بالآلام لكفوا عن لومهم ، وهل يلام فتى يشتغل بالنار ، ويشعر

بلذعة الضرم ، أو يعذل بركان يرمي الحمم ، وما الشكاوى سوى حمم تنقذف من الاعماق ..!

انه يدعو على هؤلاء اللائمين أن يذوقوا آلامه المبرحة ، ولكن الاشفاق يطغى على نفسه فيلوذ بالندم ، ليبقى وحده يجرع كؤوس الآلام ، اذ لا يتحمل أن يرى أحدا من الناس يشكو الاحزان !

ان عمره طال ليزداد شقاء ، لأن الشقي طويل العمر ، والله تعالى لم يرزقه فى الحياة سوى حسٍ مرهف يعيش فى كونٍ محتدم الاتراح ، مزدحم الارزاء ، وما شعره غير مرآة صافية انعكست عليها صور هذا الكون المتشح برداء الاشجان والظلام والسأم ...!..

وهو يصوّر ما يعتلج فى صدره من انفعالات ، ويفصح عن حقيقة ما يختلج فى داخله من صراعات ، وترسم ريشته صوراً صادقة من الحياة ، اذ ليس الكذب من شيمه ، فيقول :

ومترف لامني لما شكوت ولو ... أحس مثلي بالآلام لم يلم
وهل يلام فتى بالنار مشتعل ... ان صاح مشتكياً من لذعة الضرم
وهل تلومون بركاناً رمى حمماً ... وما الشكاوى لذي هم سوى حمم
أدعو بدائي على العذّال كي يجدوا ... عذري فيدفعني الاشفاق للندم
فلأبق أجرع آلامي وعذلهم ... ولا أرى الناس مثلي تشتكي ألمي
ما طال عمري الا كي أزيد شقا ... ان الشقي طويل العمر والسأم
لم يعطنى الله رزقاً فى الحياة سوى ... حس يكون من الاحزان محتدم
وما أنا غير مرآةٍ صفت فأرت ... الى الورى صوراً مخضوبة بدم
والمرء ان يبد بشراً وهو منغمس ... فى الهم يكذب وليس الكذب من شيمي

وظل الحاسدون يثيرون عاصفة من النقد المغرض حول شعره ، ذلك الشعر الذى يتجاوب صداه فى النفوس ، والذى يستثير هلع الاذناب

وحقدهم الاسود محاولة منهم لاستفزاز الشاعر والنيل منه ، لانه قوي الارتباط بالمجتمع ، يستجيب لمشاكل الحياة فى مختلف أبعادها ..!...

وعلى الرغم من مناهضة اللئام له ، فانه يزداد مضاء وعزيمة ، وان الاحاسيس التى تنبثق فى قلبه تدفعه الى الانفلات من قيود الانكماش والجمود ، واعلان الحرب الشعواء على كل من تسول له نفسه صد تيار الافكار المتحررة فيقول :

يحاربني بزاويتي لئام ... من الحساد أقلقهم مقامي
وليس هجومهم الا دفاعاً ... لصد النور عن دنيا الظلام
يحاربهم فيصرعهم سكوتي ... اذا ما أعلنوا حرب الكلام
أنا فى عزلتي لم أدر كم قد ... أصبتهم بقتل وانهزام
ولست مفكراً بهمو ولكن ... أرى أفكارهم بي في زحام
تركت الحاسدين وليس مجدي ... بتاركهم سوى جثث رمام
أنا فى يقظة بالنور ملأى ... وما سعى العداة سوى منام

وفى قصيدته « النور والظلمة » يتصدى الدهر لمحاربة الشاعر ، ويحاول أن يضع فى طريقه أشواك الخيبة ، ولكن الصافي اشتبك معه فى حرب دالية تركه يخر صريعاً مثخناً بالجراح ، ولم يعلم ان خيبة الشعراء هي سر علاهم ، وان خمولهم مفتاح لشهرتهم ، فكم من أديب دل عليه الخمول ، وشهير لم يجده الصياح نفعاً ، فيقول :

خسيء الدهر كم تصدى لحربي ... ثم ولى وفيه مني جراح
يبتغي الدهر أن أخيب ولكن ... خيبتي رغم أنف دهري نجاح
خيبة الشاعر سر علاهم ... وخمولي لشهرتي مفتاح
كم أديب دل الخمول عليه ... وشهير لم يجد فيه الصياح

وأهاجت صروف الحادثات زوبعة الحرب فى وجهه ، فصبغت شعره

ينجيع جروحه ، وهشمت جسمه ، ولكنها لم تنل من روحه الأبية قيد شعرة ، فقد بقيت شامخة أمام ثورة الشدائد والمحن ، فيقول :

لقد حاربتني الحادثات بصرفها ... ألم تر في شعري نجيع جروحي
وها قد رجعت اليوم من ساح حربها ... مهشم جسم لا مهشم روح

ان أفكاره غارقة فى لجة الهم ، ويبدو شارد اللب ، ولكنه لم يشرب المدام ، وأنامله توقّع لحناً ، فهل هي تلحّن الآلام ، الآلام التي من شأنها أن تضرم جذوة العاطفة ، وتزيد وقودها اشتعالا ، فيقول :

غرقت فكرتي بلجة هم ... شارد اللب ما شربت مداما
غائباً ، أنملي توقّع لحناً ... أتراها تلحّن الآلاما

ويمضي الشاعر فيعبر تعبيرا صادقا عن التجربة الذاتية ، ويصور العواطف التي يبعثها الألم ... لعمق شعوره بمرارة الحياة ، يتألم ألماً عنيفاً لما يراه ، فتتدفق فى أعماقه شلالات زاخرة بالاشجان ، فيصوغها شعرا صادرا عن نفس معذبة ....!...

ان كل يوم يمر على الشاعر يجدد له هموما ، فتمنع عنه الرقاد خلال الليل ، فلا هو يستشعر الراحة فى النهار ، ولا يهوى النوم حين هبوط الظلام ، ولا يستطيع أن يغالب الآلام التي يحسها ، وأشباح البؤس تطارده فى كل مكان وزمان ، فيقول :

يجد كل يوم لي هموماً ... فتمنع فى الدجى عني الرقادا
فلا أنا في النهار بمستريح ... ولا أنا فى الدجى أهوى الوسادا

وقد أصبح يستلذ الحزن ،كما تلتذ المسامع بالغناء الشجي ، وان للحزن سكرة كالخمرة ، لا يشعر بها سوى الفؤاد الذكي ، فهي تمنح القلب وحياً ، وتمده بالدفقات الشعرية السخية ، ويتساءل الشاعر قائلا : هل الحزن نبي للقلوب ؟ أجل انه نبي خالد يلهم ذوي الاحساس

الرهيف ، والموهبة الخلاقة ، والقريحة الفياضة ، القيم الجمالية الرفيعة ، والصور الفنية الرائعة ، ويلهب شعلة العبقرية الكامنة ، فيقول :

استلذ الحزن المذيب كما قد — لـذ للسامع الغناء الشجي
ان للحزن سكرة كالحميا — خص في نيلها الفؤاد الذكي
سكرة الحزن تمنح القلب وحياً — فهل الحزن للقلوب نبي

وفي قصيدة « لماذا أحب الخريف » يفصح الصافي لنا عن حزن مرير ، وعذاب عاصف ، وزفرات محرقة ، وحساسية عميقة ، مع طاقة تتفجر بالاثارة والايحاء وصدق التجارب لدى الشاعر الذي تمزقت نفسه تحت وطأة الاحزان ... فهو يحب الخريف لأنه مثله حزين يائس ، فأوراقه ذاوية ، وأغصانه يابسة ، وأطياره نادبة ، وجوه عابس ..

وعمره خريف كله ، لم يحالفه الحظ في كل مساعيه الرامية لتغير أحواله ، وتحقيق مطامحه !

أما الربيع ، الربيع الضاحك الجميل ، فلم تكن قسمته منه غير الجوى والوساوس ،فليس هناك من تجانس وتناسب بينهما ، فالربيع يزدهي انطلاقا وبشرا وفرحا ، وقلب الشاعر لا ترف عليه غير أجنحة البؤس والنكد والتشرد فيقول :

أهوى الخريف لأنه — مثلي حزين يائس
أوراقه مثلي ذوت — والغصن خاو يابس
والطير مثلي نادب — والجو مثلي عابس
عمري خريف كله — والحظ فيه معاكس
أما الربيع فقسمتي — منه جوى ووساوس
أنا ليس بيني والربيع — تناسب وتجانس
ان الربيع ليزدهي — فرحاً وقلبي بائس

لقد اكتسب الشاعر مفهوما عميقا للحياة ، فأصبح ذا رسوخ فى التجربة الشعرية الزاخرة بالتأمل الدقيق الواعي ، ونزّه شعره من أن يتمرّغ على أعتاب ذوي السلطان والسطوة والجاه ، وجعله محوراً للعاطفة الانسانية ! وتلك هي السمات الاساسية المكونة لشعره الذى بات شديد التأثير فى قلوب الجماهير التقدمية ، وله صدى يرن فى مسامع الدهر ، فقست الخطوب عليه ، وحاربته الاقدار ، وتحطمت أحلامه ، وخابت آماله ، وصار جيبه فارغا من المال ، فليس غريبا أن يرد ذلك الذى جاء طالبا النقود منه ، فهو لا يملك غير غنى النفس ، وهو ثروته التى لا تنفد ، وانه على أتم استعداد لان يقدمه للسائل أن قنع به ، حيث قال :

يا سائلي مالاً وجيبي فارغ	اذ غره عز علي وسؤدد
عندي غنى نفس فان تقنع به	فاليك مني ثروة لا تنفد

هذا الشاعر الذى تسامت نفسه الكبيرة عن مدح أى انسان ، مهما علت منزلته ، وتعاظمت سلطته ، واستطاع أن يرد للشعر كرامته وأهميته فى توجيه الجماهير الشعبية نحو الحياة المثلى ، وان يعيد له دوره الهام فى محاربة الطغيان والظلم والغطرسة ، ومكافحة الحكم الجائر المتعسف ، ورغم فقره وبؤسه وقلة ذات يده ، قال :

وأمير رام ان أمدحه	قلت احتاج لمن يمدحني
ان لي فوق معاليك علا	كنت لو تفهمها تفهمني

ولو شاء الشاعر أن يمدح أصحاب النوذ الواسع ، والجاه العريض، لما بات يشكو الافلاس والبؤس ، ولكنه أخلص فنه للحق ، فرافقه الاملاق والحرمان والعوز !

وفى لحظة من لحظات الالم ، هتف من أعماقه قائلا .. أأبكي على الحق أم على نفسي ؟ نفسي التي تجيش ألما ، وتستشعر الاحساس بالغبن

الفاحش الذي يلاحقها ، وفى اباء وشمم وصدق ، يقول :

لو كنت أمدح أقواماً ذوي رتب ما بت أشكو من الاقلال والبؤس
أخلصت للحق فناً فافتقرت فهـل أبكي على الحق أم أبكي على نفسي

والشاعر يعيش مأساته ، ويعي قلقه ، وهو فى لجج الحياة الصاخبة ، لم يجد غير العذاب والعناء والالم ، واصطدمت مثالياته بواقع الحيـــاة ، فأصبحت أشعاره ذات دلالة كبرى فى التعمق فى شؤون الحياة ،ووليدة الاختلاجات النفسية التي تثير فى خواطرنا شتى الأخيلة والتصورات ..!

ان الهموم تتابع عليه زمرا ، وهو يسخر ضاحكاً منها ، وكأنه فى معزل عنها ، بالرغم من انها نفذت الى صميم قلبـه ، وراحت تنهكـه بـلا هوادة ، فيقول :

مـا للهمـوم تـتابعت زمـراً وبقيت أسـخر ضاحـكاً منهـا
هي في صميـم القلب تنهكـه وكـأنـه فى معـزلٍ عنهـا

ويقول :

تدفقت الآلام شـعراً فلم تدع لساني يحصي أو يراعي يسجّل

وهو يحيى الخطوب التي تتوالى عليه ، لأنها هي التي تثير فيـه الشاعرية الجياشة فتلهمه شعرا خالدا مع الزمن ! وأما الخطوب نفسها فان الفناء سيسدل عليها ستار العدم ، فيقول :

قريضي كما تهوى الخطوب يقول وعزمي على رغـم الزمان يصول
لتحي خطـوبي للقريض مثـيرة سيبقى قريضي والخطوب تـزول

والشاعر الصافى وان فاضت كأس حياته بالارزاء والشجون ، ولكن شعره كان وسيبقى صادرا عن روح متفائلة تثق بقدرة الانسان ، وهـو يعجب من ضـعاف النفوس فى نظرتهـم التشاؤمية الى الكون والوجود ، فيعاتبون القدر ، لتخيلهم بأنه هو الذى أغرقهم فى خضم ظـلام دامس ،

مع ان الحياة باسمة زاهية ، واذا كانت الحياة شوكاً ففى وسطه زهر فواح العطر ، وما على الانسان الا ان يحطم الاشواك كي يقطف الازهار ! فيقول

كم عابس لحياة وهي باسمة ومن ضعاف نفوس عاتبوا القدرا
ان الحياة لشوك وسطه زهر فحطم الشوك حتى تبلغ الزهرا

ان الله تعالى خلق الصافى رهيف الشعور ، واشعل فى دمه الاحساس المعادى للبهتان والباطل والدجل ، وجعله ذا قلب كبير ينبض بحب الوطن والشعب والانسانية ! تسوده روح ايجابية منطلقة ، فأصبح ديوناً للشعر ، وغدا (كمنجة) يوقع عليه الوجود أرق الالحان ، وأعذب الانغام ، فيقول :

براني الاله رهيف الشعور لأصبح للشعر ديوانه
وأغدو (كمنجة) هذا الوجود عليّ يوقع ألحانه

وتعرّض الشاعر وهو فى مطلع شبابه لمختلف أنواع الاسقام ، فكتفت يديه ، ووقفت حجر عثرة فى شق طريقه نحو بلوغ الاهداف والاماني ، وكانت باعثاً مهما على طبع شعره بطابع الالم والحيرة والتمرد ، فيقول :

غدرت يا سقم فيّا كتفت ظلماً يديا
أهم فى كل شيء ولست أسطيع شيا

وفى قصيدته « حياتى » يحس الشاعر بحزن يخالطه حنين الى وطنه ويخالجه شوق الى اهله ، ويشعر بمرارة الوحشة ، وألم الذكرى ، حيث تكتنف نفسه الشاعرة عواطف قلقه ثائرة تعذبه وتؤرق نومه ، وتوقظ فيه ذكريات الماضي البعيد ، وآلام الفراق ، وتلقى عليه ظلالا نابعة من ظروف حياته ، وتحمل من معانى الكآبة ما يكشف عن معاناة تجربته الشعورية ، ويجسد تيار الاحاسيس الذى يدفق فى اعماقه !

انها مقطوعة شعرية تنضح بالالم ، وتعبر اصدق تعبير عن حالاته

النفسية الدافقة بفيض العاطفة ، والتيار الشعورى ، فتثير فينا الانفعالات والاحاسيس العميقة !

فالشاعر ترك بلاده وحشاه عالق بها ، لان فيها احبابه واقرباءه وكان هدفه الاكبر ان يفوز بثروة يحقق بها امنياته ، ويجلو بها غمه ، وانه لو خالها فى باطن الارض لغاص الى قعرها ، او فى النجم لصعد اليه ، فراح يجوب السهول ، ويرتقي الجبال ، ويجوز القفار ، ويخوض البحار ، فلم يحظ الا بالنزر الزهيد الذى يسد به رمقه ! اما اولئك اللؤماء المجرمون فقد حازوا أقصى ما يريدونه من رغد العيش ، ومرح الحياة • بأمتصاص عرق الكادحين ودمائهم •

ان الله تعالى عادل ، فلم يكتب الحرمان للشاعر الموهوب الطامح احمد الصافي النجفي ، ويغرق التافهين الاغبياء بالثراء والكنوز والذهب ! ولكن مرد ذلك الى نقص في القوانين التى وضعها الحكام الظالمون لادامة حكمهم المقيت ، والتلاعب بمقدرات الشعب ! وممارسة أبشع صور الاستغلال •••

وظل البؤس يمشي لجانب الشاعر ، وكأنه ذورحم معه ، وقد تعلق به حباً فخياله الكئيب يلوح على شكله ، ويبدو وعلى رسمه !

وبالرغم من هذه التمزقات النفسية ، والقلق المرهق ، والحرمان الشديد ، والفقر المدقع ، فلم يدب فى قلبه دبيب اليأس ، ولم تستول عليه الخيبة ، فظل يسعى الى احراز المقاصد النبيلة ، وان اصبح جلداً على عظم ، ويعمل من اجل الحصول على لقمة العيش فى بلاده ومهجره ، صونا للكرامة ، ولم يحتمل مناً لاحد ! فيقول :

تركت بلادي والحشا عالق بها	وفارقت أحبابي بها وبني أمي
لعلي يوماً ان أفوز بثروة	أنال بها سؤلي وأجلو بها غمي
فلوخلتها في الأرض غصت لقعرها	وان تك في نجم صعدت الى النجم

فكم جبت سهلا وارتقيت راوسياً … وكم جزت من قفر وكم خضت من يم
فلم أحظ في شيء على القوت زائد … وفاز بأقصى ما يريد أخو اللؤم
فهل كتب الله الثراء لمعشر … وخط لي الحرمان في دفتر الشؤم
وهيهات فالله المهيمن عادل … ولم آت من ذنب ولم أجن من جرم
فطوراً أخال الحظ علة خيبتي … وطوراً أرى الحرمان من قلة الفهم
وليس بهذا أو بذاك وانما … أرى السر في نقص القوانين والحكم
أسير وظل البؤس يمشي لجانبي … كأني حليف للشقاء وذو رحم
تعلق بي حباً فهذا خياله … يلوح على شكلي ويبدو على رسمي
ولم تنقطع آمال مثلي لخيبة … فأسعى وان أصبحت جلداً على عظم
أعيش بسعي في بلادي ومهجري … ولم أحتمل مناً لعرب ولا عجم

ان هذا الشاعر العربي المبدع ذا الالمعية الادبية ، واللسان الذي يفيض بالشعر الممتع ، لقد نسيه الكثيرون ، وضاقت به سبل العيش ، واصبح كل همه في الحياة ان يظفر بالخلاص من افلاسه المستديم ، وامراضه المزمنة التي تثير في نفسه الالم الممض ..!

وفي احد الايام ذهب الى عيادة طبيب ، وقد اشتدت به وطأة الاسقام والتعاسات والهواجس ، ولما جس الطبيب يده ، ارتاع من مرضه وقال له

ـ ان داءك يعي حتى طب ابليس ، ولكنني سأحاول معالجة جسمك من الاسقام ، فرد عليه الشاعر في تهكم لاذع مرير ، وفي قلبه تيار من انفعال جارف ، ونبرات الحزن المكبوت تمور في كلماته قائلا .

ـ قبل كل شيء ارجو منك ان تداوي لي كيسي .

جس الطبيب يدي فارتاع من مرضي … وقال : داؤك يعيي طب أبليس
لكنني سأداوي اليوم جسمك من … اسقامه ، قلت : قبلاً داولي كيسي

والشاعر الصافي يعد بحق من رواد القومية العربية المتحررة ، واقطاب الوطنية الحقة ، وهو بما وهب من شاعرية خصبة ، وخيال رحيب ،

واسلوب مشرق ، قد كرس كل هـذه المواهب الجياشـة لتحرير امتـه العربية المجيدة من قيود الاستعمار ، والسـعي الحثيث لـدمج اشلائهـا المتناثرة ، وتوحيد اجزائها المتنافرة ! فما سوريا ومصر والعراق ولبنـان والبحرين واليمن وليبيا وعدن وتونس والجزائر والمغرب والحجاز ونجد وسواها من الاقطار العربية غير اعضاء فصلت من جسم واحـد ، فكيف تحيا بعد ترك البدن ؟ أو انها غصون قطعت من دوحة يانعة ، فكيف نعيش هذه الاغصان بعد فصلها من الشجرة ؟

ان الوطن العربي الكبير بعد ان قسم الى عدة دويلات صغيرة اصبح جذعاً اجرد من الاوراق والافنان ، وسهل على المسـتعمرين احتلالـه ، وسلب حرياته ، ونهب ثرواته ، وتكبيله بأغلال الرق والاستعباد ،وربطه بعجلة الاستعمار المقيتة ، والاحلاف العدوانية ، وجعل منه قواعد عسكرية لضرب الحركات الوطنية التحررية فى الصميم •••

لقد كان وسيبقى الشعر من الاسلحة القوية التي يكافح بها الاستعمار البغيض ، والعمل على رفع مستوى الشعب الثقافى ، وبلورة وعيه السياسي والاجتماعي ••!

والشاعر الصافي استجاب لنداء الضمير الثائر ، ولصوت القوميـة الهـادر فقال :

وطني مـا لي حبيب غـيره　　　وطني روحي حلـت بدني
ليس سوريا ومصر والعراق　　　أو سواها من حسا أو عدن
غـير أعضـاء لجسم فصلت　　　كيف تحيـا بعد ترك البدن
أو غصون قطعت من دوحة　　　كيف بعد الدوح عيش الغصن
لم يبقـوا غـير جذع أجرد　　　مـا بـه من ورق أو فنن

وتسبد به الحيرة القاتلة ، ويتملكه الاسف الشديد ، حينما يرى قومه

العرب منقسمين على انفسهم ، وقد مزقت صفوفهم التفرقة ، وهد كيانهم الوهن ، وتحكم فيهم الخلاف ، فأصبحوا هدفا للطامعين ، ومغنما للمستعمرين وملاذاً للمتآمرين، فتصاعد من أعماق وجدانه هذه الصرخة المدوية فيقول :

الا يا عرب أمركم — تناقضه يحيرني
فماضيكم يحفزني — وحاضركم يثبطني

والشاعر يملك رصيداً ضخماً من المواقف الوطنية المشرفة ، والمشاركة فى النشاطات الجماهيرية ، ولعل فى مقدمة الاحداث التى هزت كيانه ، هو العدوان الثلاثي الغادر على مصر سنة **١٩٥٦** الميلادية يوم خاض اهل بور سعيد المجاهدون الابطال معركة الخلاص مع الاستعمار الغاشم ، فأستولى هذا الحدث الخطير الهام على عاطفته المتدفقة ، وملأ روحه العربية المتوثبة بالزخم الثورى ..! واحساساً صادقاً منه واستجابة لحافز نفسي ، قال هذين البيتين الرائعين فى معركة بور سعيد ، سبكهما فى اسلوب واقعى ، ودلالة موحية ، وتعبير مؤثر ، مستلهماً أرواح الشهداء الابرياء الذين سفكت دماؤهم الزكية على مذبح الكرامة دفاعاً عن حرية شعبهم ، وأمن بلادهم ، والذين ستبقى ذكراهم حية فى قلب كل عربي .

بكيت على أن لا اساهم فى الحرب — وقومي صرعى يقتلون بلا ذنب
هم العرب قومي ينجدون سواهم — فان لم أذد عنهم فلست من العرب

لقد ظل هذا الشاعر الكبير ، والمصلح المثال ، صاحب الفكر المشع ، والاغراض النبيلة ، يستلهم النفس الانسانية والحياة والوجود فأعاد لمفاهيم الشعر العربى الأصيل روعتها وقوتها وتأثيرها البالغ ، فى وقت تحجرت فيه الافكار ، ونضب معين الابداع ، وخبت شعلة القرائح !

وكان لماله من المام باللغة العربية وبلاغتها ، وخبرة عظيمة ، واطلاع واسع على شؤون الحياة ، ان ظل فى عطاء فكرى متواصل ، وبلغ شأواً بعيداً فى صدق الاحساس الفني ، وحلاوة التعبير الشعري ، وجمال الصور

وصفائها ، فجذب اليه الجماهير ، لان فى قصائده شعوراً فياضاً ، وافكاراً عميقة ، ووصفا رائعاً لخلجات نفسه ، وخفقات قلبه ، وفيها تكمن فلسفته الاجتماعية والفكرية التي صاغها فى اسلوب فني جميل ، يستمد عناصر جماله من البساطة والعفوية والوضوح ، بالاضافة الى تعلقه بحب الوطن ، واخلاصه للشعب الاخلاص التام ، واعتناقه المبادىء الوطنية الصحيحة !

ان هذا الشاعر ذا العين القوية الملاحظة ، والاحساس الذي لا يحدو لا ينفذ ، والذى تهزه مآسي الحياة ، قد عبر عن الطبقات الشعبية الفقيرة فى شعر اجتماعى هادف ، مليء بالصور الحسية الحية ، فدلت على نزعة ابداعية ، ووعي كامل ..!

وقصيدته « بائع حصير » تعتبر قمة سامقة فى فنه الشعرى ، وعمله الابتكارى المحض ، من حيث وحدة موضوعها ، وسلاسة اسلوبها ، ولما فيها من معاني جديدة ، وكنوز من جواهر الفكر ، وصور من حقائق الحياة ، وآيات من الآراء السديدة النافذة ، وهى تحفة ادبية قيمة ، ومن نماذجه الشعرية التى تبلغ حد الروعة ... وهو الذى ضرب سهماً وافراً فى قول الشعر الرائع الجيد الذى ينطوى على الاصالة والابداع ..!

لقد جاء الشاعر الصافى طفل ينشد بيع حصير له ، وقد زخرفه العمال الصينيون الماهرون بالنقوش البديعة ، ورسموا فيه التصاوير الخلابة ، حيث بدا فيه البحر تمخر عبابه فلك تمور بالحور العين ، وتجذف فيه نوتية من الغوانى الملاح ، فتمنى الشاعر الركوب فيها ، ليحظى بالعيش ولو لحظات مع هؤلاء الغيد الفاتنات ، فقد سعد البحر ايما سعادة ، ففى حشاه واعلاه در لا يقدر بالمال ، وكأن هذه الفلك صدف تحوى ذلك الدر الثمين !

مسكين هذا الطفل المغفل الساذج يحسب ان الصافي يملك نقوداً مغرية ، وكنزاً دفيناً ولم يدر بخلده انه أتى الى رجل لم ينل من دنياه غير العواطف ، والعواطف وحدها ، وانه تحرر من اعراض الدنيا ، وزهد فى

هذه الحياة الفانية ، وكرس مواهبه الخلاقة ، وطاقاته المبدعة لخدمة امته ولبني الانسانية جمعاء ..!

وقال الطفل للشاعر ، اشتر الحصير وزين به بيتك ، وما درى انه يعيش متشردا بلا مأوى ، واى فناء بيت يحوى روحه الوثابة المنطلقة ، ان هذا الوجود برمته هو بيته المفضل المزين بأبهى الاثاث واحلاه ، انها رياض الاقاحي والياسمين ذات الشذا المعطار ، والالوان الزاهية ، ومنابع الوحي الصافية ، والمشاهد التي تملأ خياله فيحس بلذة كبرى حينما يستمتع بمرأى المناظر الطبيعية الساحرة ..!

واذا كان الصينيون قد صوّروا البحر فى الحصير ليقتنيه الناس ، فها هو ذا الشاعر يقف مندهشاً بجانب البحر الذي يزخر بصخب الامواج ..! ..

واذا كانوا قد صوّروا الغوانى الرقاق وهن يمرحن فى الفلك ، فان خياله الجوال مصور بارع ذو فنون رائعة ، وان فى عالمه الشعرى الخلاب من الاحلام والصور والرؤى ، ما يفوق كل ما يصنعه هؤلاء الرسامون الماديون من بني الانسان ! فيقول :

جاء طفل يروم بيع حصير	زخرفته بالنقش أيدي الصين
فيه بحر يبدو وفى البحر فلك	وعلى الفلك بضع حور عين
وعليه نوتية من غوان	جاذفات فيه بكل سكون
فتمنت نفسي الركوب بفلك	يتحلى بلؤلؤ مكنون
سعد البحر فىحشاه وفىأعلاه	در مكلل للجبين
وكأن الفلك الذي ضُم غيداً	صدف قد طفا بدر ثمين
جاءني الطفل وهو يحسب اني	ذو نقود تغري وكنز دفين
ثم قال اشتر الحصير وزين	لك بيتاً يليق بالتزيين
قلت مالي بيت ازينه أو	أي بيت فناؤه يحويني

كل هـــذا الوجود بيتي وفيه من بديـع الأثاث مـا يكفيني

فـأثـاث البيـوت ليس بأبهــى من ريـاض الاقـاح والياسمين

صوّروا البحر فى الحصير لكي يشرى

ويقنى والبحــر يــزخــر دونــي

واذا صـوّروا الغـواني بفلك فخيـالي مصــور ذو فنــون

صوّروا الكائنات تزهو وعندي صـور فقـن عالـم التكـوين

واذا كنت مـا أقتنيت أثـاثـاً فخيـالي أبهى الاثـاث يزيني

ان هذا الشاعر الذي نهض بالشعر الى مدارج شامخة من الاجادة والروعة فاينعت رياضه ، وتفتحت ازاهيره ، ذلك الشـعر ، الذى اصبح تغذية للفكر ، ومتعة للروح ، والذي دفعه بمحتواه التجديدي فى طريق الانطلاق ، والذى دعا فيه الى انبل المثل العليا ، واسمى المبادىء ...!..

ان هذا الشاعر المجــدد فى معانيه ، والذى يؤمن بأن الأدب ملك مشاع للشعب ، يعبر عن آلامه وآماله ، ويكافح من أجل تحقيق أهدافـه الوطنية ، وامانيه القومية لقد تضافرت كل عناصر القلق عليـه ، واضناه العذاب ، وارهقه الشقاء ، وبقى طيلة حياته حتى هذه اللحظة تنتابه موجة الكآبة ، ويغمره فيض الاحزان ، وتمر به محن قاسية ، وتزداد اسقامه ، وتصطخب حياته بهزات عنيفة من الصراع النفسي المضني ، وتزدحم بالمعاناة والحيرة والمتيه ، ويستشعر الوحدة والتمزق والوحشة الخانقة .

وفى قصيدته « غرفة شاعر » يعطينا صورة واضحة عن حياته الشقية ، فهو يعيش فى غرفة ضيقة متداعية الاركان ، ملأى بالثقوب ،ليس فيهـا غير سراج تنبعث منه اضواء راعشة تكاد تموت من ضعفها ، ويشــاركه السكنى فيها الفأر والبق والعنكبوت ، والفأر له من مأكله غـذاء ، وللبق من جسمه قوت !

وفى زاوية من زوايا غرفته ، اعتزل العنكبوت وهو غارق فى خضم

السكوت المطبق ، يشتغل بالنسيج ، وبناء الشبابيك التى بها يصيد الذباب والبعوض الذى طالما جلب للشاعر الامراض والاذى ، تلك الشبابيك التى يسد بها الثقوب فيمنع أشعة الشمس من النفاذ الى داخل الغرفة ... لتنتشر فيها الدفء ، وتمتص الرطوبة ...

هؤلاء هم ندمان الشاعر فى وحشة الليل ، وقد التأم بهم شمله الشتيت المبدّد ..!

ان الفأر يوقظه بالقرض كلما داعب النعاس اجفافه وغفا ، والبق يمازحه بالقرص واللذع ، فيشرب ما راق له من دمائه !

ويضج الشاعر بالشكوى المريرة ، ولكن ليس هناك من منقذ له يستيقظ فيه الضمير ، او يتحرك منه الوجدان ..!

انه لامر فظيع ، وفظيع جداً ، ان تكون هذه الغرفة الحقيرة مأوى للشاعر النابغ ، انها منفى نفي اليه دون ان يقترف اثماً ، لا بل انها قبر الحياة زج فيه ليكابد ابشع انواع العذاب قبل دنو اجله ..! فهو فى الشتاء تتجمد اعضاء جسمه من البرد والزمهرير كأنه يبيت تحت السماء ، وفي الصيف يشويه حر القيظ اللاهب ، ويتناثر عليه التراب من السقف الخاوى بلا انقطاع، فهل هذا التراب رزق من الله قد جيء به اليه ؟ ويرتعد خوفاً ورعباً ان مشى فوق ذلك السقف المشؤوم خشية الانخساف به فهو مليء بالثقوب التى امست بالنسبة له نوافذ يطل منها على دنياه الحافلة بالقلق الذى يعانيه ، والالم الذى يقاسيه ..!..

ليت شعرى كم يشعر الانسان بالحزن حين يقرأ هذه القصيدة التى تنفذ الى أعماق النفس ؟ فتذكي فيها جذوة الثورة على الاوضاع ...

انها تهيج فينا احر الاشجان لدى مطالعتنا لها بأمعان وعمق ، فالانات تتصاعد من ابياتها ، والآهات تنفجر من كلماتها ، ويبدو الشاعر فيها متشائماً يائساً برماً بالحياة !

ان هذه القصيدة البسيطة في ادائها ، الغنية بمحتواها الانساني تصوّر ظلم المجتمع بأفظع صوره تجاه شاعر ذي مكانة بارزة في الفكر العربي المعاصر ، ظل وحده يتغذى بالآلام والمرارة والوحشة ، ويصارع الظروف القاسية التي يتعرض لها فتهد كيانه ، وتضرم لهيب حسراته ، ولا من أحد يجلو الهم عن رأسه ، ويزيح عن صدره عبء الفاقة ، ويطفيء لظى شوقه المشبوب ••• !

اكافح البرد في سراج ... يكاد من ضعفه يموت
في غرفة ملؤها ثقوب ... او شئت قل ملؤها بيوت
يسكن فيها بلا كراء ... فار وبق وعنكبوت
للفأر من مأكلي غذاء ... والبق جسمي لديه قوت
واعتزل العنكبوت امري ... وفي بقاه معي رضيت
فهو معي مثل **فيلسوف** ... معتزل دابه السكوت
مشتغل بالنسيج عني ... يبني شباكاً بها حميت
فكم بها صاد من ذباب ... قد كنت في امره عييت
انعم به صائداً قديراً ... ذبابة منه ما تفوت
كم صاد في الصيف من بعوض ... قد كنت من لذعه خشيت
ينسج فوق الثقوب بيتاً ... به من الشمس قد وقيت
هذي ندامای في الدياجي ... عاد بهم شملي الشتيت
يوقظني الفأر حين اغفي ... بالقرض ان طاب لي المبيت
والبق بالقرص رام مزحي ... لكنه مازح صموت
يشرب ما راق من دمائي ... والسم في لذعه سقيت
عليه لا يسمعون شكوى ... فيا لخصم به بليت
ضيف ولا يبتغي طعاماً ... الا دماً منه قد حييت
أغرفة للمنام هذي ... أم هي منفى له نفيت

ام تلك قبـر الحيـاة فيـه عـذبت من قبلمـا امـوت
ابيت ليـلا بهـا كـأني للبـرد تحت السـما ابيت
جمدت من بردهـا ولكـن في الصيف من حرها شويت
ينثر مـن سقفهـا تـراب لـولا غطـائي بـه عميت
كـأن ذاك التـراب رزق بـه مـن الله قـد حبيت
أمشـي بهـا خائفاً لأنـي أخشـى انخسـافاً اذا مشيت
لهـا كشباكهـا ثقـوب انظـر منهـن حيث مشيت

إن أبرز خصائص شعر الصافي الأصيلة ، هي رسم معالم شخصيته على اصدق وجه ، تلك الشخصية الفذة التي زهدت في مناعم الحياة الزائلة ، وجاه الدنيا الفانية ، والتي مثلت الطيبة بأروع معانيها ، واتصفت بالصمود في الكفاح الوطني ، وحب الحقيقـة أينما وجدت ، وان كانت مرة المذاق كالحنظل ، فيلوكها لسانه ، ويتغذى بها على الرغم من ان طعمها كالعلقم ، والحق يؤثره على كل المنافع المغرية حتى وان كان مصيره جهنم، فهو لا يقول الا ما يمليه عليه الحق ..!

ولما كانت للشاعر رسالة هامة في اصلاح المجتمع وتطويره، فالصافي خير من أدى هذه الرسالة المقدسة على اكمل صورة !

إن روحه التي تعبد الجمال ، وتتغنى في محرابه ، تفر من الدميم ، ولكنه عندما يغدو فريسة الفقر والضنى ، سرعان ما تعود فيه متيمة ولهى ، فتسعفه حتى يثري ويتعافى ، فهي تهـوى الشقي البائس ، وتبغض الغني المتنعم البخيل !

لقد كان من اولى وجائبه المهمة في الحيـاة ، هي السعي للحد من تعسف القوي المتجبر ، وشـد ازر الضعيف الواهي كي يتساوى الاثنان ، وما اجمل الحياة واسعدها في ظل المساواة والتآخي والالفة ، فيقول :

بعض الانام يرى الحقيقـة مرة فيفر منهـا مطبقاً عنهـا الفما

كي لا تلاحقـــه فتدخـل فاه او	يبقى يشاهد وجهها المتجهما
وانـــا اراهـا مـــرة فألوكهـــا	كي اغتذي منهـــا وان تك علقما
والحـق أوثره عـــلى نفعي وان	يك مدخلي يـوم الحساب جهنما
روحي تفر من الدميم وان غـدا	مضنى فقيراً عـــدت فيه متيمـــا
حتـــى امرضـــه واســـعفه فان	اثرى وعوفي وازدهى واستعظما
ابغضته وفرت منـــــه لأننـــي	اهوى الشقي وابغض المتنعمـــا
اســـعى لاضعاف القوي وقـــوة	الواهي الضعيف لكي اساوي اثنيهما

واذا كان الألم من عوامل الاخصاب والاثراء والابداع في الشعر ، فقد اهتدينا الى شـعر طالما افتقدناه ، يزيده تعاقب الاعوام تقرباً من قلوب الجماهير ، طابعه الاصالة في دقة التصوير ، والتسلسل في التفكير المنطقي ، وسداد الرأى في نقد تقاليد المجتمع ، انه شعر ممتلىء بالاحساس العاطفي العميق ، ومستوحى من واقع الحياة الانسانية ، متميز بالصدق الفني الذي تنعكس عليه حياة الشاعر الصافي بوقائعها وحقائقها ، بآلامها وآمالها .

واذا كان الشاعر قد شقي بآماله الصغار ، وهي عدم تمتعه بأي لون من ألوان الرفاه والراحة والنعيم ، فانه سعيد منتهى السعادة بتحقيق آماله الـكبيرة ، وهي انتاجه لهذه الدواوين الثلاثة عشر التي تلونها العواطف والملامح النفسية والتعبيريـة التي اثرت في الشعر العربي الحديث تأثيراً بالغاً ، لقد خلق فناً اصلاحياً هادفاً ، وجعـل من شعره سـلاحاً جماهيريا فعالاً لتقويض دعائم الحكم الفردي الاستبدادي، ولكنه عاش شقياً متشرداً في قفار جرداء من اوصابه واتراحه ، هـذا الانسان المعذب المضطهد ذو النظر الصائب ، والقلب الشـجاع ، يعاني ظروفاً معيشية قاسية ، ويصارع النكبات والمصائب وحيداً غريباً ، وقد صنع من آلامه افراحاً لغيره، واهدى اشعاره الخيرة الى الناس فأنار لهم طريق الامجاد ، ولكنه لم يلق منهم غير النكران والاجحاف والعقوق ، وسقى عقولهم وارواحهم من جراح قلبه ،

وعصارة افكاره ، ولكنهم لم يسقوه غير علقم العذاب ، وحنظل الجحود ، فيقول :

شقيت بآمالي الصغـار وان اكن ... سعيداً بآمالي الكبيرة مرتاحـا
سعيد بأن اوجدت دنيـا وامـة ... وفناً وابداعاً وشرعاً واصلاحا
شقي بأن احيـا رهين تشـرد ... فجعل آلامي لغيري افراحـا
فأهدي ولا اهدى واعطي ولم انل ... واسقي ولا اسقى عقولاً وارواحا

إن تاريخ كفاح هذا الشاعر الشهير يحكي ابهى صورة من صور شخصيته المعروفة بطيب عنصرها ، وصفاء معدنها ، فقد ارتقت الذروة الشاهقة من المجد ، والمكان الاسمى من السؤدد ، بعد ان اقامت كبير وزن لقيم الكرامة والشرف والعز ، واضطلعت بالاعباء الانسانية الخطيرة !

والغريب في الامر ان هذا الأديب الانساني الكبير ، المتوقد الذكاء ، القوي الملاحظة ، السريع الخاطر ، ذا التراث الفكري الخالد ، والذى عصر قلبه وصبّه فى شعره ، يعيش حياة كلها عناء وكدح وشجا ، حياة حافلة بالصراع الحاد الذى ينشب فى نفسه ، وبالمشاعر الهائجة التي تتفجر فى قلبه ، وحياته مجرد ضياع وقلق وتأزم ، ملأى بالمنغصات والغوائل والشجون !

ولعل مما يثير الألم الدفين ، انه ليس هناك من منظمة ادبية ، ولا جمعية فكرية تسعى لأن تضع حداً لشقائه وتعاسته وبؤسه العريق ، وتحميه مما يقاسي من جفاف وقسوة وحيرة ، وتبعد عنه شبح الغربة ، واحزان الوحدة ، وجراح السنين ..!

لقد هاجر عن بلاده العراق منذ اربعين سنة ، بعد أن لاقى ارهاباً وعنتاً وتشريداً على ايدي المستعمرين ، وقد ابدى ضروب المقاومة العنيفة فى وجه الغاصبين الدخلاء الذين زرعوا الموت والجهل والمرض فى كل

مكان حلوا فيه ، فقد كان يحس بما تعانيه الملايين من أبنـاء جلـدته ، من البؤس والجوع والذل ، فدفعهم بشعره الوطني اللاهب الى سوح النضال للدفاع عن الحرية ، فتساقطت على تربة الوطن زهرات يانعة من الشباب المدرك الواعي ، واريقت الدماء الزكية على الارض الطيبة التي كانت ترزخ تحت نير الاستعمار الأجنبي ، فقدّم الشاعر للعراقيين وللعرب كافة من فكره الوقاد ، وذهنه الخصب ، ما أنار لهم طريق الخلاص والتحرر ..! فقـد اندمج في دمه حب الشعب والوطن والانسانية ، فعكس في شعره آمـال امته ، وآلام حياته ، وعاش المرحلة الراهنة وتحسسها بعمقٍ ، فلشعره طابعه المميز النابع من صميم مجتمعنا ..

لقد صوّر الصافي بشعره صوراً حقيقية بارزة الألوان والظلال ، ورسم الحياة التي عاشها ، وتمتع بمؤهلات الشاعر العبقري الموهوب فملك القدرة على التأثير ، وأصبح كثير التبصر في الامور ، شديد الوعي ، قوي العقيدة ، ثابت العزم ، راسخ اليقين ، يندفع في توثب جامح نحو البـذل والتضحية ! فأضحى له أثر كبير في تطوير مفاهيم الشعر فقد امتازت آثاره الشعرية بطابع من الابتكار والروعة ، تثبت فهمه العميق للحياة ، وتشهد على ما يملكه من عملية الابداع الخلاقة التي تثير كثيراً من الاهتمام ، فقد استوحى الحياة وصوّرها ، وحلّق في أجواء جـديدة ، وعبّـر عن أدق المعاني وأطرافها ، ومهما قيل فيه وفي أدبه فأن خرائده الشعرية الخالدة ، وفرائده الفكرية الرائعة ، سيبقى صيتها يدوي في الآفاق على مدى الأيام وقد نفذ شعره الى القلوب بعمق مغزاه ، وصدق شـعوره ، ولمـا فيـه من امكانيات الوسائل التعبيرية ، والمضامين الفكرية ، والملامح العاطفية التي أغنت أدبنا العربي الحديث ، وأثرت في حياتنا الثقافية المعاصرة ، فأصبحت لها المكانة الأثيرة في نفوس القراء العرب !

ومهما تنوّعت المدارس الشعرية الحديثة ، فان أعماله الأدبية الابداعية

ستظل محور اهتمام الأجيال القادمة ، فنبرات اليقين في تعابيرها ، وحرارة الصدق في اختلاجاتها ، وقد جعل من القصيدة وحدة متماسكة تسري في شرايينها روح الثورة ، وشعلة الوعي ، وأبدى فيها براعة فائقة من حيث انتزاع الصور الاجتماعية ، واستعمال لغة الحياة في الشعر ، شعره الذي بات غذاء للارواح ، ورواء للاذهان ، وذخائر للاجيال ، شعره الذي حفل بأنفعالات النفس وعواطفها ، ورصانة الاسلوب ، ووضوح المعنى ، والذي يحملنا على التطلع نحو مستقبل أفضل !

ان وراء هذا الشعر النابع من صميم واقعنا ومجتمعنا وحياتنا ، شخصية انسانية فذة جديرة بكل فخر واعتزاز ، وما أحوجنا الى الاقتداء بسيرتها ، والتحلي برقة شمائلها ، ودماثة خلقها ، فهي رمز النقاء والعفاف ، والطهر ..!..

انه لاجحاف مريع ، بحق هذا الشاعر العبقري أن يبقى موغلاً في دوامة ضياعة وغربته وسأمه ، تغمره أمواج الأسى المتلاطمة ، ويعاني شعورا ممعنا بالألم الممض ، ويكتوي بنار الاشواق والتيه والجوى ، ويشوب حياته الاضطراب والضجر ، ويحس بالضيق النفسي الذي أخذ بخناقه ، ويشعر شعورا شديدا بالفراغ والوحشة ورتابة الحياة ، فأصبح شعره مليئا بصور النقمة على الحياة ، والتذمّر من الاوضاع ..

أليس من الظلم الصارخ ، أن يظل هذا الشاعر العربي ذو الضمير الادبي الحي ، والخيال الخصب ، والذكاء اللماح ، يعيش بعيدا عن وطنه العراق الحبيب زهاء اربعين عاما ، يتألم لفراق أهله ، ويعصف به الشوق الى رؤيتهم ، ويهتاجه الحنين الى استجلاء ملاعب صباه ، ومثوى ذكرياته الجميلة ..!

ان الدافع الوحيد الذي يدفعني الى الاهتمام بشعره ، هو اعتزازي به ، وتقديري لمواهبه الفذة ، وشغفي الشديد بقراءة شعره الذي كان فتحا

جديدا فى الشعر العربي المعاصر ، ذلك الشعر الذى يقوم على سلامة اللغة ، وفصاحة اللفظ ، وسبر أغوار الحياة ، والذي بث فينا روح البسالة والاقدام والجرأة لنرفع راية الحرية عالية فى ربوع الوطن العربي الكبير ..

ان شعره ستردده قيثارة الزمن ، وسيخلد اسم صاحبه فى سجل العباقرة ....!..

ان من يدرس حياة الصافي وشعره لا يسعه دون شك الا اكبار هذا الشاعر الملهم الذى سمت روحه فوق قمم النزاهة والايثار والفضيلة ، وأصبح شعره فريدا متميزا فى تجربته الشعورية والانسانية ، والتوجيه الاجتماعي ، والتثقيف الذاتي .. !

لقد وجدت نفسي تحترق غماً ، وقلبي يتمزق ألماً ، وأنا أطالع سيرة الصافي الذى تعرض لكثير من الآلام والمحن التي كانت من العوامل التي أثرت فى تكوين شخصيته المثالية ، فعبّر فى شعور صادق عن كل مايضطرم فى نفسه من حسرةٍ وضجر ، وما يختلج به فؤاده من لوعةٍ وحزن، وصوّر صراعه المرير مع الحياة فى جميع مشاكلها ، وأفصح عن حالاته المضطربة القلقة ، وهو فى ذروة الازمة الانفعالية ، فنتحسس كآبة مكتومة تتدفق فى أبيات حزينة يتجسد فيها شقاء الانسان الضائع ، ونلمح تصويرا حقيقيا معبّراً لما تثيره المشاهد المؤلمة فى أغوار نفسه ، والتي كان لها فى نتاجاته اعمق الاثر ، فرفع صوته عاليا بالدعوة المخلصة الى الاصلاح المنشود ، وندّد فى تعبير صارخ عن تحكم الفئات العميلة ، وانشأ قصائد سياسية من أروع ما نظم من الشعر العربي فى هذا المجال ، فيها نقد لاذع لاساليب الحكم التعسفية ، ليهيب بأبناء وطنه الغيارى أن يضرموا نار الثورة ضد جلاديهم ومستعبديهم ،وينطلقوا فى آفاق الحياة الحرة الكريمة فكان جزاؤه المطاردة والتنكيل والبطش ، وظل يعيش حياة ممزوجة بالالم

والتعاسة والخيبة القاتلة ! ولم يعرف معنى لراحة النفس ، وطمأنينة الفكر ، وهذا يعطينا أعظم دليل على التنكر السافر الذي يمنى به ذوو القابليات الزاخرة ، والكفاءات النادرة ، والعبقريات المذهلة ، من قبل مجتمعاتنا السادرة في احضان اللامبالات والاهمال والتسيب ...

وعلى الرغم مما لحق بشاعرنا الكبير من اجحاف وحيف وغبن بقي موفور الكرامة ، عزيز الجانب ، طاهر اليدين ، يأنف ان يدنّس نفسه بأرجاس المتع الزائفة ، وان تجتذ به المغريات التي يسيل لها اللعاب ..!

ان المنظمات الشعبية ، والجمعيات الادبية ، والاوساط الفكرية مدعوة اليوم اكثر من اى يوم مضى الى المبادرة بأنتشال الشاعر المبدع « احمد الصافي النجفي » من وهدة الاغتراب والامراض والبؤس ، وانها ستكون مسؤولة امام التاريخ اذا ما تقاعست عن القيام بهذه المهمة الانسانية الرفيعة ، خصوصاً وقد تجاوز سن الثالثة والسبعين من عمره المديد الذي قضاه في الخوض في مشاكل الحياة الكبرى !.. فأشاد له من أدبه السامي الرفيع مجداً طريفاً خالداً على توالى الاعوام ، وسيتحدث الناس بلسان الاعجاب والتقدير ، وسيبقى اسمه الكريم محلقاً في اجواء النبوغ والعبقرية ...!

ان احمد الصافي النجفي سخّر كل ما يملك من الطاقات العظيمة ، والثقافات الراجحة ، والمعارف التقدمية ، والشاعرية الفياضة ، لخدمة بنى قومه والانسانية قاطبة ، فكان مثالا فذاً للاخلاص والثبات والعطاء ، ورائداً من رواد التجديد الادبى ، والتطور الفكرى وطّن نفسه منذ مطلع شبابه على الانتاج والكفاح والدرس فلم يتزوّج وينجب اطفالاً ، لكي يضع كل امكانياته وكفاءاته المبدعة تحت تصرف أبناء وطنه ، فأستطاع أن يفتح عيونهم على دنيا الحرية والحق والعدل ، وان يسمو بهم الى آفاق فسيحة الارجاء من الامجاد والمعرفة والرقي ! وقد حمل في يده مصباح الوعى الوهّاج ،

فتمزّق ظلمات الاضطهاد والهوان والبغي ، وقاد الجماهير العربية المناضلة نحو مطالع الانعتاق والتحرر والنور ..!

انني على يقين تام ، من ان دارسي شعر الصافي ، وقارئي سيرة حياته ، وعار فى فضله ، قد اقاموا له فى قلوبهم تماثيل حية من الولاء والوفاء والحب ، وانهم يضمرون له فى حنايا نفوسهم اسمى آيات الاعظام والحفاوة والمودة ، وان السنتهم دوماً تلهج بأسمه ، وافئدتهم تخفق بحبه ، وجوارحهم تنبض بالثناء عليه !

وليس هناك ادنى شك ، فى ان الغاية النبيلة التى يهدف اليها الصافى من كفاحه المتواصل فى كل مناحي الحياة ، هى ان يخلق جيلا مثقفاً تقدمياً واعياً ، يسير بالامة العربية فى طريق والازدهار والبناء والتقدم ، وان يترك فى القلوب ، كل القلوب اثراً حميداً ، وذكرى طيبة تتوهّج بالانوار السواطع ، وتموج بتيارات الابداعات السخية التي لا تنضب ، وقد حقق كل هذه الاهداف السامية ، فزرع فى الافئدة أغراس التسامح والاخاء والحب ! وأذكى فى النفوس جذوة الاصرار والتصميم والطموح ..! .

ومن المحال ان تمحي من الوجود هذه الآثار الادبية الخالدة التى انتجتها عبقرية الصافى ، والتى ليس لها مثيل ، فهي محكمة النسج ، بعيدة الاثر ، بليغة التعبير ، شريفة المغزى ، تستفز النفوس ، وتتلاعب بالعواطف ، وتهتز لها اوتار القلوب ، انها النور المتدفق الذى يمزّق ظلام الطغيان والاحقاد والجور ، وتعطى اروع درس للشعوب السائرة فى طريق الحرية ، لترفل بأردية الكرامة والعزة والمجد ، انها من ابدع ما صورته ريشة رسام حاذق ، وما خطه قلم مؤمن برسالته المقدسة فى الحياة !

ان الصافي ! الشاعر العربي الصادق العاطفة ، والوافر الاحساس سيظل فى دنيا القريض نسيجاً وحده قلما يجود بمثله الزمن !

الصافي في زنزانة السجن

فيمدينة النجف الاشرف ذات المجد التاريخي الاصيل ، وموئل الفكر العربي المنطلق ، والتي تحتفظ بمكانة بارزة في ميادين الثورات الشعبية التقدمية ، رأى الاستاذ احمد الصافي النجفي لاول مرة نور الحياة ... فهي مهد ميلاده ، ومنبت طفولته ، ومرعى صباه .. فكان لها تأثير كبير في حياته الاولى حيث خلقت منه فيما بعد شاعراً ثورياً مقداماً يعبر تعبيراً حقيقياً عن طموح الجماهير ، فقد تأثر ببيئتها الطبيعية ، وظروفها الاجتماعية والسياسية والوطنية ، وقد عرف باصالة المحتد ، وشرف النسب ، وصفاء النفس ، وسمو الروح ...!

لقد تفتحت عيناه منذ صغره على مشاهد الفقر والظلم ، وأستشرف حقائق الحياة المرة المؤلمة ، وأبى ان ينزوي في عقر داره ، وينطوي على نفسه فدخل معترك الحياة السياسية ، وخاض خضمها المتلاطم الامواج ، فولدت فيه روح التمرد ، والنزوع الى الثروة التي تدرك واقع المجتمع الفاسد ، وتحاول تغييره نحو الافضل .

ونزع في أوائل شبابه الى قول الشعر المستمد من تجاربه الحياتية الشقية التي اثارت فيه الاحساس بآلام الكادحين ، فشعر بأحزان الآخرين وكأنها احزانه .

لقد سار في المسلك الثوري للمناضلين بعد ان استقطب مصالح الجماهير فيالتطور السياسيالجديد للخلاص منالاضطهاد الفكري، وايجاد صيغ عملية تجسد حقوق الشعب واهدافه ، وتصون وحدته الوطنية ، وتسعى لتغيير جذري وحاسم في الواقع الاجتماعي ، واستغلال كل الامكانيات الخيرة لمصلحة الشعب ، تلك المصلحة التي تشكل حجر الاساس في بناء قواعد المجتمع ، والقضاء على العلاقات البالية بين العامل

ورب العمل ، والتي تستند على حساب حرمان الجماهير وبؤسها ..

وجاءت قصائده استيعاباً لكل متطلبات المرحلة الجديدة ، ومستوحاة من التجربة الملأى بالوقائع والاحداث ، ومن منطق الرؤية العلمية الصحيحة .. وقد عكس كل ذلك من خلال سلوكه اليومي في معترك النضال اذ رفض حياة الانطواء والعزلة كشاعر ذاتي لا يعنى الا بنفسه ، ولا يعبر الا عنها ، وقد افصح في شعره عن الارتباط الصادق بآمال شعبه ومشاكله ، وعالج موضوعات اجتماعية تمس حياتنا العامة ، وتصور اوضاعنا الشاذة ، وطوف في لآفاق ، وسلخ حياة حافلة بالمتاعب والمشاق . ولم يحن هامته للعواصف التي اجتاحته ، ولم تزده الارزاء الارهافة ويقظة ، لا تخدعه الدعايات المغرضة ، ولا تضلله الاراجيف الكاذبة ، وعايش الثوارت التحررية فيالعالم العربي بقصائده القومية التييشحذ فيها العزائم والهمم ، ويجند الطاقات للوقوف بوجه مؤامرات الاستعمار ومخططاته ، والارتفاع الى مستوى النضال الكفيل بدرءها وسحقها ... فلم ترهبه اجهزة القمع والتنكيل العميلة التي كانت تلاحقه في كل مكن ...!

ولم يلبث هذا الشاعر المحب لوطنه ، الثابت على مبدئه ، النافذ البصيرة ، الكريم المشاعر ، النبيل الاهداف ، ان اعتبر فيالقمة من أدبائنا المكافحين الاحرار ، ومن ابرز الشعراء المجددين في الافكار والمعاني والصور ، فقد نال القدح المعلى في تجديد الشعر في صوره ومعانيه واخيلته وموضوعاته، والتزم دائما الوزن الشعريالموروث والقافية الموخدة وكان تجديده في المعاني والآفاق لا في الالفاظ والاساليب ، وآثر المضمون على الشكل ، وجعل القصيدة وحدة متماسكة الفكرة تأخذ بعضها برقاب بعض ، مشحونة بالافكار العميقة ، ومسايرة لروح العصر ومطاليبه ، فأغنى آدابنا بألوان رائعة من الشعر الذي يصور طائفة من الاحداث التي الت بالعرب ، ويبرز مدى صلته بها ويحدد المعاني العميقة لها ، ويثبت

معالمها الرئيسة ، ويمس عصب المجتمع الذى يعيش فيه بأتراحه وآلامه ، فأصبح عاملا قويا من عوامل اليقظة والتمرد ، والتتويج الباهر لنضالات الجماهير بالنصر المؤزر ..! ..

ان الشاعر الواعي الحر لا يكون بمعزل عن أحداث عصره ، وانما يستوعب المرحلة الراهنة التى تمر بها امته المضطهدة ، ويعيش كفاحات شعبه بصدق ، ويسعى الى انقاذه من ويلات الفقر ، ويعلن ثورته على الاستثار والاحتكار والظلم الاجتماعى ..!

وهكذا كان احمد الصافي النجفي ذا الفكر الحر ، والذهن النير ، فهو شاعر له طابعه الخاص ، استطاع أن يدفعنا الى الاعجاب بشاعريته الفذة ، بعد أن آمن بضرورة المحتوى الاجتماعى فى الشعر ، فعبر عن كل ما يمت للحياة بصلة قوية ، وتوخى الهدف الاصلاحى ، والمغزى الاجتماعي ، وتجاوز كل السلبيات والاحقاد الشخصية ، وتحدى المخاطر التي تختبىء ضمن التحرك المضاد الذى يظهر خلف واجهات مختلفة ، وادرك الدوافع الخفية التى تكمن وراءها ، وجعل شعره يتحدث بمنطق ثوري سليم لاستقطاب مصلحة الجماهير ، ويحثها على مسك رؤوس العمالة بقبضتها الحديدية ... وفى ذلك ضمانة النجاح فى التغيير الحقيقى للمجتمع المتهريء ...

وقد تجنب الغلو والزخرفة ، وابتعد عن الجرى وراء المحسنات الكلامية ، والاهتمام بالاصباغ والتلوين ، تلك هى الملامح المميزة لشعره الحافل بالابتكار فى التعابير والتشابيه والصور ، والذى زاد من شهرته ، وقربه من نفوس الشعب ، اذ ما ان يبلغ الاسماع الا وينفذ الى اعماق القلوب بدون استئذان ..! ..

والحديث عن الشاعر احمد الصافي النجفي واسع المدى ، متعدد

الاطراف ••! فقد تفتحت اكمام مواهبة الادبية منذ الصبا ، ورفد شعره بفيض من الالمعية ، شعره الذى يلتهب بحرارة الروح ، ووقدة المشاعر ، والمفعم بالتصوير الحي الرائع ، والتجربة الذاتية ، والمشحون بصور المآسي الاليمة التى رسمها فى اطار من الحزن الذى تختلج له احاسيس النفوس وتنفعل به خفقات القلوب ••! ••

ولعله مما يضاعف ضرورة دراسة حياة الشاعر ، واستكناه مشاعره واحاسيسه الذاتية ، هى مهارة تصويره لحياته اليومية ، وبراعة اساليبه التعبيرية ، كما ان شعره يصدر عن ذات نفسه ، بما فيها من انفعال عنيف ، وقلق دائم •••! •

وتتوالى الاحداث وتترى عليه ، فتملأه معرفة بالحياة ، وتذكى ايمانه بمستقبل جيلنا العربي المعاصر ، جيل التضحيات ، ويلجأ الى الاسلوب المباشر فى الافصاح عن صدى ما فى ذاته من خلجات متدفقة ، وما نبتت فى ذهنه من افكار ثورية •••!

أفليس من المستغرب بعد كل هذا ان لا يلاحق المستعمرون هذا الشاعر المناضل الثورى الذى أصبح شوكة قاسية فى عيونهم ، والذى يحمل فى اعماقه كل معانى الفضيلة والنبل والخير •• بل المستغرب ان لايفعلوا ذلك •••!

ففى سنة « ١٩٤١ » الميلادية والحرب العالمية الثانية قائمة على قدم وساق بين الحلفاء والمحور ، اعتقلته السلطات الحليفة التى دخلت سورية ولبنان بعد عهد الفرنسيين الفيشيين ، وكانت التهمة الموجهة اليه ، هى ترويجه للمبادىء الوطنية ، وبث الدعاية لها بين صفوف الجماهير •••!

وديوان « حصاد السجن » هو حصيلة سجن الشاعر مدة ثلاثة واربعين يوما فى سجن الامن العام الافرنسي ببيروت بأمر السلطات

الانكليزية عند دخولها الاراضى العربية اللبنانية ‥! وهو مثال نادر من شعر السجون ، ومن ابدع ما جادت به قرائح الشعراء فى هذا المجال ، ومن التحف الباهرة بين الآثار الشعرية المعاصرة ••• فان الخلق الفني فى اروع مظاهره ليتجلى فيه ، والصدق العاطفى هو الطابع الغالب عليه ••• وقد أجاد فيه من حيث الفكرة والاسلوب والعرض •••!

هذا العمل الشعرى الرائع الذى يسمو فيه الفن ، وتتوهج به الاشراقات الفكرية المعبرة التى انتجها قلمه الفريد لتعد من اروع الآثار الادبية •••!

وقد كان وما زال الشعر قطعة من نفسه ، وفلذة من كبده ، وشعلة من روحه ، واصدق دلالة على موهبته الاصيلة ، اذ ضمنه غرر افكاره التى هى وليدة خبرة عميقة ، وتجربة طويلة •••!

وليس كل من وزن الكلام شاعرا ••• انما الشاعر الحقيقى الذى يضرب علىاوتار القلوب ويهزها منالاعماق هزاً عنيفاً ، والذى تتوفر فى شعره لمعات من نور البيان •••

فقوة شخصيته ، وقدرة ابداعه ، وسلامة ذوقه ‥ تلك هى اهم خصائصه المميّزة •

ان الشعراء السجناء الذين وصفوا آلامهم وهم فى غياهب السجن كثيرون ، ولكن احمد الصافي النجفي لم يسبق له مثيل ، فقد بزهم جميعا ••• فهو اوسعهم أفقا ، وابلغهم اثراً ، واوفاهم شمولا ، وقد اوتي الابداع فى هذا اللون من الشعر ، فهو شعر واقعي مفعم بالحياة ، بعيد عن الخيال ، خال من التكلف ، لا يهتم بالقيم الشكلية والزخرفية قدر اهتمامه بالمعنى ، وابرز ما تفرد به هو اسلوبه السهل الممتنع ، وكونه بارعاً فى تصوير الخلجات النفسية •••!

لقد زجت القوات الاستعمارية الغاشمة بالصافي فى اعماق السجن.. واذا بهذا السجن يصبح مهداً لولادة روائع الشعر ، اذ يمده بثروة ادبية غنية بالتراث الفكرى الناضج ، ويغدو اكبر الاثر فى تعميق وعي الشاعر على مشاكل المجتمع ، ويجد فيه سعة للقول ، ومجالا للاجادة ، فيصور حياة الالم والقلق والوحشة التى عاشها بنفسه ..!

ولشدة تأثرى واندماجي بهذا الديوان انبريت لاستكناه جماله الفنى ، والكشف عن جانب له اهميته فى حياة الشاعر ، هذا الشاعر الملهم ، والمفكر البارز الذى اصبح اسمه راية ترفرف فى كل افن من آفاقنا الثقافية .. بعد ان مثل اصدق تمثيل قدرة الانسان المكافح على الصمود امام العذاب .. ذلك الصمود الذى ينطلق من ايمانه الثابت فى محفزات جديدة تكبح جماح المستمرين وأعوانهم المتسلطين على رقاب الشعب .. وبالتالى سحقهم تحت مواطىء الاقدام ...!

ففى قصيدته « الجرم الشريف » يتساءل فى حيرة .. لماذا أساق الى السجن قسراً ؟ وأنا لم اقترف جريمة ... اذ لم يسبق لى أن سرقت مالا ، أو أثمت ، ولا قتلت انسانا ، ولا نكلت برجل ، ولا أسأت الى احد ، وهل من العدل فى شيء ... أن أسجن بسبب وشاية خائن دنيء باع بلاده بأبخس الاثمان ، وألصق بي تهما باطلة تدل على اهتمامى بالحركة الوطنية الى أوسع مدى ، ولم يدر أنه قد ألبسني تاج المسؤدد ، وملكني عرش الفخار ... وقد حلالي السجن حتى خلته جنة الخلد الوارفة الظلال ، واني لاتحدى الاضطهاد ، وأتحمل انعدام النور ، وثقل القيود ، ما دام كل ذلك فى سبيل خدمة وطني ... فيقول وهو ينفّس عن ثورة نفسه الماردة .

حبست وضاق الحبس بى حين زج بي ... الى غرفة ظلماء محكمة السد
فقلت علام الحبس ؟ لا أنا سارق ... ولا آثم عمداً ولا دون ما عمد

فجاء دنيء بـــاع عــزّ بـــلاده ليشترى النزر الخسيس من الرفد
أتى لابساً تحت السواد من الدجى سواداً على قلبٍ ، سوداً على جلد
جرى مسرعا ينساب نحوى مباغتا كصلٍ أتى من فوهة الحجر الصلد
وراح يصب السمّ من فيه ناقعاً عــلى أذن تسـتقبل السمّ كالشهد
مضى شارحاً ذنبي ، اذ الذنب أنني خدمت بلادى ؛ قلت ويحك من وغد
فأنك قــد البسـتني تاج سـؤود وملكتني عــرش الفخـار بلا قصد
فيا لك من نذلٍ كريم تجود لي بتاج العلى يزهو وقد عشت تستجدى
ولـما رأيت الذنب خدمـة موطني حلا السجن حتى خلته جنة الخلد

ويشمخ باعتداد وشمم ، ويشعل جـذوة الحمـاس فى النفوس ، ويبعث خامد الهمم فى القلوب فقد طاب له الشنق ، بعد ان شحذ براعته ، وراح يدافع بها عن أمته التى اعلنت اصرارها على خوض المعركة المصيرية وافصح عما يمور فى نفسه من ثورة وغليان فقال :

حبست ولم أعلم بذنبي فأصبحت لي الارض في ضيق وضاق بي الافق
ولـماً علمت الذنب خدمـة موطني حلا السجن في عيني وطاب لي الشنق

وفى قصيدته « العقاب الضعيف » تعبير عن روحه التى تتأجج فيهـا الانفعالات والاحاسيس ، وأعراب عما يشغل ذهنه ، ويملك عليه خواطره •• فان هذا الظلم الصارخ الذى اودعه السجن ، السجن الذى قص منــه القوادم والاجنحة التى كان بها يرف فى الآفاق الرحبة حيث الفجر الضاحك يتنفس على الروابى الجميلة •••!

أما اليوم وقد اثقل كاهله الحبس ، فانه ليسخر بكل الشدائد والمحن التنى تتوالى عليه من اجل خدمة موطنه الذى لن يدخر وسعاً فى الذب عن تربته الطاهرة ، فيقول :

حبست فقص الحبس مني قوادماً وأجنحـة كـانت تــرف رفيفـا

واثقل حبسي كاهــلي فكأنني		تحملت طــوداً للسماء منيفــا
ولما علمت الجرم خدمــة موطني		رأى كاهلي حمــل الجبال خفيفا
وقلت : عقاب الحبس دون جريمتي		فجرمي يرى هذا العقاب طفيفــا
وقد ساءني ضعف العقــاب لانني		تخيّلت ان الذنب كــان ضعيفــا

ان السجن لا يضير انسانا مثله ، لان السجون والمعتقلات لا يمكــن ان تستعبد الثائرين الاحرار ••• او تطفيء شعلة الوطنية فى نفوسهم •• وهو نفسه يرحب بالسجن غاية الترحيب ، ليكون وطنه فى حرز حــريز من المكائد الاستعمارية ، واذا ما قدر له ان يشــنق ، فــان اعــواد مشنقته ستغدوا منبراً خالداً يعلن من فوقــه رجــم الانكليز الــذين زانت لهــم مصالحهم ان يعبثوا بمقدرات امته العربية ، فيقول :

ســجنوني دونمــا ذنب ســوى		انني ســامي المنى ، حــر عزيز
لا يضير الســجن مثلي أن يــكن		موطني يصبــح في حرز حريز
ولئن أشــنق تــكن مشنقتــي		منبــراً يعلن رجــم الانكليــز

وفي قصيدته «رهين المحبسين» تبرز الاحاسيس الملتهبة التي تفجّرت في اعماقه ، وتلتمع ومضــات فكرة الجوال ، فانه وهو فى ســجنه ، راح يغنّي تحت وطأة آلامه الدفينة ، ويلمح بلبلاً معلقاً في قفصه يترنم بأغانيه الشجية ، فصار كل منها ينعش صاحب القلب الطروب بما ينشد انه من تراتيل عذبة ، واغاريد رقيقة •••

ان الخلي لو اصغى لما وراء غنائهما من حزنٍ محرق، ولوعة حرى، لذاب قلبه أسى ، وتفطر كبده ألماً ••!

واذا كان قد زجّ به الطغاة فى قرارة السجن ، فأنه ليشبه ذلك الاسد الهصور الذى سجنوه خوفاً من وثوبه عليهم ، وافتراسه لهم •••

واذا كان للاسد انياب يمزق بها فريسته ، فان له قلماً يفتك بأعــداء وطنه فتك الحسام •••!

انهم يخافون عبوسه ، ويشجهم شحوبه ، فكيف بهم اذا سمعوا زئيره الهادر ، وكشر عن نيوب يراعه الثائر ، فيقول :

رهين المحبسين ، ضنى وفقر   وأحبس : جل ذلك من نصيب
لئن أسجن فما الاقفاص الا   لليث الغاب او للعندليب
ألا يا بلبلاً سجنوك ظلماً   فنحت لفرقة الغصن الرطيب
كلانا من تألمه يغني   فننعش صاحب القلب الطروب
لقد أصغى الخلي الى غنانا   ولم يسمع به نغم النحيب
ولو أصغى لنغمتنا ملياً   لذاب بذلك النغم المذيب
ويا ليث الشرى سجنوك مثلي   لدن خافوا وثوبك أو وثوبي
لئن كشرت للهيجاء ناباً   فأقلامي تكشر للحروب
كلانا صاحبا صمت مهيب   كلانا صاحبا وجه رعوب
أدب على الثرى ضعفاً ، ولكن   أرى الجبناء يقلقهم دبيبي
تراع حلومهم لصدى عظام   ضئيلات تقضقض فى جنوبي
وأعبس للضنى فيخيف قوماً   عبوسي ثم يشجهم شحوبي
فكيف بهم اذا سمعوا زئيري   وكيف اذا اكشر عن نيوبي

وفى قصيدته « سجين وطليق » صور واضحة المعالم ، قوية التعبير ، دقيقة الملامح ، تكشف جانباً مهما من جوانب شاعريته ، حيث يمر بلحظات تجربة فريدة ..! باستطاعتهم ان يحبسوه ولكن فكره المتوقد ما يزال سائحا فى عوالم الوجود ، ونفسه المنطلقة يغمرها الجذل الرفاق ..!

واذا كانوا قد أبعدوه عن هذا الكون الواسع الفسيح ، فخياله المحلّق الوثّاب يخلق له ألف كون وكون ..

ان السجون لا تضيق رحبا بالفكر الواعى المتحرر ، وان الكون على شموله وسعته ضيق بالنسبة للعقل الخامل البليد ..!

ان فكره الحر المتفتح هو الذي اودع جسمه السجن ، وحبه للاباء والعزة هو الذى عرض نفسه لالوان من العذاب والذل ... فيقول :

قلل السقم من مسافة سيري — وأتى السجن لي فصارت اقلا
غير أني وان سجنت ففكري — سائح في الوجود والنفس جذلى
واذا شئت سحت في النفس دهراً — طائفاً ثم عالماً مستقلا
ان يفتني كون فلي من خيالي — ألف كون يسمو على الكون فضلا
لا تضيق السجون بالفكر رحبا — والفضاضيق بمن ضاق عقلا
ان كل الاغلال في يد حر — لا تساوي في موثق الفكر غلا
فكري الحر أودع السجن جسمي — واعتزازي قد كلف النفس ذلا

وفي قصيدته « تكسير الاصنام » ترجمة للاحاسيس القومية ، وتجسيد لفكرة وطنية غنية بالحرارة والصدق . واجتياز لحدود الذات ، وابراز لقيم مضاءة ضمن وحدة عضوية متكاملة ، ذات هدف توجيهي ... فهو يفرح بالسجن مهما طال أمده ... ويعتبر يوم سجنه تاج أيامه ، فقد قضى حقوق نفسه كاملة غير منقوصة ، وفي سجنه اليوم يقضي حق قومه العرب الذين راحوا يكسرون القيود التي غلت حريتهم احقابا من التاريخ ، والمفكرون الاحرار طليعة النضال العربي ، وهم اقوى من السجون والمعتقلات والمشانق ..!

واذا كان الانكليز قد سجنوه بتهمة نشاطه الوطني ، فيا له من جرم شريف ، لانه يحارب قوما عريقين في الاجرام والاعمال التعسفية ، وممارسة حملات التقتيل الجماعية ، واضطهاد الشعوب الضعيفة ...!

و « محمد بن عبدالله » الثائر العربي الاكبر الذي كسّر اصنام الكفر والالحاد في الماضي الغابر ، فمن ذا الذي يكسّر أصنام اللوردات ، أصنام الاستعمار البريطاني الغاشم ... في الزمن الحاضر ..؟

ويكفي هذه الدولة الاستعمارية خزياً وعاراً ... انها لا يتمسح بأذيالها ، ويضلع في ركابها الا كل منحط تمام ، ويتساوى في نذالته جنديها الاحمق مع مندوبها السامي ، فيقول :

أهلا بسجني لشهر أو لاعوام ... فانما يوم سجني تاج ايامي
قضيت حرا ، حقوق النفس كاملة ... واليوم في السجن أقضي حق اقوامي
ان يسجنوني فجرمي يا له شرفا ... اني احارب قوما أهل اجرام
« محمد » كسّر الاصنام شامخة ... من لي بتكسير « لوردات » كأصنام
يكفيهم حطة ان ليس يتبعهم ... منا سوى كل منحط ونمام
يا دولة يتساوى في نذالته ... جنديها الفدم في مندوبها السامي

وقال وهو يشير الى سجن اخيه العلامة المجاهد الخالد المرحوم السيد محمد رضا الصافي في ثورة العشرين التي حدثت سنة ١٩٢٠ الميلادية وقد كان من مصممي تخطيطها الثوري ، ورافعي رايتها الخفاقة حيث أبلى بلاءً حسنا في مقارعة الاستعمار حتى بات من قادة التحرير ، ورواد النضال في تاريخ العراق الحديث اذ عاش مندمجا بقضايا شعبه العظيم ، واستمرأ ويلات التعذيب ، وأهوال التنكيل في مراكز الاعتقال من أجل الحرية ، وما هاب حبل المشنقة عندما كان المستعمر يلوح به وان ايمانه المطلق بان الموت مصير كل انسان كان حافزا له على الاندفاع الصارم في مكافحة اعداء الشعب ... وهو بالاضافة الى كل هذا فقد كان شاعرا وطنيا يتحلى بروح البسالة والجرأة ، ويتسلح بمضاء العزيمة والثبات ، ويتفجّر بالحرف الثوري المعطاء .. فكانت أشعاره القومية التي تمده بها قريحته الفياضة . صواعق ملتهبة تنزل على رؤوس الخيانة لتحرقها وتجعلها اثرا بعد عين ... فتكون عبرة للآخرين ممن تسوّل له نفسه الانزلاق في هاوية العمالة ، والتمسح باذيال المستعمرين ، والتمرغ على اعتابهم القذرة .. كما اوتي مواهب عالية ، وصفات سامية جعلته يتمتع بشهر عظيمة ، ومنزلة كبيرة في

قلوب الجماهير .. انه رجل بين القلة من الرجال في كل جيل ..!..

سجنت وقبلي في العلا سجنوا اخي وآمل في العليا ان يسجنوا الابنا
اذا لم نورث تاج مجد وسؤدد لابنائنا طرا نورثهم سجنا

وفي قصيدته « العلاج بالكي » تبرم من الحياة ، واعراب عن خوالج نفسه ، وابانة عن مشاعر قلبه ، واستجابة لتجربة شعورية يعانيها ، فقد حسب لطول مكوثه في السجن انه اصبح من ساكني القبور ، فان اطلقوا سراحه ، فانه سيؤمن بالحشر ، كالميت الذي تعاد له الحياة ثانية لينتقل الى عالم الحشر كي يواجه يوم الحساب .

ويتألم من أقصى أعماق قلبه ، لما يلقاه من ألوان التعذيب ، حتى بات لا يحسب ايام سجنه من عمره ، وما ينفك حارس السجن يجدد له الآمال بقرب الافراج عنه ... ويوصيه بالصبر .. ولكن كيف يصبر الجالسون على الجمر ..!

ان الناس لشدة يأسهم من الشفاء عالجوا داءهم بالكي .. كذلك يداوي السجّان آلامه بالصبر فيقول :

حسبت لطول السجن اني في قبر فان يخرجوني منه آمنت بالحشر
فكم وعدوني بالخروج ولم تزل عيوني مع الموتى الى موعد النشر
من العمر لا يحسبن ايام محبسي وان كان منها اليوم أطول من عمري
أموت وأحيا في يد الموت والرجا فأخرج من قبر وأدخل في قبر
يجدّد لي الآمال حارس محبسي فيوقظ لي الآلام من حيث لايدري
وكم قال لي صبراً على السجن ضيقاً وكيف اصطبار الجالسين على الجمر
من اليأس داوى الناس بالكي داءهم كذاك يداويني ذوو السجن بالصبر

وفي قصيدته « فندق السجن » سخرية لاذعة ، وفكاهة بارعة ، حيث يبرز معانيه بالاسلوب التهكمي ، فقد شبه سجنه بفندق يؤمه النزلاء

الجدد من حين لآخر ، ثم لم يلبثوا أن يغادروه ... وهو وحده قابع فيه لا يبرحه حتى صار السجّان لطول ملازمته له كأخ يرثى لحاله ، ويبكى لألمه ... وقد ألف السجن حتى أصبح بيته ... لا يكترث بما يلقى من خطوب ، وما يكابد من شجون ... فهو يقابلها بنفس جذلى .. ما دام صائناً لكرامته ، حافظاً لعزته ، رافضاً لكل شكل من أشكال الخنوع فيقول :

سجنت وطال بي سجنىوكم من ... سجين جاءني يوما وولى
كأني رب نزل صرت ألقى ... من السجناء اصحابا وأهلا
أودّع فى الضحى اهلا كراما ... وأدعو فى المسا ، أهلا وسهلا
وأضحى الرفق بالسجناء دأبي ... وتسليتى لهم هما وشغلا
فيا ضيف السجون كرمت ضيفاً ... ويا نزل السجون قبحت نزلا
وكم يوم نسيت السجن فيه ... فذكرني به ضيف أطلا
طلبت مسلياً منه لهمي ... فلما ان رأى همّى تسلّى
ويوم كنت مسروراً بسجنى ... أرى السجّان فيه أخاً وخلا
أتاني مشفقاً فبكى لما بي ... فأبكاني فرحت أقول مهلا
بربك لا تذكرنى جروحي ... فذكر الداء ينكس من أبلا
ألفت السجن حتى صار بيتي ... وصارت بالخطوب النفس جذلى
كطير عاش فى الاقفاص رغداً ... فلا تذكر له روضاً وظلا
ويوم كنت فى سجنى وحيداً ... فلم أحمل من السجناء ثقلا
فقلت بحمد ربي صرت وحدى ... أعيش ولو بسجني ، مستقلا

وفى قصيدته « ملحمة السجن » تتفاعل المعانى فى نفسه فيعرضها فىصورة تعبيرية ناجحة ، وقد جاش صدره بانفعالات مضطربة ، واقتحمت نفسه احاسيس مختلفة ... وراحت تتقاذفه الافكار وتدفعه الى مزيد من الحيرة ، وتستفز ما ألم به من ضيق ، فتغلب على شعره الكآبة العميقة ، وتطبعه بطابع اللوعة المريرة ..!..

فهو يرى غربة الانسان سجنا له ... فكيف به وهو الضائع الغريب يدفع الى السجن ظلما وعدوانا ، فلا قريب يزوره ، ولا صديق يسأل عنه ، فامتلأت حياته بالوحشة السوداء التى تثير مشاعره الكامنة ، وتنكأ جراحه القديمة ... وفى هذا الجو القاتم المضطرب تلتهب شرارة ذهنه ، ويتمنى الزيارة له من قريب ، حتى ولو كانت زورة الاجل القريب ليريحه مما يعانيه من مضايقات وسأم وتذمر ، ومما يلقاه من معاملة قاسية على ايدي جلاوزة السجن من عملاء الاستعمار ..!

وتمتاز القصيدة بسلاسة اللفظ ، ورقة العبارة ، ودقيق المعانى ، وعميق الصور ، وتكامل البناء الفنى ، حيث قال :

أرى فى غربة الانسان سجنا ... فكيف بسجن انسان غريب
يزور رهين سجن أهل قربى ... ولكنى السجين بلا قريب
فمن لي ان أرى يأساً مريحا ... يخلصنى من الامل الكذوب
سأقتل حي آمالى سريعا ... وارجع منه ذا سيف خضيب
فان لخادع الآمال عقبى ... تزيد مرارة القلب الكئيب
وان لوامع الآمال آل ... يزيد المحل فى القفر الجديب
سيمسكني وقار اليأس كيلا ... اراني لعبة الامل اللعوب
واغضى عن سنا الآمال طرفى ... وأدخل ظلمة اليأس الرهيب
فان أشعة الآمال تحكى ... نصالا واخزات للقلوب
تقطب لي السما بالسحب وجها ... كأن لم يكف دنياها قطوبى
وتبسم لي البروق بها وكم لي ... بسحب النفس من برق خلوب
سحائب يارقات بالامانى ... ولكن باخلات بالسكوب
تسامرنى همومى فى الدياجى ... ويطربنى فؤادى بالوجيب
فكم فى السجن من ليل غضوب ... وكم فى السجن من يوم عصيب
وزاد علي ضيق السجن انى ... حرمت به من الخل الاريب

فأدعو الله تعجيلا بفك لسجني ، أو بسجن فتى لبيب
تمنيت الزيارة من قريب وان تك زورة الأجل القريب

وفي قصيدته « ليل السجن » يطلق الزفرات المكتومة في صدره ، اذ تعود الافكار المضطربة تقتحمه وتقذف به تحت طاحونة العذاب تاركة في نفسه أسوأ الاثر ، وهو خلف قبضان السجن ، ونضو أقسى ألوان اليأس ، فتطفح نفسه بمشاعر الكآبة ، ويبلغ الالم اقصى مداه ... حيث ان نهاره قد غدا ليلا من عبوس السجن ، وليله كألف ليل لما يكتنفه من الكروب، واذا مالت الشمس نحو الغروب، يتحسس نفسه الحائرة الحزينة تميل هي الاخرى الى الغروب ...!

وكان قلقا في هذه اللحظات ، شديد التبرم ، وهو يبدع في وصف الليل الذي رماه بأنواع الخطوب ، وترك في جوانحه ادمى الندوب ، اذ يلبس مسوح الرهبان ، وقلبه لم يكن غير شيطان رهيب ، وتحت ثيابه السوداء تكمن افاعي الهموم ، وعقارب الوشاة ، وضوارى الشرور المحددة المخالب والنيوب ...!

وينام على سواعده الناس ، فيرضعهم بالحليب المسموم ، ويغمرهم بالاحلام العذاب ، ويسقيهم من الرنق المشوب ، ويهدهدهم بصمته الشامل ، بيد ان زئير نكباته يصك اسماع القلوب ... وما الافق سوى فمه ، وما النجوم غير نيوبه ...!

ان الشاعر يريد ان يتنفس في اجواء الحرية ، وهو يرى جسمه سجنا لروحه الطامحة المتحفزة ، وتضايقه النسائم بالهبوب ، وكيف يطيق الحر ضيق السجن ، وهو يضيق حتى بفضاء الكون الرحيب ...!

ومن غير شك ان السجن مجتمع الرزايا ، ولكنه يفتح امام الرجل الاديب آفاقا جديدة لمعرفة الحياة ، فيطل على الاجواء الانسانية البعيدة من خلال ذاتيته التي لا يحدّ تطلعاتها زمان ومكان ..!

والقصيدة بعد كل هذا من الشعر الزاخر بالاحساس المتدفق ، والخالى من التعقيد ، والمتسم بصدق التعبير الفنى ، وروعة الصور الشعرية النابعة من صلب الموضوع ، فيقول :

نهارى من عبوس السجن ليل ... وليلى ألف ليل من كروبي
اذا مالت ذكاء الى غروب ... أرى نفسى تميل الى غروب
أفتش فى ظلامى عن رجاء ... فأدخل فى ظلام من غيوب
تسارع فى خطاك الي شوقا ... مسارعة المحبّ الى الحبيب
وتلقى كل رحلك فوق صدري ... وتجثم فوق قلبي كالخطوب
ألا يا ليل كم لك من خطوب ... وكم لك فى الجوانح من ندوب
أتلبس مثل رهبان ، مسوحاً ... وقلبك قلب شيطان رهيب
فكم وسعت ثيابك من افاعي ... همـوم مقلقات بالدبيب
وكم ضمت عقارب من وشاة ... بألسنة لوادغ للقلوب
وكم أخفت شرورا كالضوارى ... محددة المخالب والنيوب
فلو خلعوا ثيابك عنك أبدت ... الينا كل أنواع العيوب
يلوح اهابك الضافى ، ظلاماً ... ويخفى شكل حيوان عجيب
تنام على سواعدك البرايا ... فترضعهم بمسموم الحليب
وتغمرهم بأحلام كذاب ... وتسقيهم من الرنق المشوب
تهدهدهم بصمتك وهو يحكي ... زئيراً صك أسماع القلوب
كأن الافق شدقك رحت منه ... تكشّر عن نجوم كالنيوب
ألا يا ليل حسبك ليل سجني ... وحسبك عن كروبك لي كروبى
كرهت القبر بعد الموت سجنا ... وعفت اللبث فىالوطن الخصيب
فما أرضى ولو فى الخلد حبسا ... ولو ما بين ازهار وطيب
أيحبس من يجرّم اى حبس ... وكل مناه تحرير الشعوب
أيحبس شاعر حر رقيق ... تضايقه النسائم بالهبوب

يرى من جسمه سجنا عليه	يكاد يهمّ منه بالوثوب
رأيت السجن مجتمع الرزايا	ولا كالسجن للرجل الاديب
وكيف يطبق ضيق السجن حرّ	يضيق به فضا الكون الرحيب

ويطل علينا بروحه الاليفة ، وفكاهته الطريفة ،ونكاته اللطيفة ، فلم يفته ان يصف لنا غرفة سجنه التي لا تصلح الا لسكنى أقزام بني الحيوان ، فكيف ببني البشر ، فمن بدا منها كأنما هو ظاهر من القبر ، وسقفها الواطيء غطاء لمن نام فيها ، وتاج لمن عبرها ، وكأنه كابوس فوق الصدر ، أو طود من الحجر ، وهى كصندوق بضاعة ، وسجناؤها المدخر ، وكلما رام السجين الفرار منها لا يستطيع ذلك ، اذ كيف السبيل للفرار من القبر ؟

ويحدثنا عن حقيبته ، فهى لا تنفك تسأله متى السفر ؟ وتشكو اليه الضجر ، وقد جلست فى جانب الباب جلوس المنتظر ، فهى سجينة مثل صاحبها ، وليس لها ذنب سوى ذنب القدر ، فراحت تبكى بلا دمع منهمر ، وتكاد تفقد عيناها البصر من الغبار المتراكم عليها ...!

والقصيدة من الطرافة بمكان ، ففيها نلمح صورا واقعية ، ويتسم اسلوبها ببساطة التعبير ، وحسن الاداء وهى تستثير لدى القاريء الشعور بالمشاركة الوجدانية ، وتجعله يتحسس كل كلمة فيها .. اذ يقول :

أقمت فى السجن ، ويا	بئس السجون من مقر
فى غرفة واطئة	تحبّ فى الضيف القصر
يسير فيها راكعاً	كل أمرء فيها خطر
فهى لاقزام بني	الحيوان لا بني البشر
يمشي على اربعة	اذا بها الطويل مر
كأن من يدخلها	يندس فى جوف الحفر
ومن بدا منها تخا	له من القبر ظهر

كأنمـا السـقف لضم أرضهـا قـد انحدر
فسقفها والارض شطران تعـالى مـن شـطر
وسـقفها غطـاء مـن نام ، وتـاج من عبـر
ينـام سـقفها عـلى من نـام فيهـا واسـتقر
فسقفها الكابوس فـوق الصدر أو طـود حجـر
تضـايق الجالس فيهـا ان تمطّى أو زفـر
ان شخر الضيف بهـا تخـال سـقفها انفجـر
فهـي كصندوق بضـا عـة ، ونحـن المدخـر
ضيقـة ضـاق بهـا الفكر كما ضـاق النظـر
وجـار ضبّ هـذه أم قبـر جـنّ محتقر
كم رمت منهـا ان افـر وهـل من القبـر مفر
فهـي سـواء والـردى ورودهـا بـلا صدر
دار انتحـار هـذه كم أمـل فيهـا انتحر
قـد مرّ لي شـهر بها كـان من المـوت امـر
و « شـنتتي » تنظر لي تسـألنى متـى السـفر
تشـكو الي ، مثلمـا اشـكو انا لهـا الضجـر
ليس الغبـار فوقهـا من سـفر بل من حضر
قـد جلست فى جانب البـاب جلوس المنتظـر
مسجونـة مثـلي ولا ذنب سـوى ذنب القدر
قـد سلبوا جوازهـا منهـا فمالهـا ممـر
طول النهـار لا نـزا ل نتبـادل النظـر
اخالهـا تبكـى وان لم ار دمعهـا انهمـر
تبكـي بعين حالهـا ودمعهـا قـد استتر
كادت مـن الغبـاران تفقـد عيناهـا البصـر

رمت صوالج القدر | بنا كأننا أكر
فهل تعيد قذفنا | الى أماكن أخر
تجدّد اللعب فتر | مينا ولو الى سقر

ويصوّر لنا غرفة سجنه تصويرا واقعيا ، وليس من صنع الوهم ، وابتداع الخيال ، ويعرض مشاهد حية مما رآه فيها ، وهو يعيش في واقعه المؤلم ...!

فهذه الغرفة قد بدت عارية ، فكأنما سجنوه في القفار ، ويلفه غطاء سميك من الغبار ... بالاضافة الى ان الغطاء البالى القديم الذى زودوه به ، والذى كان يكسو وجهه بغريب الاصواف والاوبار ... فيلوح كنوع من الوحش الذى لا نظير له لغرابته ... فيقول :

سجنوني في غرفة قد تعرت | فكأني سجنت وسط القفار
جاعلا من ترابها لي فراشا | وغطاء يلفني من غبار
ثم زادوا على الغبار غطاء | من نسيج مضعضع منهار
فاذا نمت يكتسي منه وجهي | بغريب الاصواف والاوبار
فتراني في الصبح امضغ شعرا | وترابا برغم حلقي سار
فكأني أكلت نصف فراشي | وكأني شربت نصف دثاري
وكأني والصوف كلل وجهي | نوع وحش ما مر بالافكار

ويعود واصفا لنا غرفة سجنه التى اقيمت في موضع مرتفع يطل على فضاء فسيح .. وبدا فيها كالطير الذى زج في قفص معلق في الهواء ... ويراها قبرا سواء حفروه في الارض أو في السماء .. اذ يقول :

هي سجن وان تعالت ، فسجنى | قفص لي معلق في الهواء
قبرى السجن صار ، والقبر قبر | حفروه فيالارض او في السماء

وكانت غرفة سجنه خالية من كل اثر للاثاث فقال :

رمونا كالبضائع فی سجون | وعافونا ولم يبدوا اكتراثا
رمونا فی السجون بلا اثاث | فأصبحنا لسجنهم اثاثا

وكان السجانون قد حاولوا وضع الشاعر فی غرفة مزدحمة بالسجناء ، ولم تكن غير قفص حقيقی على سطح ادارة الامن العام الافرنسية ، ولحسن الحظ لم يكن له متسع فيها ، فاضطروا الى ادخاله فی غرفة أخرى أخف منها بلاء ، واقل سكانا ، فقال :

راموا دخولی بسجن كان يخنقنی | فعاقنی عنه رهط فيه مسجون
كانوا يريدون لي دفنا فأنقذنی | من محنة الدفن ان القبر مشحون

ويأتی على ذكر خدام السجن الذين لم يكونوا سوى طغمة من قساة القلوب ، وضعاف العقول ، والذين اعمت بصيرتهم غشاوة الاطماع ، فكان يحدق فيهم النظر ، ووجهه طافح بالالم الصامت ، ويقول وهو يكظم غيظه واحزانه •

وخدام قساة اغبياء | ضعاف العقل اموات القلوب
اشاهد منهم الاطماع حولی | تدور تكاد تأكل لي جيوبی
كأنّی ساكن قبرا أغذّي | به الحشرات من شتى الضروب
كأنّ عيونهم حشرات نهش | طلعن عليّ من خلل الثقوب

ولشدة ما لاقاه الشاعر من صنوف العذاب فی السجن ، تمنى ان يصاب جسمه بالمرض بعد أن رأى الموت بعينه فقال :

ضاق بي السجن فقلت هل مرض | ينقذني من شر سجن قد أمض
لا غروان بهو السجين مرضا | فمن رأى الموت حلاله المرض

وقد تحقق ما كان يتمناه من الوقوع فريسة بين مخالب المرض ••• ولكنه حينما اشتد عليه المرض فی السجن وكان الانكليز يعللونه كل يوم بأنهم أبرقوا الى حكومة العراق يسألونها رأيها فيه ، وقد مرّت عليه

سبعة وعشرون يوما وهو يعاني وطأة الداء الثقيل ، وهم لا يسمحون بنقله الى المستشفى فقد قال :

سجنت وقد أصبحت سلوتي — من السقم عدّي للاضلع
اعالج بالصبر برح السقام — ولكن علاجي لم ينجع
اتاني الطبيب وولى سدى — وراح الشفيع فلم يشفع
وكم قيل مدد مدى الاصطبار — ومهما عراك فلا تجزع
وكم ذا امد مدى الاصطبار — فان زدت في مده يقطع
ولما بكى ساجني رحمة — اجابوا التشفع للادمع
ولكنهم صادفوا عقدة — بأمري تعيي حجى الالمعي
حكومة لبنان قد راجعت — فرنسا لفكي فلم تسطع
وراحت فرنسا الى الانكليز — تراجعهم جل من مرجع
وقد راجع الانكليز العراق — ولليوم بالامر لم يصدع
فقلت اعجبوا ايها السامعون — ويا أيها الخلق قولوا معي
أمن قوتي صرت ام ضعفهم — خطيرا على دول أربع

ولما اشرف من شدة المرض على الخطر نقل الى مستشفى « سان جورج » حيث رأى من العناية به ما يذكره دائما بالشكر ، وكان يبدل الشرطي المكلف بحراسته في كل ست ساعات بحارس جديد ، فقال يصف الرقابة عليه في المستشفى :

ادخلني السجن في مصح — جميع اربابه كرام
لكنني قد منعت فيه — من ان يحييني الانام
يشير طرفي لمن يحيي — ان لا سلام ولا كلام
ولا التفات ولا انعطاف — ولا لحاظ ولا ابتسام
منبوذ قوم الهنود احكي — تقربي للورى حرام
أقيم في الباب لي « بليس » — كي لا يرى مني انهزام

لحاظه كلها سباب ووجهه كله خصام
ملازم لي بلا وداد كأنه دائي العقام
فقلت ما ذاك لي مصح هذا هو السجن والسلام

وظلت الروح الفكهة تطغى عليه ، وهو فى اشد حالات الالم ... تسرى به احساسات حية ، تثير رواقد عواطفه ... اذ شرع وهو فى المصح يصف الشرطي الذى يقوم على حراسته ، وكانت عيناه تقدحان شررا وغضبا ... فكان الناس يمرون من الشاعر وهم يرنون اليه بعيون ملؤها الهلع .. كأنه واحد من القتلة السفاكين ، واذا ما وجّه نظراته اليهم هرولوا فزعين ، وقد خيل اليهم انهم أمام ليث يحاول الوثوب عليهم من عرينه الموصد الابواب فيقول :

السجن امرض لي جسمي فصيرني الى مصح يداوى برح أوصابى
نسيت سجني وبلواه فذكرني به على الباب شرطى كبواب
أضحى يوجه لي الانظار عابرة كأنما هو اعلان على بابي
وأصبحت نظرات الناس تشهد لي اني سجين فتشجيني على مابي
يرنون لي بعيون ملؤها هلع كأنني رب اجرام وارهاب
وان نظرت اليهم هرولوا فزعاً كأنما انا ليث محبسي غابى

وكان على يقين تام ان انكلترا قد أنزلت بامته العربية أشد الوان الكوارث والنكبات ، ولقى منها شعبه صنوف الاستعباد ، وضروب التنكيل ، واستنزفت موارده الطبيعية ، وسلبت منه خيراته المعدنية ، واستلت طاقاته الانتاجية ابشع استغلال ، وتركته جائعا تفتك به الامراض ، ويستحوذ عليه الجهل ، وسلمته الى عملائها المأجورين ليشنوا عليه حملات الارهاب والتعذيب ، انكلترا التى لا تقيم للفكر وزنا فى حياة الشعوب ، ولا تألو جهدا فى محاربة المجاهدين الابطال الذين ينادون بالحرية ، هى نفسها تحاول اليوم اطفاء شعلة الثورة المتوهجة فى الصافي ، بعد ان عرفت خطورة شأنه ،

وعظيم اثره فى بعث الروح الوطنية فى نفوس الجماهير ، وحثها على الصمود البطولى بوجه الاستعمار ومرتزقته ، بعد ان طال عليها ليل الظلم والطغيان ...!

هذا الشاعر الذى صفا جوهره ، ورق احساسه ، واستنارت بصيرته ، ابى اى لون من الوان الاستبداد والعبودية ، وحطم اصنام الجمود ، فكيف يتوارى وجلا عن ميدان المعركة وهو يسمع انين المظلومين وكأنها طعنات نجلاء توجه الى صدره ، وكيف لا تشحذ فكره الاحداث الدامية ؟ وكيف لا يقف فى وجه العابثين بحقوق امته وكرامتها ؟

وظلت عينه ساهرة لن تنام ، وهو بالمرصاد لكل معتد اثيم ، يقوى عزائم المكافحين ليثخنوا الطغاة المستبدين بالجراح ، وينشدوا حقهم فى الحياة .. وان كان الوصول الى الحق السليب على جسر من التضحيات الجسام ، وفوق جماجم الشهداء ..!..

وبرزت قوى الشر من مكامنها تنفث السموم القاتلة ، وتقف للوطنين الشجعان بالمرصاد ، فزجت بالشاعر فى ظلام السجن ، ليكابد اعمال القمع والوحشية ، ويعاني آلام الوحدة المريرة ، واللوعة المحرقة ، والآهة الحرى ، وفى لحظة الانفعالات الشعورية اعلن الحرب على انكلترا ، فقال :

خسئت انكلترا والله — اعمى مقلتيها
قبرها فى كل أرض — حفرته بيديها
سجنتني دون ذنب — غير لعني أبويها
أمنت حربى ، وسجنى — يعلن الحرب عليها

وكان الشاعر على صلة دائمة بأحداث الوطن العربى الكبير وكلها خطير ينذر بالشر ، تصنعها الاصابع الاجنبية الطامعة ، وفى مقدمتها الاصابع الانكليزية التى كانت تنسج فى جنح الظلام خيوط المأساة ، مأساة

فلسطين العربية ، التى سلمتها الى العصابات الصهيونية لتقيم على ارضها الطيبة كيان دولتها اللقيطة اسرائيل ومع كل هذه الاحداث الدموية التى سادت الواقع العربى بفعل مؤامرات انكلترا الدنيئة ... هناك من ينسب الانسانية والرحمة والعدل الى الانكليز ...

فانبرى الشاعر يلقم هذه الافواه الكريهة حجرا قائلا :

غرنا بالسراب شر دعاة | حين قالوا ، الانكليز عدول
قلت ليت المغول ترجع يوما | لترى ما جنته هذى المغول

وقد اظهر الانكليز على حقيقتهم الصارخة فى قوله :

يصول الانكليز على ضعيف | ولا يبدون للخصم العنيف
هم المكروب فى جسم البرايا | يفتش كي يحط على ضعيف

ومن اللفتات الفكرية الرائعة قوله :

ولقد سجنت بكف أجبن أمة | بالرجل تركض للممات وباليد
ما رمت من سجنى الخروج مسارعا | الا لانظر كيف موت المعتدى

وبقى الشاعر يعيش مع شعبه العربى مشاكله وازماته ، وظل لهب الثورة فى شعره يشوى وجوه المستعمرين ، شعره الذى ما فتىء يغذيه بروحه وفكره ، شعره النابع من الشعور الدافق ، والاحساس الصادق ، المعبر عن ادق الخلجات النفسية ، والرامى الى انتشال الانسانية من وهدة الاستعمار ، والمتسم بالروح الوطنية . وهو بالنظر لما ينتاب ابناء شعبه العربي من آلام ، وما يكتنفهم من اضطهاد على أيدي الانكليز ... واصل نضاله العنيف ضدهم ، وراحت تحاربهم روحه وكفه ومنطقه ، وان حاولوا قتله فسيحاربهم دمه الثائر النقى ، فيقول :

أحارب جنس الانكليز لانني | وقفت على نصر الحقيقة مخذمي
أحاربهم حربي لكل رذيلة | الى كل شيطان ، الى كل ارقم

اخاف اذا ماتوا ، تموت ابالس فأبقى بلا لغني لهم ، نصف مسلم
تحاربهم روحي وكفي ومنطقي وان هم نووا قتلى يحاربهم دمي

ان الشعوب الضعيفة التى ظلت ردحا من الزمن تئن تحت كابوس الاستعمار الانكليزى ، ما لبثت ان استفاقت من رقدتها الطويلة ، وتفتحت أمامها آفاق الحياة المثلى ، واندفعت الى مرحلة الانطلاق ، واشعلت نيران الثورات التحرية على الانكليز الذين اضطروا تحت وطأة الكفاح العنيد الى الانسحاب عن الكثير من مستعمراتهم التى لا تغيب عنها الشمس وانوفهم راغمة فى التراب ، فقال :

حرر الانكليز مستعمرات حين باتت على شفا الاخطار
كلما فر من يد الطفل طير قال اطلقته لوجه البارى
منحونا حرية حين مدت نحو اعناقهم يد الجزار
بخلاء ما دام فيهم حياة كرماء فى حالة الاحتضار

لقد فطر على الاستهزاء بخصوم أمته ، والضحك على مكائدهم اللعينة حيث قال :

مات من التخمة جار لنا وساقه الحرص الى حتفه
مثل فى البطنة انكلترا اذ مات واللحمة فى كفه

وفى قصيدته « الجواسيس » ينقلنا الى صعيد الواقع الملموس اذ شن هجوما مركزا على هؤلاء العملاء الذين يضلعون فى ركاب الاستعمار ، فلا يراعون مصلحة الوطن • ويخونون التربة الطيبة التى انجبتهم ، وهيأت لهم كل اسباب الرفاهية والعيش الرغيد •••!

لقد تبين جليا ، ان هؤلاء الاذناب لهم تأثير بعيد المدى ، عظيم الخطورة فى سد الطريق امام رجال الفكر لتعميق المفاهيم الوطنية فى اذهان الجماهير والطعن بأهدافهم النبيلة •••!

ان هذه النشاطات المشبوهة التى قامت بها بعض الفئات العميلة تستثير فى النفس هاجس الشعر •• فاستوعب شاعرنا الصافى الفكرة ، فكرة الجاسوسية بكاملها ، بعد ان تبلورت فى ذاته ، فطفق يصف الجواسيس وصفا دقيقا ، فهو يجيل فيهم نظرات الاطمئنان والثقة ، فلا يلقى منهم غير نظر المريب ، وهم خلانه بلا وداد ، واعداؤه بدون ذنوب ، وانهم ذوو النفوس الخبيثة والمجبولة على الغوص فى وحل العيوب •••!

والقصيدة امتازت بتصويرها الحقيقى للواقع الذى عاشه الشاعر فقال :

أفتش لا أرى حولي حبيباً	وكم شاهدت حولى من رقيب
أجيل بهم عيون أخى وثوق	فألقى منهم نظر المريب
هم الخلان لي لا عن وداد	هم الاعداء لي لا عن ذنوب
نفوس قد ربين على عيوب	فما يحسن بالامر المعيب
ومن ينمى الى عيب تحرّى	عيوب الناس يبحث عن نسيب
وكم قد غرنى مرأى نجيب	بهم فنكبت بالمرأى النجيب
فما فى برقهم الاعماء	وما فى سحبهم غير القطوب
سأبعد عنهم الآمال حتى	تجيء الي بالغدق السكوب

وعندما اطلق جناح الشاعر من القيود ، صور واقعة الحقيقى الذى كان يحياه •• فقد ألف الحياة فى السجن بعد مكثه الطويل فيه الى حد انه كان يخشى ان يصاب بمس من الجنون اذا جاءه المبشر باطلاق سراحه • وعندما اطلق فعلا من السجن احس ان هذا الكون الفسيح سجن كبير فكأنه اعيد مجددا الى سجنه فقال :

كنت اخشى السجن ان تأت بشرى	بفكاكي ، أصب لها بالجنون
اطلقونى من بعد ما اعتدت سجنى	فكأني مجددا سجنوني

ان الانطباع الذى ترسب فى ذهنى وانا ادرس ديوان « حصاد

السجن » ان الشاعر احمد الصافي النجفي يعتبر الشعر رسالة انسانية مقدسة ، تتصل بأعماق الحياة ، يغني نفسه في تجربته الشعورية بكل ابعادها التي تبرز عناصر الواقعية بأروع صورها ، وادق تعابيرها ، وينفذ من خلالها الى الانسانية الشاملة ، مع توكيد وجداناته وعواطفه في كل آثاره الشعرية ...!

ان شعره المعبر الصادق عن خوالج نفسه ، وكوامن مشاعره ، والذي منه يطل على أحزان الآخرين ، قد سخره لخدمة امته العربية التي يكن لها اخلص مشاعر الحب ، والتي بدأت تنفض عنها غبار الماضي المؤلم ، وتطغى عليها الروح التحررية على نحو لم يعرفه التاريخ فقد اكدت الرفض القاطع لكل اشكال الاستعمار ومواصلة النضال حتى النصر ..!

وقد أخذت تبرز هذه الظاهرة بوضوح سيما بعد نكبتها بضياع فلسطين ، وقيام دولة اسرائيل اللقيطة على ارضها الطاهرة سنة « ١٩٤٨ » الميلادية على الرغم من تقديم مئات الشهداء الذين سقطوا صرعى في معارك الحرية ، وسقو بدمائهم الزكية ارض العروبة ليكونوا الشعلة الوهاجة التي تنير الدرب امام جحافل القوى الثورية لاسترداد حقوقها السليبة ، وكذلك بعد اشتعال فتيل الثورة العارمة التيأضرم نيرانها اللاهبة الشعب العربي في مصر سنة « ١٩٥٢ » الميلادية والتي ما زالت النبع الصافي الذي ترتوي منه نفوس الاحرار ، والقبس الذي يضيء طريق النضال ، لبناء المجتمع العربي على أسس مكينة من التحرر والوحدة والتقدم .

فمنذ ذلك الحين حتى يومنا هذا ، والشاعر يعيش هذه الاحداث ويعي وقائعها ، ويشعر بأن جميع ما يحيط به من مشاهد وكوارث هي جزء منه ، كما انه جزء منها ، وهو شديد الانفعال بالمأساة ، مأساة اللاجئين العرب ، يتفطر قلبه اسى على ما يقاسونه من آلام الجوع والتشريد والمرض، ويستشعر الكثير من الحزن ، وهو يستعرض بفكره هذه الصور الكئيبة ..

فتتدفق من قيثارته الملأى باللحن الحزين انغام شعرية كأنها بركان تغلى في قلبه الحمم ، تنم عن مدى الترابط القائم بينه وبين احداث امته العربية التى عمقت من ايمانه برسالة الشعر الخالدة •••

وان ديوانه « حصاد السجن » مرآة صافية انعكست عليها مختلف الصور ، صور مأساة حياته الكفاحية المريرة ، وشدة ارتطامه بصخور الالم ، ودلل بما لا يدع مجالا للشك على مشاركته في النضال العربى بزخم وطني متدفق ، وهو يشهد احتشاد الطلائع الثورية في جنوب اليمن المحتل وعمان والجزائر ، وخوضها المعارك المصيرية ، لتسقى الارض العربية بدماء الشهداء ، لان طريق الحرية لم يكن في يوم من الايام مفروشا بالرياحين والورود ، وانما كان دوما مصبوغا بالنجيع القانى ••!

ومما لا يرقى اليه ريب ، ان الدفق الشعورى يتولد من الانفعالات الشعورية ، فقد جاءت ملامح « حصاد السجن » تطفح بالاحداث المثيرة التى تأثر فيها ••• وتلك ملامح بارزة في كل شعره ، وهو في جملته انما يعبر في معناه ولفظه عن ارادة الجماهير العربية الثائرة لاسترجاع الاراضى المغتصبة التى اقتطعها الاستعمار من جسم الوطن العربى الكبير ، والتى تكاد عيونها تكتحل بأنوار فجر الوحدة الشاملة •••!

ان الشاعر يملك قدرة نادرة على استيعاب كل ما يدور حوله ، واصطياد الموضوعات المثيرة ذات الطابع الواقعي والانسانى ، والغنية بصور التعبير ، وهو في كل مراحل جهاده الادبي الرائع ، وأعطى الانتاج المتوخى ، والثمر المطلوب مما شده الى قلوب القراء على اختلاف عقائدهم وميولهم ، ولم يستطع الاستعمار ان ينتزع القلم من بين انامله ، أو يخنق صوته المدوّى ••• وستبقى اشعاره دررا ساطعة في جيد الادب العربى

لقد صور الحياة أبدع تصوير ، وعبر عن عصره أروع تعبير ، وكل بيت من شعره يحرك النفس ويهزها طربا ••• وهذا يعني بوضوح ان صيته سيظل ذائعا على مر الازمان والعصور •••!

الصافي وقضية فلسطين

حينما نزلت الكارثة بالامة العربية كارثة اغتصاب فلسطين لتكون قاعدة لاقامة الكياني الصهيوني عليها وذلك بعد انسحاب جيوش الاحتلال الانكليزي منها في الخامس عشر من شهر مايس سنة « ١٩٤٨ » الميلادية كان لابد من اتخاذ مواقف حازمة تنسجم وتطورات الاحداث ••• وذلك باعداد الجماهير العربية لتعيش الجهاد ، وتحيا الكفاح ، وتندفع لخوض الثورة بكل ابعادها ، وعلى مختلف مستوياتها ••

وان الحرب النفسية التي شنتها اسرائيل لقتل المعنويات العالية ، واجهاض روح الثورة ، وصد تيار المقاومة ، وشل حركة التحرر القومي ، وتصفية الصمود النضالي ، وخلق المعوقات امام انطلاقته الثورية ••• قد باءت بالاخفاق الذريع ، والفشل التام ••• فان الشعراء العرب الثوريين الذين لا يتزعزع ايمانهم بالنصر ، ولا تثبط عزائمهم التخرصات المضللة عن السعي من اجله ••• قد ادركوا ان الكلمة الملتزمة الثائرة لها تأثيرها القوي في بلورة الوعي الثوري ، وفعلها فعل البندقية في المعركة ، تدفع بالثورة المشتعلة الى آفاق من التبلور والنضوج ، وتوضح رؤياها النضالية ، وبعدها الموضوعي •••

والاستاذ الصافي في مقدمة الشعراء العرب قد اندفع بحماسة اقوى ، وعزيمة أمضى الى مواصلة الكفاح ليؤدي دوره المنشود في ديمومة المعركة ، وله القدح المعلى في هذا المجال الفريد ••• وان الدافع الوطني المخلص هو المحرك الحقيقي لتكريس اغلب شعره القومي الى رفع القدرة الكفاحية الى مستوى التصدي والهجوم رغم سطوة الاحتلال ، وقوة البطش ••• وهذا دليل ناصع على عمق ايمانه ، وصلابة عقيدته بمنطق الثورة ضد الغزاة المحتلين •••

وانه انطلاقا من فكره النير اهتم اهتماما بالغا بقضية فلسطين ... ذلك الاهتمام الذى ينطوى على الفهم الكامل الذى اعطاها ابعادها القومية التقدمية ... اذ أنه والالم يمزق نياط قلبه راح يكشف مدى البؤس الذى يعيشه اللاجئون العرب بشكل يهز ضمير العالم ..

ان شعر الصافي القومى يدور ضمن منطق الثورة الواقعى المؤمن بالتحرر الكلى لفلسطين ، واعتبار قضيتها القضية الاولى والحاسمة بين قضايا العرب الكبرى التى تحتمها الظروف الموضوعية ...

وعلى صوت اشعار الصافى التى اهتزت لاصدائها المدوية قلوب الجماهير اندفع الثوار الفلسطينيون عبر اصعب المسالك وأخطرها لخوض المعارك الحامية مع عدو غادر شرس عبأ كل قواه ضدنا ... وقد ضرب المجاهدون الابطال امثلة رائعة بعطائهم السخي بالتضحيات ، وارخاص الانفس لتعبيد طريق الانتصار ، وتحرير كل الاجزاء العربية المغتصبة ...

ولم تلبث المستعمرات الصهيونية ان اصبحت طعمة لرصاص بنادق الثوار ، وباتت اجساد جنود الاحتلال الاسرائيلى تلتهمها نيران المقاتلين العرب الذين هم سند الثورة الفلسطينية ودرعها الحصين ... فيناضلون بعناد وتصميم لتخليص وطنهم الغالى من نير الاجنبي المحتل ... وبدمائهم الزكية يحققون لشعبهم الحرية والاستقلال ..

ان ناقوس الخطر الذى دق فى وجه الاستعمار والصهيونية لن يتوقف مطلقا عن الرنين ، ولن تهدأ ساحات النضال العنيد ، وان سفك الدماء لن يعيق مسيرة الكفاح الشعبى ... فقد زحفت طلائع الموكب نحو طريق الانتصار لتشدد من قبضتها على اعناق المحتلين ، وتقطع الايدى التى تمتد فى الظلام ، وتسجل ملاحم بطولية رائعة للتخلص من الاستعباد بكل اشكاله وصوره ...!

ان الدور البارز الذى اضطلع به الشعب العربى الفلسطينى لتصفية الكيان الصهيونى العميل ، وتحرير وطنه ، وبناء مستقبله قد احدث تحولات عميقة فى مجرى الحركات الوطنية داخل الوطن العربى الكبير .. حيث وضعت نصب عينيها استيعاب شروط المرحلة الجديدة التى تمر بها الامة العربية ... فأصبح انطلاقها من مصلحة الجماهير التى يجب ان تكون المحور الذى تلتقى عنده اطراف الثورات القومية ، وآمنت بالاشتراكية باعتبارها الطريق الوحيد للقضاء على التخلف ورفع مستوى حياة الشغيلة ، وجعلت الوحدة الشاملة هدفها الاسمى الذى ينبثق عن الانتصارات التي تتحقق بنضال الجماهير التي تنهض بالاعباء الكفاحية ، وتتصدى لرصاص الطغاة بصدورها العامرة بالايمان مهما كان طريق الكفاح مزروعا بالالغام ، ومحفوفا بالمهالك ...

والاستاذ الصافي فى قصيدته « مناجاة » يتطرق لذكر نكبة فلسطين السليبة ، اذ لم يشهد التاريخ عبر القرون الكثيرة التيمرت على البشرية مأساة انسانية كالمأساة التي وقعت على الشعب العربي فى فلسطين ، فأصبح فريسة لأنياب البؤس والشقاء ، وفوادح الخطوب !

وهي مناجاة روحية عاطفية غنية بالتجارب الحيّة ، تهز الشعور ، وتستثير الاحساس ، وتضفي جواً مشحونا بالألم العميق !

انه الشاعر الرهيف الوجدان الذى ظهرت له الحقيقة الساطعة فشعر بها ، وتلمس خطورتها ، خطورة الاحداث المؤلمة التي تكمن وراء نكبة فلسطين ، تلك النكبة التى أثارت الاحزان والشجون ، فينقل تجاربه الحيّة بكل بساطة ، انها من شعره النابض بالحياة والصدق ، تتماوج فى لحن سماوي، ملأى بعاطفة جياشة بالاسى ، طافحة بنشيج اللوعة، ودموع الألم ، وحرارة اللهفة ..!...

ان هذا التجاوب العميق لا يستبعد من شاعر يفهم رسالته السامية ،

ويقدّر مسؤولياته نحو أخيه الانسان العربي فى فلسطين حيث يعيش مشرداً فى الصحاري الجرداء ، والقفار القاحلة فيقول :

أتصبح هاتيك الحقائق أوهاما وتحكمنا صهيون عرباً واسلاما
إلهي ان نعجز فلست بعاجز ففيم اذن اسكنت بيتك هداما
أفي منزل الارواح تسكن اجساما وفي مهبط الاملاك تجعل اصناما
وفى شرقك الروحي تترك أمة تكالب اطماعاً وتنهش اجراما
وما الشرق الا معبد لك خالد لدينك كهاناً يضم وخداما
أتصبح ارض القدس دار خلاعة وتبدل من طهر العبادة آثاما

وحينما سلب اليهود (فلسطين) ذلك القطر العربي المقدس ، لم يتردد الشاعر في شجب واستنكار هذا العدوان الأثيم ، واشتد الوعي عنده، وغلا الدم فى عروقه ، للفاجعة الانسانية التى حلت بالشعب الفلسطيني ، وبدأ يعبّر عن المشاعر الفياضة ، مشاعر جميع العرب في غمرة تلك الاحداث الخطيرة التى كانت تهدد منطقة الشرق الاوسط بأخطار الحروب الطاحنة اذ سادها جو مشحون بالتوتر الذى بدأت نذره تلوح فى الأفق ، وفى هذا ما فيه من خطورة على العالم بأسره !

وفي خضم المعارك المصيرية ، كان الشاعر أحد قلائل فهموا مهزلة انقاذ فلسطين من الحكم اليهودي الارهابي على أيدي الجيوش العربية في اليوم الخامس عشر من شهر مايس عام « ١٩٤٨ » الميلادي ووعى كل الاساليب الاستعمارية ، ودحض ادعاءات الرجعية السوداء التي تتفانى في عبادة الاجنبي ، وتضلع فى ركابه ، وتتمسح بأعتابه ، وانطلق الشاعر من اساره ، وطفق يجاهد جهاداً مريراً ، ودعا الى استنهاض هممِ الشباب ، وخلق الوعي عندهم ، والقيام بأعمال انتقامية ضد اليهود ، وكشف حقيقة التخلف فى واقع الحياة العربية ، وأزاح الستار عن أوضاعها الشاذة التي مازلنا نعاني مساوئها وأوصابها . !

وقضية فلسطين هي أولى القضايا القومية العليا ، وقد خلفت آثاراً خطيرة ، ولئن كان الدرس قاسياً مريراً ، والجرح عميقاً بليغاً ، فان العرب ما زالوا يعملون جادين لتحقيق هدفهم المنشود ، وتأدية رسالتهم لتحرير فلسطين ، ويؤمنون ايماناً قوياً لا يشوبه شك أو تردد بأن النصر حليفهم ، وقد بدأ هذا الطابع جلياً منذ النكبة الكبرى التي اصيب بها العرب في الحرب الفلسطينية ! حيث أبوا الركوع امام المعتدي ، وأعلنوا شجبهم لكل المواقف الانهزامية .

ان الاستاذ الصافي يرفض قرارات مجلس الامن ، وتبني الحلول التصفوية ، وازالة آثار العدوان ، ويدعو الى قلع جذور العدوان من أساسها وذلك عن طريق الكفاح المسلح وهذا أمر حتمي لابد من تحقيقه في الموقف الثوري الحازم ...

وقصيدة (محمد) تعني بتصوير حدث فلسطين ، وتدخل ضمن نطاق الشعر القومي ، وتكشف عن اخلاص الشاعر وقدرته على ابراز واقعنا العربي المؤلم بسخرية لاذعة . وتحذير الجماهير من الوقوع في مستنقع الخنوع .

والقصيدة ثورة قومية هادرة ، نفذ فيها الشاعر الى أغوار الاوضاع السائدة في وطننا العربي الكبير ، وعرف كل دقائقها ، وفضح البراقع المتهرئة وهي تؤلف جانباً رئيسياً من رسالته الوطنية المقدّسة !

وفيها يخاطب سيدنا (محمداً) الرسول العربي الكريم ، حيث أصبح قومه كالابل التي تسكع ليلا ونهاراً في اهمال وتسيب ، وهم يدعون الاسلام وقد قهرهم اليهود ، ويفاخرون بأنهم أسود ، وتسيطر عليهم الضباع ... اذ أصبحوا في موقف بالغ الحرج ...

لقد عاش المأساة التي ألمت بفلسطين العربية فعبر عن الألم الذي اعتصر نفسه ، وجسّد تجربة معاناته للنكبة قائلا :

« محمـد » هل لهذا جئت تسعى — وهل لك ينتمي همـل مشـاع
أإسـلام وتغلبهـم يهـود — وآسـاد وتقهـرهم ضبـاع
أيشغلهم عـن الجلّى نـزاع — وهـذا نـزع مـوت لا نـزاع
شرعت لهـم سبيل المجـد لكن — أضاعوا شـرعك السامي فضاعوا

لقد انتهج الاستاذ الصافي طريقاً جديداً فكانت أغلب نتاجاته تتفاعل مع الاحداث التي تمر بها الامة العربية ، ويكشف النقاب عن الاهداف الكامنة وراء تآمر الاستعمار على الشعوب المحبة للسلام ، ويحاول تمييع القضية الفلسطينية ، والقضاء على المقاومة المسلحة ، وتحويل جريمـة اسرائيل الى وجود شرعي ... تلك الجريمة التي لا سابق لها في تاريخ الانسانية ..

ومن مهازل الامور أن نجد المستعمر يظهر من حين لآخر كداعيـة للسلام ، وان طاحونة الحرب هو الذي يدير دفتها ، ويلهب فتيلها ...

وبحكم الاوضاع الشاذة التي كنا نعيشها من انفصام عـرى الوطن العربي الكبير ، وسيطرة الأنظمة الرجعية ، وتجزئة العمـل النضالي ، وتنافر القيادات ... كل هذه العوامل ساعدت على خلق الكيان الصهيوني المسخ ليكون ركيزة تحمي مصالح المستعمر واحتكاراته ، وتعتمد الأسلوب التآمري للقضاء على روح الثورة العربية ، والايقاع بمختلف فصائلهـا الثورية التي لن تلين ازاء من يقف في طريق ثورتها الظافرة التي جاءت ضربة قاصمة لكل القوى الرجعية .

ومن النظرة الواقعية لمجريات الأمور تعرف الشعب العربي عـلى الأخطاء التي وقع فيها ، وتلمس بنفسه واقعية احداث النكسـة وعاشـها وما زال يعيش أبعادها ... تلك النكسة التي حولت شعب فلسطين من حالة الضياع والتشرد والبؤس الى طليعة فدائيـة مقاتلة تخوض معركـة البسالة والشرف في كل الجبهات ، وعلى كل المستويات لسحق الشرذمة

الغاصبة رغم كل المعوقات التي زرعها الاستعمار ، والتي تحول دون مواصلة النضال ، وشل القدرة العربية .

ان النكسة التي حلت بنا في الخامس من شهر حزيران سنة « ١٩٦٧ » الميلادية قد خلفت جراحاً عميقة في جسد امتنا العربية ، ولكنها كانت نقطة البداية لانطلاق الانسان العربي حيث أيقظته من سباته ... فحملت طلائعه السلاح ، وسارت في درب الكفاح المسلح ... وقد رفضت كل أشكال الهزيمة ... فتوالت الثورات التحررية في بعض الأقطار العربية ، وأطاحت بالحكومات العميلة ، ووجهت الضربات القاصمة لظهر الاستعمار ، وقضت على الأذناب الذين يسيرون وراء سيدهم المستعمر ينفذون توصياته ، ويمررون مؤامراته ، ويتجسسون لحسابه ضاربين مصلحة الوطن عرض الحائط ، غير ملتفتين للاخطار التي تواجهها الامة العربية في ظروفها الراهنة ، وفي ضوء الاحداث المتلاحقة ...

ان الشعب العربي قد صمم على كسر قيوده التي كبل بها ، والتحرر من سجانيه ، ومحق الغزو الاسرائيلي بسواعد أبنائه الأشاوس ، وقوة ايمانه بحقه ، وعنف اصراره على البذل والتضحية ... ولن يتوانى عن استرخاص المهج والأرواح في سبيل صون كرامته وعزته .. ! ..

اننا أصحاب حق بأرضنا وليس هناك من قوة في العالم مهما تعاظمت أن تمنعنا من استرداد هذا الحق الواضح الصريح ، وان الجماهير العربية تتطلع اليوم وبلهفة الى تطهير التراب الفلسطيني من أرجاس الصهاينة المجرمين ..!..

ان اسرائيل التي يقوم كيانها على الافكار العنصرية والتوسعية والتمييز سوف تلقى على أيدي المقاتلين العرب الشجعان نهايتها المحتومة ... فطالما خرقت الحقوق الدولية للانسان ، ومعاهدتي جنيف ولاهاي بأستخدامها لقنابل النابالم المحرقة ، ووسائل الابادة الاخرى ضد الشعب العربي الذي

بقوافل شهدائه سيعبّد طريق الكفاح بما يكفل سيادة الوطن ، وحرية الأمة ..

لقد دللت الوقائع على ان الخامس من حزيران لم يكن بداية لاجهاض الثورة العربية ، وانما كان حافزاً على تجاوز كل حالات الاستسلام والتخاذل ، والقضاء على روح اليأس والقنوط في نفوس الجماهير ...

ولما كانت مسؤولية اختيار الطريق تقع على عاتق الشعب الفلسطيني بالذات فقد انبثق من بين صفوفه العمل الفدائي الذي تجسّد فيه عمق ادراكه لمهام خوض المعارك المصيرية ، والذى برهن بقوته الخلاقة ، وصموده الثابت انه قادر على إبعاد شبح المصير المؤلم ، والذود عن كرامة الأمة ، والدفاع عن أمجادها ، وبالتالي تحرير فلسطين ، وان كان تحقيق هذه الأماني يستلزم بذل مزيد من التضحيات ...

ان النكسة جاءت نتيجة للواقع الفاسد الذي كنا نعيشه ونعانيه ... ولم تلبث المنطقة العربية ان شهدت ميلاد العمل الفدائي الذي اختصر الفترة الزمنية والتاريخية لبلوغ الظفر ، وصنع معجزة الصمود البطولي ، ومثّل قمة التحدي للاحتلال الصهيوني بالاساليب الثورية التي اعتمدها ، والتي ستحقق الأمل بالعودة الى الأرض المقدسة ، بعد توحيد صفوف المقاومة المسلحة ، وصهرها في جبهة واحدة ، وقيادة موحدة ...

ان العمل الفدائي أصبح قوة ضخمة لا تقهر ... فهو يرفض كل صيغ الهزيمة ، ويخوض المعارك الحاسمة في تلاحم شعبي رائع مهما اكتنف طريقه من معوقات ، واستطاع بدماء قوافل شهدائه أن يكتب النصر ، وعلى جماجمهم أن يشيد صرح الحرية .!

ولاجل أن تتمكن الأمة العربية من اثبات وجودها عليها أن تكرّس كل طاقاتها لاسناد الفصائل الفدائية في معركتها الفاصلة التي ستوصلها حتماً الى طريق الفوز ... !

ومن خلال الرؤية الثورية لمتطلبات النضال القومي كان بزوغ فجر الثورة الفلسطينية المسلحة التي أدانت العقليات المتخلفة ، والقيادات الهزيلة التي جرّت على الأمة العربية الويلات ، وجهرت برفضها للمشاريع الانهزامية .. هذه الثورة التي غيرت المفاهيم المتهرئة التي تسود الذهنية العربية ، ووقفت موقف الصلابة تجاه القضايا المصيرية ، وازاء كل عمل استسلامي وتصفوي ، ومثلت الرد الحاسم لنكسة حزيران ، واعتمدت حرب التحرير الشعبية الشاملة الطريق الوحيد لتحقيق الأهداف الكبرى في التحرير والعودة ، ورفض الحلول السلمية التي تستهدف تصفية القضية الفلسطينية ، وتثبيت الكيان الصهيوني على الارض العربية ..

ان تصعيد الثورة الفلسطينية واستمراريتها في ساحة المعركة النضالية تتوقف على خنق كل محاولات النيل منها ، والقضاء عليها كالحصار والتطويق والتصفية التي تزمع العناصر الانتهازية تنفيذها ، ووجوب الالتزام بوحدة الأداة الثورية ، والالتحام بالجماهير العربية ، وصمود شعبنا العربي في الأرض المحتلة ، وتعميق مفهوم النضال الثوري في النفوس ، وتطوير الأساليب الكفاحية ، وتصحيح الأخطاء التي اقترفناها ، واتخاذ كل الأرض العربية قواعد لانطلاق الثورة الفلسطينية ... وبذا نفوّت على الاستعمار فرصة التآمر والطعن من الخلف ، والتلاعب بمقدارت الأمة ، والعبث بمقدساتها وتلويث تربتها الطيبة بارجاس الغزاة المحتلين ..

ان صمود شعبنا العربي في الأرض المحتلة كان هو الآخر يمثّل الرد العنيف على كل الهزائم والنكسات ، والقضاء على أسبابها ومسبباتها ... فعلى الرغم من ان العدو الصهيوني ما برح يمارس في الضفة الغربية وقطاع غزة سياسة التجويع والقتل والطرد ... فقد ظل متمسكاً بأرضه وبيته ومزرعته ومعمله ... ولأجل أن تتعاظم ارادة التحدي والصمود ، وتتفاعل مع الثورة العربية وعدم الانتقاص منها واجهاضها بات لزاماً على الدول

العربية أن تمده بالعون المالي ، وتحديد المواقف السياسية والعسكرية من ركائز الرجعية العربية وذيولها من خلال الدور الذي تمارسه على أرض المعركة ، ووضع فصائل الفداء ، والكفاح الجماهيري المسلح ، والقوى الثورة الشعبية ضمن تيار الثورة العربية المعاصرة ، تلك القوى التي لها الدور الايجابي في احراز الظفر النهائي ، ورفع راية الحرية عالياً على أرضنا المقدسة ..!. ارض الثورات والبطولات ..!..

ان أعمال العنف ومداهمة منازل العرب في الأرض المحتلة ، واغتيال المدنيين العزّل على أيدي العصابات الصهيونية ، والمجازر الوحشية التي تقترفها كل يوم بحق الأطفال والشيوخ ، ودك الطائرات الاسرائيلية للقرى الآمنة ، وتمزيق أجساد الأبرياء ... جعلت القوى الخيرة في العالم تتعرف بشكل ملموس واقع القضية الفلسطينية وحقيقة جوهرها ، ونضال شعبها العادل فمنحتها التأييد المطلق ، ووهبتها من عطائها الثر زخماً من الاسناد الفعلي مادياً ومعنوياً ... وحظيت منها بكل تعاطف وتجاوب ..!..

ان حركة التحرر العربي ومثيلاتها في العالم تصب في خضم تيارات الشعوب المكافحة لبلوغها الهدف المشترك فى دحر الاستعمار ، وانقاذ البلاد من أغلاله الصدئة ومن ثمّ تقرير المصير ، وهي تعرف سلفاً جسامة التضحيات التي يتطلبها احراز النصر .....

وفي هذه المرحلة الخطيرة التي تمر بها أمتنا العربية تبرز فاعلية الشعر الثوري كوسيلة من وسائل التوعية ... ولما كان الشاعر الملتزم انساناً مثقفاً يعي عمله الشعري ، ويدرك بعمق مدى أهمية مشاركته في التعبير عن التجارب الكبيرة لجيلنا الحاضر ... لذا فهو يعتبر حجر الزاوية في المجتمع بحكم رسالته المقدّسة ، وطبيعة عمله القيادي ، وطاقاته الخلاّقة التي يكرسها لخوض المعركة الجماهيرية لتحرير الانسان والأرض ، وهو يعكس هذه الحقيقة في مسيرته النضالية ...

وأمام الشاعر العربي الحديث مهمة ملحة وضرورية وهي توحيد الجهود العربية وتنسيقها ، ودعم المقاومة الفلسطينية بجميع الوسائل ، وتعرية المتآمرين لخدمة أسيادهم المستعمرين ، وتطبيق مخططاتهم السوداء ، واعتماده الصراحة التامة حيال قضايانا المصيرية ، وشحذه الاحساس بالمسؤولية ، واستناده الى أساس عقائدي ، ومخاطبته العقل ، وابتعاده عن الاثارة العاطفية الآنية ، ومواصلته مسيرة الحرف المناضل الشريف الذي ينسجم مع الواقع الثوري الجديد ، والعالم التقدّمي المتميز بروحية التحرر من أصفاد العبودية ... وتلك هي أبرز السمات للشاعر القومي ...

وانطلاقاً من الوعي الثوري الخلاّق ، والتجارب الرائدة فان الأدب العربي المعاصر مراعاة للخصائص القومية قد تخطى كل الاساليب والاشكال الفنية الانهزامية ، وأصبح يلتصق بهموم الشعب ، يذكي في الجماهير روح الاستبسال والتصدي للعصابات الصهيونية التى فرضت ذل العبودية على الارض العربية باسناد من امريكا التى تعطى الدعم المطلق لاسرائيل ، والانحياز السافر ضد العرب . لحملهم على التسليم بالامر الواقع ...

والاستاذ الصافى الذى آمن بالشعب غاية ووسيلة ، وعكس النظرة القومية الاصيلة فى قصائده ، واغتنى القراء العرب بشعره تبصرا بالحياة ، وتفهما للوطنية ، وما زالوا ينفعلون به ويستمر هذا الانفعال دون انقطاع بعد ان اعاد للكلمة صداها فى النفوس حيث فقدت تأثيرها ... فقد واكب الاحداث الدامية عن قرب ، ووضع نفسه فى صميم الثورة العربية المعاصرة ، وأثار بقصائده مشاعر الالم والنقمة ، وهز ضمير الامة .. واعطى بعداً ايجابيا عميقا لجدوى الثورة الفلسطينية .. وما فتئ يصرح قائلا :

لن تحرر فلسطين الا بالمعركة ولا شيء غير المعركة هذه المعركة الدائرة بيننا وبين اسرائيل ، والتى تمس شعبنا العربى فى صميم وجوده ..!

ولا شك ان الثورة الواضحة الاهداف تؤكد بالوقائع على انها المنعطف التاريخي الهام ، والاسلوب الناجز والوحيد الذى يتسع لكل مطامح الجماهير • والاكثر قدرة على التصدى لتحرير الانسان العربى من اغلاله ، وكسر الطوق الذي ضرب عليه ، وانتصاره فى صراعه المحتوم مع الاعداء الذين استهدفوا فرض الاستسلام على امتنا التى ما تزال ترزح تحت ثقل الهزيمة ، والتى القت تبعة فشلها على تشتت آراء الزعماء والساسة •••

ان الوضع الراهن لم يعد يحتمل المماطلات فلابد من وضع الامور فى نصابها ، والممثلة بوحدة الجيوش العربية ووحدة قيادتها •

ان الشعب الفلسطينى المدرك لقضيته ، والذائد عنها ، والصامد بوجه المعوقات ، والمجتاز كل الصعاب قد زج جميع الطاقات فى الزخم الثورى ، واولع لهب الثورة التى شقت طريقها فى ضمير الجماهير العربية التى فرضت ارادتها على الحكام المتخاذلين ، واخذت دورها فى معركة المصير ، وصمت على القتال حتى النفس الاخير ••! ••

ان روحية الاستبسال التى يتمتع بها الشعب الفلسطينى الصامد ، واصراره على التصميم فى تحمل أعباء المعركة الحاسمة ••• كل هذه الحوافز جعلته يواصل مسيرة ثورته المنطلقة الزاحفة ، ولم تثن المؤمرات عزيمة مضائه ، او تزعزع قوة ايمانه ، او توقف عجلة عمله الفدائى عن السير ، والذى وضع العرب على طريق التحرر ••!••

ان التصدي لحركة المقاومة المسلحة وقواها الضاربة معناه ضرب الثورة العربية فى صميمها •• تلك الثورة التقدمية الواعية التي لابد من حمايتها ، ودعم مسيرتها بكل الوسائل والامكانيات ••!•

ا نطريق الكفاح المسلح شاق وطويل يتخلله الكثير من العقبات والعثرات ••• ولكنه الطريق الذى لا بديل عنه للوصول الى النصر ••!•

ان اسرائيل التى قامت بعدوان خاطف بعد ان مهدت له بنشاط جوى شل طيران الجمهورية العربية المتحدة ، ودمر جميع مطاراتها وطائراتها الجاثمة على الارض فسيطر على سماء المعركة ، واوقع الهزيمة النكراء بالجيوش العربية ••• وكان من اثر ذلك ان استحوذت اسرائيل على البقية الباقية من ارض فلسطين فضلا عن مساحات شاسعة من البلاد المجاورة كشبه جزيرة سيناء وقطاع غزة والضفة الغربية وهضبة الجولان وسفوح جبل الشيخ ومحافظة القنيطرة •••

ومن اجل قهر الطغيان ، وانتزاع الحرية انبثقت المنظمات الفدائية التي أخذت على عاتقها مهمة اقلاق الجبهة الداخلية لاسرائيل، وتربص الفرص للكيد لها ، والايقاع بها عن طريق حرب الانصار الاستنزافية وراء خطوط النار ••• وقد قويت وسائل هجومها ، وتطورت قدراتها ،وحنكتها التجارب بالمعارك العنيفة التى خاضتها حتى باتت مصدر قلق دائم لاسرائيل ، ولا بد من انجاز مهام التحرير الكامل بعد التمسك الاخوى بين الاقطار العربية •••

ان هناك ثقة لا تتزعزع ، وايمانا لا يتسرب اليه الشك فى ان المسيرة الثورية تتقدم رغم كل العوائق وفى كل الظروف ••• بعد ان ادركنا المخاطر التى تحيق بنا ••• فخرجت صيغنا الكلامية عن طابع الشعارات المجردة الى حين التنفيذ مهما بذلنا من جهد متواصل ، وسعي جاد ••• فقد صرنا نتطلع بشوق ولهفة الى خوض حرب التحرير الشامل ••!••

ان حشد القوى العربية لم يكن اعتباطا او مجرد رغبة عابرة ••• وانما اصبح من الضرورى واللازم ••• وان اى كلام يؤكد هذه الحقيقة تحصيل حاصل ••• وان الوقت قد حان لنستدرك الكثير من الحقائق فنؤدى واجبنا على الوجه الاكمل بعد ان تولدت فى نفوسنا رغبة قوية فى القتال حتى النصر •••! ••

ان الجماهير العربية تقف اليوم موقفا صلبا ضد كل المشاريع الاستسلامية والتصفوية ابتداءا من وعد بلفور وانتهاء بمقترحات روجرز . تلك المشاريع التى تخضع لمنطق الاستسلام للهزيمة ، والتى تحاول تصفية القضية الفلسطينية نهائيا ، وطعن الامة العربية فى اعز امانيها ، والاعتراف الرسمى باسرائيل لتظل اداة استنزاف كبرى تعمل على عرقلة تطلعات الشعب العربى الى اجراءات التحولات الاجتماعية والاقتصادية ..

ان الشعب الفلسطينى الذى نكب بضياع وطنه ، وتشريد ابنائه نتيجة تواطؤ الحاكمين مع الاستعمار البريطانى ، وبسبب الخيانات التى ظهرت على مسرح الاحداث لقد رفض كل اشكال التسويات الاستسلامية ، وادرك ان طريق الحرية هو طريق الجهاد الثورى الطويل ، وان تحقيق هدفه بالتحرير الشامل لا يكون الا بتصعيد الحركات النضالية بكل ابعادها الثورية ... فأخذ يؤدى دوره المنشود ، وينهض بمهامه ... وانطلقت الثورة الفلسطينية من وعى كامل بثورة الجماهير على الاسهام الفعلى فى بلوغ النصر ... الثورة العارمة التى لها ابعادها فى التخطيط ، ولها مقوماتها فى الاعداد ، والتي لم تنطلق عن موقف عاطفي بعيدا عن الحقائق الموضوعية ، والتى ملكت لنفسها الوجود الحتمى فاندفعت بمنطق الثورة السليم لقيادة النضال الجماهيرى ، وخوض معركة تقرير المصير ، والانسلاخ من اغلال العبودية ، وتحويل الهزيمة الى منطلق للنصر ، وتحقيق هدف الشعب الفلسطينى فى التحرير والعودة الى ارض الوطن .

في لقاء الصافي

كنت «للصافي» شديد الانعطاف   فاذا الدهر بما أصبو يوافي
والتقينا فى دمشق بعدما   أحرق الشوق ضلوعي وشغافى
وتجلّت روح أسمى شاعر   كسنى الشمس على خضر الضفاف
فرأيت العزّ فى عليائه   والاباء الجمّ فى ثوب العفاف
والمثال الحيّ فى اقدامه   لم يهن حتى نهايات المطاف
لم يطأطيء هامه في ذلة   لثريّ لازماً عيش الكفاف
لا ولا لان لاهوال الاسى   حينما مرّ بأعوام عجاف
شعره أسكرنا فى خمره   حيث كنا فى ربوع الاصطياف
واذا أنشدنا اغرودة   تتسامى عن غموض وزحاف
حلّقت ارواحنا فى عالم   من خيالات وأحلام لطاف
واذا غنّى بموسيقى الهوى   تكتسي بالمرج واحات الفيافى
فى الرياض الغين يقضى عمره   قاطفاً من حسنها خير اقتطاف
وأحبّ العيش فى حضن الربى   ناشقاً منها عبير الاعتكاف
تخذ «الربوة»(١) محرابا له   يعبد السحر بها ، سحر التصافى
عشق الوحدة فى أكنافها   حيث يحيا فى رحاب الائتلاف
ينزل الوحي عليه عندها   وحي شعر رائع دون اعتساف
والربيع الطلق ان وافى لها   تتراءى كعروس فى زفاف
ويعود البلبل الشادى الى   وكره والشمس عند الانصراف
وهو فى مقهى «كمال»(٢) اذ أرى   حوله كم من أديب أو صحافي

---

(١) منتزه الربوة : أحد منتزهات دمشق الجميلة .
(٢) مقهى الكمال الصيفي : من مقاهي دمشق الشهيرة .

كلّهم حجّوا اليـه أنهم	طوّقوا كرسيّه عبر التفاف
وصغوا الدّر منظوماً كما	رشفوا من فيضه أحلى ارتشاف
حيث يتلو بينهم اضمامة	من قصيد سابر غور الخوافي

* * *

من أغاني الطير أضحى خاطفاً	قبساً من لحنها أسنى أختطاف
نشوة تسري بقلبي كلما	بتّ في «تيّار»[٣] رهن انجراف
كرحيق الزهر أمسى شعره	حوله قام العطاشى بالطواف
حرفه الاخضر في أندائه	من رؤى الفنّ محاجدب الجفاف
عبقري الشعر لا يدنو له	شاعر بين الورى حتى الرصافي
يرسل الحكمة في أشعاره	وبها يأسو جراحات الخلاف
غاص في بحر الدراى صائداً	كلّ أبكار المعاني والقوافي
رأيه الحرّ حسام باتر	وبه يقطع رأس الانحراف
نازع بالشدو من أعماقنا	ما يعادي كل حق أو ينافي
وضحايا البؤس في آثاره	كشفت آلامهم أيّ اكتشاف
عكست أشعاره كم صورة	من تصاوير المآسي والتجافي
فاذا جاش به احساسه	ليتيم حاسر الرأس وحافي
جائع لم يقترف إثماً ولا	نفسه تعرف معنى الاقتراف
ذرف الدمع عليه ناظراً	نحو شكواه بعين الانتصاف
شاعر ثار على أوضاعنا	ودعا دوما لاسعاد الضعاف
شاعر العرب غدا في امتي	انّها دانت له بالاعتراف

---

(٣) التيّار : من دواوين الصافي الرائعة .

الصافي في ايران



التقطت هذه الصورة التاريخية الفريدة فى العاصمة الايرانية طهران سنة « ١٩٢٤ » الميلادية ويظهر فيها من الجهة اليسرى الشاعر العربى الشهير السيد أحمد الصافى النجفي بزيه العلمي الديني وفى الوسط يبدو ملك الشعراء محمد تقي بهار والى جانبه من الجهة اليمنى يجلس الصحفي الشاعر الاديب ريحان صاحب « كل زرد » أي الوردة الصفراء وهى جريدة ادبية أسبوعية ••

أقام الشاعر الصافى ثمانى سنين فى طهران اى من سنة « ١٩٢٠ » الميلادية حتى سنة « ١٩٢٧ » الميلادية ••• وكان قد ذهب اليها لاجئا فى آخر ثورة العشرين المجيدة التى فجرها الشعب العراقى ضد الانكليز فى الثلاثين من شهر حزيران سنة « ١٩٢٠ » الميلادية اذ كان مساهما مع عدد من الشباب فى المطالبة بأستقلال العراق ، وكان بيته فى النجف الاشرف حينذاك احد مراكز التخطيط للثورة التحررية الرائدة ••

وعندما وصل الى طهران لم يشأ ان يضيع الوقت سدى فأقبل على تعلم الفارسية حيث عين فيما بعد استاذا للادب العربى فى ثلاث مدارس ثانوية وهى المدرسة العلمية والمدرسة السلطانية والمدرسة الكمالية ... وبعد سنتين استقال من التدريس بسبب ضعف صحته ، وأقبل على الكتابة فى الصحف والمجلات منها جريدة « شفق سرخ » وجريدة « ستاره ايران » ومجلة « ارمغان » ومجلة « تربية وتعليم » وغيرها ...

وكانت اول جريدة حرر فيها هى جريدة « شفق سرخ » لصاحبها الكاتب الاديب الاستاذ المرحوم علي الدشتي عضو مجلس الاعيان سابقا .. ثم انتخب عضوا فى النادى الادبى ، ثم عضوا فى لجنة الترجمة والتأليف حيث ترجم لوزارة المعارف كتاب « علم النفس » تأليف الشاعر علي الجارم والاستاذ مصطفى أمين ... ثم ترجم رباعيات الخيام تلك الترجمة الرائعة ... والتي ما تزال الفريدة فى نوعها ...

وأثناء اقامته فى طهران تعرف الى ملك الشعراء « محمد تقي بهار » وسرعان ما توثقت بينهما عرى الصداقة .. وكان اول من دله على الشاعرية القوية الكامنة فى روحه ، وشجعه على ممارسة قول الشعر .

اما ملك الشعراء هذا فكان فضلا عن كونه من اكبر شعراء ايران أدباً ومقاماً يتمتع بمزايا عديدة فكان مؤرخاً ، وصحافياً . وقد أصدر مجلته « نوبهار » أى الربيع الجديد عدة سنوات ، وكان زعيما سياسيا ، وخطيبا جريئا ، وانتخب مرات عديدة نائبا عن طهران ، وعين وزيرا للمعارف ، وقد تعرض بسبب جرأته اكثر من مرة لاطلاق الرصاص عليه من قبل السلطات ... وكان نبيلا حر الرأى ، وجوادا سخيّ العطاء ، وصديقا ثابت الوفاء ... وبالاجمال كان مثال الايرانى العريق ... وكان بيته الذى يقع خارج طهران ويبعد عنها مسافة نصف ساعة ملتقى الادباء والاصدقاء والمراجعين الذين لم يكن يبخل عليهم بدافع شعوره الانسانى ،

ونفوذه الواسع فى التوسط لهم ، وحل مشاكلهم •••

وكان رحمه الله محباً للعرب ، معترفاً بفضلهم •• واتفق ان سأله الشاعر الصافي يوماً عن رأيه في الحملة الجائرة التي يشنها بعض القوميين الفرس على العرب بحجة أنهم فتحوا بلادهم ، وحكموها عدة قرون ، ونشروا فيها دينهم ولغتهم وآدابهم • وكان جوابه « ان هؤلاء القوميين المتحاملين على العرب مخطئون في رأيهم فالعرب وان كانوا فتحوا بلادنا فقد علمونا الحرية لانا كنا قبلهم مستعبدين لاكابرنا هذا فضلا عن أنهم اعطونا الدين الاسلامي العظيم » •

وقد نقل الشاعر الصافي هذا الرأي للاستاذ العلامة محمد جميل بيهم منذ بضعة عشر عاماً فأثبته في كتابه « العروبة والشعوبيات الحديثة » الذي صدر في ذلك الحين ••

وقد اتفق ان أحضر أحد أقرباء الاستاذ الصافي من العراق منذ سنة رسماً تذكارياً له مع ملك الشعراء أخذ سنة » ١٩٢٤ « الميلادية وكان قد نسيه منذ بارح النجف الاشرف قبل أربعين عاماً تقريباً ••• وحين رأى ذلك الرسم عادت له ذكرياته القديمة في طهران ، تلك الذكريات الحافلة بالمتع الروحية والأدبية حيث قضى هناك زهرة أيام شبابه ••!••

وكانت موجة الافراح تدفق في صدره ، والانشداد الى الشوق يتفاقم في قلبه وهو يحدق في الرسم حيث بدأت تتراءى أمامه صور ساطعة للماضي البعيد الذي عاشه في ربوع ايران •• وهو في مستهل حياته الأدبية يعيش أسعد اللحظات في بيئة خصبة رفدته بمعطيات الحياة الدافقة ، وألقت على خياله ظلالا بهيجة من الرؤى الباسمة التي أضفت على انتاجه الشعري الهادف كثيراً من الروعة والشمول • وأمدته بكل مقومات البقاء والصمود -••

وقد قال الصافي وهو ينقّل نظره الحالم في الرسم ويشعر بالفرحة

تغمر كل كيانه ، ويحسّ بحيوية الشعر تنبع من طبعه الاصيل :

جلست اليوم مصطحباً برسم ... ودنيـا من جميل الذكريات
رجعت بـه الى طهران داراً ... أقمت بهـا سنيناً ناعمـات
مليك الشعر كنت لـه وزيراً ... لدى كشف المخبأ من هباتي
وقال لديك روح الشعر تسمو ... عـلى كل النفوس الشـاعرات
فقلت ففيم لست أجيـد نظماً ... فقـال النظم غير الموهبـات
فـذا كالرمل منتشـر وهذي ... نـوادر كاللئـالي النـادرات
نظرت بـه نبيّ الشعر عني ... تنبـأ بالقوافـي الخالـدات
نظرت لوجهه في الرسـم أبدي ... له شكري عـلى عرفان ذاتي
وقلت اليك مـا قطفت يـداه ... وزيرك في الحياة وفي الممات
أقول الموت لـكن أي موت ... لقوم ادركوا سـر الحيـاة
لنـا لقيـا فهيء لي مكاناً ... بجنبك في الجنان الناضـرات
وهيىء ندوة فيها «الكمالي[1]» ... وكل ذوي النفوس الشاعرات
فذارك منتـدى الشعراء كانت ... فصـل في الخلد ماضيهـا بآت

وهكذا كان هـذا التصوير حافزاً لاستجمـاع افكاره ، ولم شتات خواطره ، وانطلاق مشاعره المكبوتة التيانصهرت في بودقـة هـذا الشعر الرقيق الالفاظ ، والسامي المحتوى •• والشعر كالمرآة ترتسم عليه المعاني والصور •• ! ••

---

(١) أحد شيوخ الشعر الظرفاء وكان صديقاً للصافي وملك الشعراء.

وحدة الموضوع في شعر الصافي

من الامور المسلم بها ان العمل النقدي الهادف عندنا لم يؤد مهمته .. وذلك لأن عملية النقد عملية ابداعية تقوم على ابراز الخصائص الفنيــة للعمل الادبي ، وتوضيح الجوانب الجمالية فيه ... والنهج الفني للنقــد يعتمد بالدرجة الاولى على أسس جمالية تنبثق من داخل النص المنقود .. اذ يتخذها المؤلف لبنة قوية لدعم اسلوبه .

وهناك نقطة هامة لابد من الاشارة اليها .. وهي ان السمات التي يجب توفرها فى الناقد الادبي هى استيعابه للثقافــة النقــدية بمفهومها الصحيح ... والتى يمكن حصرها بالاطلاع على روائع التراث الادبي فى مختلف عصوره على النطاق المحلي والعالمي ، وذلك بالعكوف على دراسته ، وتفحص خصائصه ومميزاته ، ومتابعة تطوراته ... مضافا الى كل هــذا توفر عنصر الابداع والموهبة لدى الناقد مـع التجرد الشخصى ، وتجنب الاهواء الذاتية حين ممارسته للنقد الذى يجب أن يكون نقداً موضوعيــاً بصرف النظر عن شخصية المنقود ... ولا بأس من محاولة الكشف عن اتجاهاته وأفكاره المبثوثة فى مضمون النص ..

ومن المهم جداً أن تكون عملية النقد بعيدة كل البعد عن المهاترات ، ومتمسكة بالاخلاق الفاضلة ، والمنهجية العلمية للوصول الى نتائج مثمـرة تنهض بأدبنا المعاصر ليواكب مسيرة الادب العالمي .. اذ ان النقد عمليــة بناء وتقويم ، وعرض للحقائق بشكل سليم ، وعن طريقه يستطيع الناقـد ايراد الدليل الحاسم ، بعد أن تتم له معرفة أصول النقد وأساليبه ...

ان الافتقار الى الثقافة النقدية الموجهة يبعد الناقد عن بلوغ الاهداف المنشودة ، ولا يمكنــه من بلوغ غايتــه المطلوبة يوم ما ... فيلجأ الى التهريج والنهش والطعن ، ويدع العواطف والاهواء تلعب دورها السلبي

في مسيرة النقد ••• وهي الادوات المفضلة لدى الناقد السطحي ••• وهذا يعني البعد عن موضوعية النقد ، وايقاف عجلة العمل الادبي عن السير في طريق التطور ، والحد من ديمومة زخم الفكر الانساني •••

ان النقد الصحيح له مدلوله الخاص في توضيح ابعاد النص •• حيث يستجلي حقيقته ، ويحدد مكانته في آفاق الدراسة المنهجية ••• فهو يتسم بطابع التحقيق العلمي ، واستقلاله الفكرى اللذين عن طريقهما يتمكن الناقد من تشخيص الاساليب الفنية ، ومعرفة مواطن الجودة والضعف فيما أعد الادباء من نتاجات ادبية ، وطرائق تعبيرهم ، ويتحسس نوعية اسلوبهم، ومدى تطوره •

لقد سقنا هذه الكلمة المقتضبة عن النقد بمناسبة الحملات العنيفة التي يتعرض لها الشعر التقليدى ، والتي تتهمه بالافتقار لوحدة الموضوع •••

ان الاستاذ الصافي من شعرائنا الملتزمين بالوزن والقافية يمتاز بخصب الغنائية في شعره المستوحى من تجربته الذاتية ، والمستمد من ثقافته الانسانية النابعة من واقع الانسان العربي ، والمؤطر باطار الموسيقى التقليدية ••• فهو من رواد النغم الداخلي في القصيدة العربية ، والقافية الموحدة ••• اذ أنه ليس من المتمردين على الاساليب الشكلية ، ولكنه يطرز أشعاره بالاستعارات الجميلة ، والتشبيهات الرائعة •••• وهي مركزة في معانيها المكثفة غاية التركيز ، وموشاة بظلال اختلاجاته النفسية ••• ولم يحد عن هذا الطريق الذى سار عليه ، وألزم به نفسه ••!•••

ان هؤلاء الذين يحتجون في الدعوة الى الشعر الحر ، وترك الوزن والقافية بأن وحدة الموضوع لا تتحقق مع التقيد بالوزن والقافية ••• وان الرد عليهم يكمن في شعر الصافي الذى تحويه دواوينه الثلاثة عشر فقد جمع بين وحدة البيت ووحدة الموضوع ، وجال في آفاق ما جال فيها شاعر

قبله ... ولم يقف التقيد بالوزن والقافية حائلا دون وحـدة الموضوع السائدة على شعره ...

وان وحدة الموضوع ليست جديدة فى عمود الشعر فهي متوفرة فى الشعر الجاهلي أيضا اذ لا نكاد نقرأ قصيدة للشعراء الجاهليين الا ونجد وحدة الموضوع ماثلة أمام أعيننا فى شعرهم، وما ذلك الا لصدق شعورهم ... ومتى كان الشاعر صادقا فى التعبير عن شعوره فهو اذا قال شعراً يكون ذلك الشعر منعكساً عن شعوره المتصل ، ولا ينتهي الشعر الا اذا أنهى الشاعر اظهار جميع شعوره ، وبذلك تتحقق وحدة الموضوع ...

اما بعض الشعر القديم غير الجاهلي الذى يفتقر الى وحدة الموضوع فالسبب فى ذلك يعود الى فقدان الشعور الصادق منه ... فهو لم يجىء نتيجة شعور متدفق وانما جاء نتيجة وضعه بيت من الشرق وآخـر من الغرب ... وان مثل هـذا النظم لا يجوز أن يسمى شعراً لأنـه فاقـد للعنصر الاساسي فى الشعر وهو الشعور الصادق ..

ولاشك اننا نجد وحدة الموضوع متوفرة فى عمود الشعر القديم لدى الشعراء الكبار كما هو ظاهر فى اشعار ابى نؤاس وابن الرومي وفى كثير من شعر ابي الطيب المتنبي وغيرهم ...

أما هذه الدعوة التي نسمع بها ، والتى تستهدف الاستهانة بالشـعر العمودى ، وبالتالى الاجهاز عليه ... انما يقـوم بهـا الناقمون الذين لا يستطيعون أن يأتوا بدليـل قاطع يؤيد دعواهم ... ولـكنهم يجيدون التهجم الذى لا يرافقه برهان مقنع ، وكلامهم أقرب الى التراشق بالسباب منه الى التحري عن الحقيقة ... ولذلك فقد جاء شعر الصافي الغـزير بمعطياته، والمتنوّع بمعانيه ، والحاوي لوحدة البيت ووحدة الموضوع حجة قوية تدمغ مفتريات هؤلاء الدعاة ، وتؤكد باطل دعوتهم ...

ومن الطريف فى الامر أن أكثر الدعوات التجديدية ظهرت فى العراق ••• فالادباء العراقيون يضطلعون بالدور الاول فى بعث الحياة الجديدة فى نواحيها المختلفة الادبية والسياسية ••• كما أن حركة التقليد تجد فى العراق تربة خصبة أكثر مما تجد فى بقية الاقطار العربية الاخرى •

وفى العراق نشأت أول حركة تجديد فى شعرنا العربي الحديث •• انها حركة الشعر الحر، والتي يتزعمها الشاعر المرحوم بدر شاكر السياب التماساً للمشاركة فى بناء الشكل على قواعد من التجديد ••

وقال الشعراء الذين يمارسون عملية نظم الشعر الحر انه ظاهرة أدبية جديدة تفرضها ضرورات العصر ••• حيث أن متطلبات هذا العصر وما جدّ فيه من معارف وعلوم تستوجب على الشاعر أن يلم بكل هذه الجوانب ، ويستوحي منها مادته الشعرية ••• والا رافق نتاجاته عدم امكانية تحقيق أية فائدة منها ، ولأنها اولاً وآخراً لا تؤدي الى أية غاية متوخاة •••

ولأجل أن تنجح محاولات الشعر فى مواكبة روح العصر أصبحت هناك ضرورة حيوية فى الانطلاق من قيود الوزن والقافية ••• فالمهم عندهم عمق التجربة ، وصدق التعبير ، وبأي شكل فلتظهر الفكرة ••• وراحوا ينمون هذا الاسلوب، ويعززون من كيانه للحفاظ على ما فيه من رمق الحياة، وعدم اجهاض تجربته التعبيرية ، وتمكيناً من قدرتهم على صياغة شعرهم الجديد •••

وبالرغم من كل هذه المزايا التي يتباهى بها انصار الشعر الحر فهناك ظاهرة واضحة نلحظها لدى طائفة كبيرة ممن يعتمدون الانفلات من أوزان الفراهيدي أساساً لنظمهم ••• تلك الظاهرة هي الابهام والغموض اللذان يلفان صيغهم اللغوية والفكرية ••• وذلك فى استخدامهم للتعابير

والاساليب التي تعبّر عن فقرهم الادبي ، وجدبهم العاطفي ••• فهناك اضطراب شديد ينتظم عملية التفكير والتعبير مرده عدم استقرار الفكرة فى أذهانهم ••• وبالتالي فهم لا يملكون القدرة على اخراجها فى أطار طبيعي واضح •• ولم نعد نلمس عندهم أي بناء فني للقصيدة سوى تعبيرات غامضة تسود ذلك البناء المتداعي •••

ان الشعر الحر بعد أن فقد السبيل الذى اختطه لنفسه ترك أثراً سيئاً فى العمل الادبي ، وبات الشاعر المتحرر من عمود الشعر يغلب عليه الزهو بالذات ••• فلم يعد يرى الا ذاته ، ولا يشخّص سوى نفسه محاولا الاجهاز على كل ما فى الشعر العربي من جمالية وموسيقى •••

ان البعض من أرباب الشعر الحر قد غالوا فى استعمال الرمز الى حد الابهام والغموض •• كما أنهم نبذوا الشعر القديم لا لشيء الا لكونه قديما ، وتمسكوا بالشعر الحديث المعروف بالشعر الحر باعتباره حديثا •••

وقد ادعوا ن قيمة الشعر ليست فى القالب الذى يصاغ به ، وانما تعود الى اصالة الموهبة ، وان التفرقة بين الشعر العمودي والشعر الحر هي تفرقة شكلية ليست ذات بال ••• ومن حق الشاعر أن يعرض عمله الشعري فى الشكل الذى يرغب ويهوى ، وليس هناك من مبرر منطقى يفرض عليه نوعية الشكل ، والبناء العضوي للقصيدة •

ان الشعر وزن وقافية ••• ولابد للشاعر أن يتعهد موهبته بالصقل والمران ، ويحرص على التمكن من قواعد اللغة وأصولها ، والاحاطة بالبحور الشعرية ، ويكون متميزاً بدقة الملاحظة ، ورهافة الاحساس ، وشفافية الرؤية ، وعمق التصوير ••!••

كما ان الشعر فن جميل ••• ولذا بات لزاماً على الشاعر انتقاء أرق الالفاظ ، وأحلى الصور ••• ليخرج العمل الشعري فى اسلوب بديع من النظم ، ويتجلى متشحاً بحلو الكلمات ، وعذوبة الرنين ••• تتوفر

فيه الاحاسيس والصور ••• ولذا فان الشعر لم يكن معداً للتعبير عن كل حاجات الحياة والافصاح عن كل مضمون ادبي •• فهناك مواضيع لايستساغ التعبير عنهـــا الا بالنثر ••• وليس الشعر الا ذوب احـاسيس وعاطفـة وانفعال •••

ولما كان لابد فى العمل الشعري من الالتـزام باللغـــة والاوزان والقافية ••• فقد حاول بعض الشعراء المعاصرين تخلصاً من هذه الفروض الشعرية انتهاج اسلوب الشعر الحر فى النظم ••• فهـــم يعتمدون على استعمال التفاعيل التي لا يهتمون بأن تكون حدودها معينة ، أو عـــددها متساوياً فى كل سطر ، أي عدم الالتزام بعدد معيّن للتفعيلات فى الشطر الواحـــد ، ولا يتقيد بالقافيـــة مطلقـــا ••• وقـــد برروا خروجهم عـــلى نظام الكتـــابة الشعرية ليكون شعرهم ملائماً لـــروح العصر الحديث الذى استجدت فيه قيم فنية جديدة لابد للشعر من التعبير عنها •• ولذا صرنا نرى أموراً غريبة فى الشعر الحر لم يكن المفروض فيـه أن يتناولها لا من قريب ولا من بعيد ••!••

واذا كان العمل الادبي قائماً على أساس الكيفية والرغبة فى غالب الامر ، ودون الالتزام بقواعد علمية ثابتة ومتفق عليهـا من لدن أعـــلام الادب ••• فاننا ولا شك سنور فى دوامة الفوضى ، ونسير بتراثنا الفكري الى الحضيض ••• حيث لا نحصل الا على انسيال فكري لا يلتزم بمنطق سليم ، ولا نجني غير هذيان محموم لا يضبطه ضابط ، وكثيراً ما يسقط فى النثرية والشعارية •

وفى رأيي الراسخ ان عناصر العمل الشعري الناجح هي وضـوح الفكرة، وصدق الشعور، وعذوبة اللفظ ••• حيث تصهر كل هذه الركائز الفنية والجمالية فى بودقة أوزان الفراهيدي والقافية الموحدة ••

ان المضمون والشكل عنصران متلازمان لا غنى لاحدهما عن الآخر فى عملية بناء القصيدة الجيدة •• فالشعر عملية يتزاوج فيها المعنى والمبنى•

وصفوة القول : ان كـل كلام غير موزون ولا مقفى فهو نثـر ••• والشاعر المجيد يخضع للوحدة الشكلية من وزن موحد ، وقافية موحدة •

الصافي والملاحم

في لقاء لي مع الاستاذ الصافي سألته عن رأيه في التهمة التي توجه الى الشعر العربي بأنه ينقصه شعر الملاحم •• فأجاب بالحرف الواحد :

ـ هذا غير صحيح مطلقاً ••• ولا ريب انها من التهم التي روجها الاجانب وبعض المستشرقين الحاقدين على العرب ، والساعين لسلب ثقة الانسان العربي بنفسه ليسهل لهم استماره واذلاله •••

وقد رحب بهذه التهمة الكاذبة بعض الشعوبيين ، وانجرف بتيارهم ضعاف الشخصية والادب منا ••• والحقيقة التي لا غبار عليها هي أن الملاحم الشعرية الجيدة لم تكن سوى الملاحم العربية ••• لأن شعراء الفرسان صوّروا ملاحمهم التي عاشوها وشعروا بها ، وكان يصاحبها شعورهم الصادق ••• ومنها ملاحم المتنبي التي عاشها مع حروب سيف الدولة التي خاضها ضد الروم البيزنطيين •••

أما الملاحم الاجنبية الاخرى التي يعتزّ بها غير العرب ••• فهي ليست ملاحم شعرية ، بل ليست شعراً على الاطلاق ، لانها تفقد اساس الشعر وهو الشعور الصادق ••• فمثلا ملحمة الشاهنامة للفردوسي التي هي عبارة عن نظم لتاريخ الملوك وحروبهم ، أي انها نظمت في أشياء جاهزة قبل ان يفكر الشاعر بنظمها ، ودون ان تكون صادرة عن شعوره الصادق ••• والا فكيف يستمر الشعور الصادق في خمسين الف بيت من الشعر أو أكثر ، والتي هي ما يسمى « الشاهنامة » ثم كيف يتوفر الشعور الصادق في ملحمة جرى الاتفاق سلفاً على نظمها بين الشاعر والسلطان محمود على أن يدفع له مقابل كل بيت ديناراً ••• وبعد أن اشتغل في نظمها ثلاثين سنة كما يقول الفردوسي ذاته ••• وحين جاء ليقبض الثمن حسب الاتفاقية اذا بالسلطان محمود يستكثر المبلغ فيبدل

الدينار بالدرهم ••• فيثور الشاعر ويغضب ويستنكف عن أخـــذ المبلغ المخالف لنصوص الاتفاقية المالية ، ويذهب صاخباً منددا بالملك قائلا بيتـه المشهور ما ترجمتـه « ايها الملك الفاتح للدنيـا اذا لم تخف مني فخف من الله » •

ونحن نسأل كل أديب منصف هل يمكن أن يكون هذا النظم الذى جرى حسب الاتفاقيـة ، واستمر ثلاثين عامـا شعراً صـادراً عن شعور الشاعر •••

واما أليإذة هوميروس التي كانت شائعة عنـد اليونان ، فهي نظـم للاساطير اليونانية ووصف حروبهم ••• أي ان هناك شيئا جاهزاً قبـل النظم لم يكن على الشاعر الا افراغه فى قالب النظم •••

ان الكلمة الصادقة التي يصح أن تقال فى شأن الالياذة والشاهنامة هي انهما لا تختلفان عن الفية ابن مالك فى علم النحو فكلاهما نظم لمواد جاهزة قبل الشروع بصياغتها فى أسلوب شعري ••• واذا رأينا تأثراً فى قارىء الملحمتين ، فالسبب يعود فى رأيي الى انهما تناولتـا حوادث كانت مثيرة حتى لو عرضت نثراً ••• فهي بحد ذاتها تحمـل فى ثناياها عنصر الاثارة ••• وكل ما فعل الشاعر فيها انه توسع فى الخيال ، وضرب على أوتا عواطف القراء من غير ان تهتز عاطفته المصابة بداء الجمود ••• وذلك كما نسمع اليوم فى الاذاعات من الضرب على عواطف السامعين دون أن يكون المذيع متأثراً بتلك العواطف •

وان الفرق بين هذه الملاحم وبين ألفية ابن مالك فى علم النحو ان ابن مالك لم يستطع أن يتصرف بقواعد النحو كما يشاء خياله لكي لا يكون معتدياً على النحو ••• اما شعراء الملاحم فقد أباحوا لأنفسهم الاعتداء على التاريخ الذى هو فى أكثره اعتداء على الحقيقة فأضافوا اليه اعتداءاً جديداً عن طريق الخيال •

ان الشعر فى رأيي انعكاس عن الشعور الصادق بالتجارب التي تمر بالشاعر وما عدا ذلك فتستطيع أن تسميه بكل اسم سوى اسم الشعر ••• فالشعر كما قال زهير بن ابي سلمى الذى عرفنا الشعر لأول مـــرة من مدرسته ومدرسة زملائه فى الجاهلية عندما سأله ابنه كعب قائلا :

ـ أبتي ما هو الشعر •••؟••

فأجابه والده قائلا :

« الشعر أشياء تجيش فى نفوسنا فتجري على ألسنتنا » •

فهل جاشت الخواطر فى نفس الفردوسي حينما نظم الشاهنامة التي بلغت خمسين الف بيت وذلك قبل الاتفاقية المالية المعقودة بينه وبين السلطان محمود ••• واذا كانت قد جاشت تلك الخواطر فى نفسه فلماذا لم يحاول رصدها وتسجيل بعض جوانبها •••؟••

وبذا تتضح لنا الحقيقة وضوح الشمس فى منتصف النهار ان هـذه الملحمة هي ملحمة تجارية بالدرجة الاولى عقدت بين الملك والشاعر •••

لقد كفانا انقيـاداً مع التيارات المغرضة والمصطنعة فى التحـامل على العرب وآدابهم ومزاياهم بقصد الاساءة اليهم ، والتطاول عليهم ••• وبالتالى الاجهاز على تراثهم الفكري وطمس معالمه •••

لقد آن لكم ايها العرب أن تستيقظوا ، وتعيشوا بعقولكم لا بعقـول الآخرين الذين يجيدون صناعة الاراجيف ، ويخططون للانتقام منكم •••

وأكتفي بهذين المثلين عن الملاحم الاجنبية لأني لا أعرف الملاحـــم الهندية أو غيرها حتى أحكم لها أو عليها •••

تلك هي بعض آراء املاحظات الصافي فى الملاحم الشعرية ، والتي يتبناها فى محاولاته الموفقة فى انتاجه الادبي ، وهي تطبع شعره بطابع خاص ، ويصوغها بطريقة ذاتية متميزة • تبـرز ما يعتمـــل فى روحه من ثورة

جامحة ••• انه شاعر يغور عميقاً فى تفهم معاني الحياة ••• تلك المعاني التى يستمد غذاءها من جوهر المعارف والعلوم السائدة فى عصره ••!••

وانا لنلحظ جيداً ان هناك كثيراً من الدعوات الطارئة ما تزال ترتفع من حين لآخر باسم التجديد ، وهي تحاول عبثاً اسدال ستار من النسيان على تراثنا الفكري الذى أسهم اسهامات جدية فى عملية بناء الحضارة الانسانية التي تضافرت الجهود المخلصة فى تنسيقها وتنظيمها من أجل مستقبل تقدمي زاهر لمجتمع أفضل ••• ذلك التراث الفكرى الضخم الذى صقل مواهبنا ، ونمي استعدادنا الفطري ، وفجر طاقاتنا فى مختلف جوانب الحياة •

ويمكن القول أن تلك الدعوات المسعورة ستبوء بالفشل الذريع وان كانت تبذل أقصى ما يمكن من الجهد لاشاعة أفكارها الهدامة بين الجماهير•• وان النتائج الطبيعية لتوفر دوافع تمسك الانسان العربى بتراثه الفكري القديم كانت ايجابية بالتأكيد ••• وقد جاءت نتيجة للوعي الكبير الذى ساد أوساطنا الشعبية على الرغم من مواكبتها للتطور العلمي والادبي فى العالم المتحضر •••

فلتكن نشاطاتنا هادفة ذات قوى مضاعفة فى الجهد ، ودقـة متناهية فى التخطيط ، ورغبة صادقة فى العمل ••!••

الصافي وكشف القمر

شاعرنا الاستاذ الصافي يمتاز بروح التضحية في سبيل ما يراه حقاً في جميع المجالات ... وانطلاقا من ايمانه بأهمية التقـــدم العلمي في مضمار غـزو الفضاء ... فهو عندما تم الانجـاز العلمي العظيم بصـعود الانسان الى القمر ، والهبوط عليه ، والسير فوقه في اليـوم الواحـــد والعشرين من شهر تموز سنة « ١٩٦٩ » الميلادية كان امام عاملين سلبي وايجابي .

فأما العامل السلبي حيث انه كشاعر مرهف الحس يشعر بخســارة الشعر والشعراء امام كشف حقيقة هــذا الكائن الجميل الموحي ، ويعلم تمام العلم ماذا يصيب الشعراء نتيجة لهذا الكشف المذهل من انقطاع معين التشبيه عنهم ... وقد وقفوا حائرين ماذا يصنعون بالشعر الماضي المفعـم بألفاظ البدر والتشبيه به ... وهم اليوم قد أصبحوا أشد حيرة اذ بماذا يبدلون البدر اذا أرادوا تشبيه الحبيب .

وأما العامل الايجابي فأن هذا الكشف أعظم من أن يسمى حـــدثاً تاريخياً لانه يتصل بالكون والتكوين اكثر مما يتصل بالتاريخ اذ يجـري الاتصال لاول مرة بين الارض والقمر .. يضاف الى ذلك ما يتبع هـــذا الكشف من خطوات أوسع في ميادين غزو الانسان للفضاء ... فـكان شعوره العادل المنصف حول هذا الحدث الضخم ان فضل الحقيقة الباهرة في عالم اليقظة على لذة النشوة في عالم الخيال ، ووقف في جانب العـلم مضحياً بعالم الشعر ...

ويوم نجحت المحاولة وبات العالم مدهوشاً امامها يكاد لا يصدق عينيه بما رآه ، وكاد ينكر عقله ومؤثراته .

قال الاستاذ الصافي :

كشفْنا البدرَ والهبوط عليه ومسير عليه وسط الفضاء
ربح العلم منه ربحاً يوازي صرفَنا فيه ما لنا من ثراء
فهنيئاً للعلم بالربح هذا وعزاء للشعر والشعراء

لقد جمع الشاعر فى هذه الابيات الشعرية بين حدثين متناقضين وهما عيد العلم ومأتم الشعر فوقف أستاذنا الصافي برغم احساسه المرهف ، وشاعريته المبدعة ، ودواوينه الثلاثة عشر فىجانب العلم ••• ولم يجد شيئاً يقدمه للشعر المنكوب والشعراء الخاسرين سوى التعزية بأعز فقيد لهم، قائلا لهم :

ـ رحم الله بدر الشعر وعاش بدر العلم •••

ومن باب الظرافة التي يروّح بها الشاعر عن أنفس زملائه الشعراء الحزانى يقول لهم :

ـ لنفرض مثلا ماذا يكون حال الشاعر اذا اجتمع مع الرائد الاول فى كشف القمر ، وقرأ له هذا البيت مكنياً عن حبيبه بالبدر :

يابدر عذّالي عليك كثيرة والمسعدون على هواك قليل

فيجيبه الرائد قائلا :

ـ لقد مشيت عليه ••!••

ان شعوب العالم كلها ، وعلى اختلاف عقائدها ، وتباين انظمتها السياسية قد باركت هذا العمل العلمي الرائع الذى حقق فيه الانسان حلماً اسطورياً حيث أخرجه الى حيز الواقع الملموس ، وبنزعة من الثقة التامة أخذت برقيات التهاني تنهال على الرواد الاوائل الذين قاموا برحلتهم الخطيرة الى القمر •••

والاستاذ الصافى المواكب للتطور العلمى ، والمدرك للابعاد الحقيقة لهـذا الكشف ••• ليس غريبا عليـه أن يقف موقفـه الايجابي حيـال قضية مهمة هي قضيـة كشف القمر ••• وهو الذي يعرف بوضوح عمق الترابط العضوى والمصيرى بين العلم والادب ••!••

واذا كان لهذا الحدث صدمة عنيفة لبعض ذوى العقول الضعيفة من حملة الافكار الرجعية المتزمتين فتركهم يعيشون في دوامة القلق الذى أقضّ مضجعهم ، ونغص عليهم حياتهم ، فانه فى نظر الصافي أعظم دليل على ما اودع الله تعالى من طاقات خلاقة فى الانسان الذى جعله خليفته على الارض ••

ولم يقتصر تأثير هذا الحدث على الشاعر الصافى بان أوحى له تلك الابيات الشعرية وانما ألهمه هذه النفحة الالهية العظيمة حيث قال تحت عنوان « الكلمة الخالدة » •

حـاش لله ان يمـــوت أنـاس	مثلمـا مـــات سـائر الحيوان
فمحال فى العقـل موت نفوس	كشفت عـن مجاهل الاكوان
كيف يأتى الفنـــا على ذكريات	مائـــلات امامنـــا للعيـــان
الغنى فى نفوســـنا وحجانـــا	لكفيـل لنـــا الوجـود الثـانى
كيف يفنى فى الكون من ملأوه	فـــكرا جمـــة وسامي بيـــان
نحن فيض من مبدع الكون باق	ببقـــاه علـى مـــدى الازمان
جوهر نحن لا تراب فمـا نخ	شى مماتـا كميتـة الابـــدان
نحن ســر لخالق الكـــون باد	نحن قول له فصيـح البيـــان

الصافي العاشق

ان الركض وراء الجمال يرافق الصافي في مسيرته الحياتية ، يحدو بأغنياته الى محراب الحب •• وهو الامل الذي غناه في ربيع الشباب ، وغضارة الحياة ••• وكانت اغنياته هياما في سفينة الهوى الذي طوّقت اللوعة أشرعته في خضم القلق المتمرد ••• فيطوى ظلاله الكئيبة مع احزان المغيب الذي ماتت خيوط اشعاعاته في قلب الوجود الملفّع بضباب الهموم •

ومنذ عهد الشباب النضر قد تضمّخت عيناه ببريق النور ، نور الحب الساطع الذي اشرق كوعي كامل في اعماق ذاته ، وكشف لنفسه تلاوين الحياة ، وأطل على مشارف عالم يملؤه الجمال حتى القرارة ••• الجمال الذي أضحى زيتا لشرايينه ، ومعينا لشاعريته ، ومصدرا لالهامه •••!••

ان الحب شده بوحدة بنائية لا تنفصم ولا تتجزء ، ومده بروحية الابداع والتطور ، وفجر فيه ديمومه العمل الادبي الذي لا يجف جدوله المنساب ، ولا يتلاشى طيبها العشّاق ••!••

لم يكن من ذوى الانكماش على النفس ، والصدوف عن الحياة ••• ان نفسه الولهى متفتحة تستنشق عبير الجمال بتلذذ ، وتبحث عن الحب بشوق عا رم•• هذه النفس الملتاعة ينفعل في احساسها جمال الطبيعة ، وجمال الروح ••• وفي بعض الاحيان يكونالجمال الجسدى هو المظهر الطاغي في شعره ••• ولكنه عرف بأنه شاعر موهوب يقدم لنا أبياتا غزلية هى اقرب الى الحسية منها الى التجريد ، وذات مشاعر مشوبة بالحزن ، والتي تتغلغل في صوره الشعرية التي يرسمها بضربات ريشة مزهوة ومؤطرة باللفظة الجميلة التي تسكر النفوس الحالمة بعطرها الفواح ••!•

لقد تفاعل مع الخصائص الاساسية للحب ، وعاش التجربة العاطفية ، وعبر عنها بصدق ••• ومن خلال المعاناة تنبع الصورة الحقيقية التى

تتسرب من اعماق الشاعر ، وتطفح باحساسه المتمزق فى صورة الالم الذى يشيع فى مضمونه الشعرى ...

ان جمال المرأة أول شيء فى الوجود لفت نظر الصافي .. فشذا نسمتها العابرة ، ورؤى همستها الساحرة تملأ اجواء الطبيعة بالاصداء الحلوة ، وتؤطرها بمباهج الحياة الفاتنة ..!.

وعلى الرغم من ان شاعرنا الصافي فى مرحلة الشيخوخة المباركة فلا تشوب روحه ريبة ابدا بما للحب من تأثير بالغ الاهمية فى نفسية الشاعر ... وذلك بما يتيحه له من مجال فى عرض الصور التعبيرية ، والاخذ بجوانب هامة من خصائص الابتكار ، وتهيئة اجواء رحبة يجد فيها خير منتجع يركن اليه حين يعصف به القلق ، وتستبد به الهموم ..!..

ان ما يعتلج فى نفس الصافى من عواطف ومشاعر ، وما يختلج فى قلبة من اصداء الحب دفعته الى التغنى بمفاتن المرأة ، والتعلق بأهداب الهوى ... وان روعة اظهاره لجمال محبوبته ، ولطاقة أحاسيسه ، وسحر أخيلته جعلته بارعا فى رصف معانيه الموشاة بالصور التعبيرية التى غمرت قصائده وقد تمثلت صور الحب البديعة ، ومشاهد علاقاته العاطفية فى الوان نتاجه الشعرى تمثلا صادقا فهو شاعر الحب بحق فيقول من شعره الجديد :

هذا الجفا للصب منك مريب	اكذا يكون الحب والمحبوب ؟
صلني وحاسبني بذنبي فى الهوى	واغفره لي ان كان ثم ذنوب
أو ما تفارقنا على ان نلتقى ؟	فقد انقضى زمن وطال مغيب
فلنمح ما كتبت يدانا فى الهوى	ان كان يمحى عهدنا المكتوب
كتبت عيونك فى فؤادى اسطرا	لم يمحها بعد ولا تعذيب
ما زال للقبلات طعم فى فمي	فيه أهيم وانتشى واغيب
يا سكرة القبلات عيشى فى فمى	فلقد وفيت وما وفى المحبوب

لعل القارىء العزيز يشاطرني الاعجاب بهذه المقطوعة الشعرية ••• التي فيها نكهة واصالة ، حيث أعطى الصافي التجربة الشعورية أبعادها العميقة الشاملة من خلال الواقع الذى يحياه ، وما يشيع فى الاجواء من ألوان التأثر بالعاطفة المحمومة التي تضعه امام الامر الواقع ••• امام ردود الفعل العاطفية والانفعالية نتيجة جفاء المحبوب ، وتصفه فى معاملة المحب الوامق الذى مايزال لطعم القبلات أثر حلو فى فمه كأثر الخمرة التي تجعل شاربها هائما فى وديان الخيال ، منتشيا بلذة السكر ••

وعلى الرغم من أن الحبيب نكث بعهده فقد ظل الصافي وفيا لن يفكر مطلقاً بالانتقام والتشفي ••• وان بقي الألم يساوره •••

وقد عرف الاستاذ الصافي كيف يستعمل الكلمة بعد أن أدرك دلالتها ••• فهو يتصيد اللفظة المجنحة التى تحظى باكبار هواة الفن الرفيع •••

انه ذو خيال خصب ينم عن شاعرية اصيلة حمل فى جوانحه قلبا مؤمنا بالحب ••• وقد ولج هذا الميدان ، ميدان الحب القائم على اساس مكين من البذل والتضحية ••• وفى نفسه المضطربة تموج الآمال • وفى قلبه العاشق تمور الاطياف ، وفى عيونه الساهرة تترقرق الدموع •• وظلت تداعب مخيلته الاماني البكر ••• ولكنه ما عتم أن أصيب بخيبة أمل مريرة ••• فغرقت نفسه الحيرى فى بحران الهموم ، وشرد فكره فى متاهات الصدود ••• واصبحت اشعاره العاطفية تشرق بدموع الشكوى وهو يستعيد ذكرى الامس البعيد الذى لم يبق منه الارفات الذكريات •••

ان مشاعره التي انطلقت معبرة عن أحاسيس اكتوت بنار العذاب ، واحترقت بلظى الالم ••• استطاعت ان ترسم لنا صور حية من شعره الرقراق ، وتطلع علينا بأجمل اللوحات الفنية الساحرة ••• وكانت انغام قيثارية الشعرية تنسكب فى اعماق النفس حزنا صامتا •• فقد غمره احساس

باحتضار ربيع الحب فى غضارة عمره ، وجفاف ينابيعه •• وراحت هوة الحزن تفتح شدقيها وتبتلعه ••• وهو يواجه الحقيقة التى يعيش فى كبدها ، فيذوق مرارة الالم حتى الثمالة •••

وفى قصيدته « القلب السكران » يوبخ قلبه الذى لا تردعه صدمات الحب ، وويلات الهجران •••

هذه الفتاة ذات الخطوات الرشيقة ، والقامة الهيفاء ، والتى طالما وقف حائرا مشدوها امام جمالها الفاتن ، والتى كانت حلما تداعب خياله ، والتى ملكت عليه فؤاده فأحبها من الاعماق ، ووجد فيها روحه ونفسه ، وليس شىء احب اليه من مناجاتها ••• انها قد هجرته فولدت لديه شعورا بالمرارة وخيبة الامل ••• ولم يستطع ان يكسر الطوق الذى يكبله ••• فألم به الحزن ، واعتراه الذهول ، وصار يوجه اقسى العتاب الى قلبه الدائم الصبابة ، الصادق العهد فيقول :

جنون ان تفكر فى سواكا	فيا قلب ابتعد عمن سلاكا
الى م تظل ترجو الوصل منه	تموت وما يموت به رجاكا
سكرت بحبه فاذا الامانى	من الاوهام تعبث فى حجاكا
أفق من سكرة الاحلام هذي	لتعرف اى ساق قد سقاكا
شبابك والهوى نشآ رفاقا	وشبت ولم يشب ابدا هواكا

وهكذا وجدنا أنفسنا أزاء شعر غزلي رائع فيه اصالة واضحة ، وحلاوة جرس ، ورقة لفظ •• وقد أبدع الشاعر فى كل ما رسم من صور حياتية عاشها بنفسه ، وما طغى عليه من الوان الاحاسيس ، وما ماعاناه من تجارب مرة ، وما استوعب من آفاق جديدة ، وما جاء به من معان ومدلولات كثيرة عن دوافع الحب ومقتضياته حيث تبرز براعة الفنان فى رسم الصور الجمالية مع السمو فى العرض ، والابتكار فى الاسلوب •••

لقد بات واضحا لنا ان الصافى مثال الشاعر المدرك لحقيقة الحب ...
فقد وجد فيه قيما روحية تغذى مكارم الاخلاق ، وتثير فيه دفقات شعرية لا ينضب له معين ، وتملأ آفاق حياته بالتفتح الشعورى الذى يحيا فيه ..

وقد ظل لفترة طويلة من الوقت يغنى باكتشاف عالم المرأة ، هـــذا العالم الذى يهيم به ، ويعشقه ذلك العشق الذى تتوارى امامه كل ألـــوان المسرات التى تحفل بها الحياة ...

وبالرغم من كل عوالم الجمال التى داعبت نفسه التواقة دوما الى كل جميل جديد ... فقد بقى عزوفا عن الزواج ... اذ تأكد له من خلال المواقف العملية ، والواقع الاجتماعي ان الزواج يدمّر فيه كل تطلع نحو بناء حياته الثقافية ، وتكوينه النفسى الخاص ... حيث يدعه يقع فريسة التفكير فى قيظ الحياة اللاهثة ، ويخلق له تناقضات ومشاكل تثقل رأسه بالهمّ ، وتترك الحيرة تنهش عقله وقلبه ... سيما اذا أنجب اطفالا ابرياء فى ظل مجتمعنا الظالم الذى لم تقم دعائمه على اسس المساواة والعدالـــة وتكافىء الفرص ... ووفق قواعد الحق والانصاف والتعاون الجماعي ..

انه امر تستدعيه طبيعة الحياة التى يعيشها .. عندما لم يعد الجســد يثيره وانما أصبح يبحث عن اشياء مجردة يرتل فى ظلها الاغانى الجميلة ، ويعنى ببناء شخصيته التى لها اهتمامات جدية فى عملية خـلق الصـورة الشعرية الجديدة ... واعداد الآثار الفكرية الخالدة ...

واتفق ان سافر شاعرنا الصافى الى بيروت فأجتمع مع شاعر هنـاك فقال لـه :

ـ اما سمعت ان الشاعر المهاجر فلان قد تزوج فى المهجر وكـان مقاطعا للزواج حتى بلغ سنه الخامسة والثمانين فتزوج ..

فقال له وقد بدت على تقاطيع وجهه مخائل العجب :

- ان هذا امر غريب يتناهى الى سمعى فكأنى اسمع ان ابا العلاء المعرى قد تزوج فى الجنة ..

وتابع كلامه قائلا :

- ان هذا ليس زواجا وانما هو « مأوى عجزة » فالرجل عندما أعيته الشيخوخة أصبح بحاجة الى من يعينه .

وبعد أن عاد شاعرنا الصافى الى دمشق تذكر انه هو ايضا قد بات فى امس الحاجة الى « مأوى عجزة » اى ان يتزوج وقد شارف على مطلع الثالثة والسبعين من عمره فأنشد يقول فى قصيدته « الزواج والشعر » .

وقالوا تزوج قد كفاك توحد عجزت ، ففز بعد التشرد بالمأوى
وكيف زواجى ، هل اطلق عالمى وفى عالمى دنيا اهم من الدنيا
ومن بعض دنياى الذى تقرؤن لي من الشعر، دنيا الحس والفكرة العليا
زواجي خسران لكم لو علمتمو أأعطي بأبنائي لكم عوضا اسمى
أأجفو عروس الشعر عندى ولودة فلو عقمت أرضى بديلا لها ، حوا
فلو يملك الباقون بعض عوالمى لما قبلوا التزويج بالحور فى الاخرى
أعاف جنان الخلد لم تحو شاعرا فحسبى هنا بالشعر جنتى المثلى
ولو كان فى النيران شعر دخلتها وعفت جفان الخلد للجامد الاتقى؟

ان الصافي الشاعر المبدع الخلاق الذى اتاح لنا سبل الرؤية الواضحة للحب قد بدأت الازمات الوجدانية تعتلج فى صدره ، والحزن يمعن فى التغلغل الى اعماقه ، ويعتمل الاسى فى قلبه ، ويصيبه القلق الشديد ... وعلى ضوء ملابسات وابعاد الفشل الذى رافق حياته العاطفية أخذ يبث الهمس والنجوى فى جل قصائده الغزلية الملأى بالاخفاق المريع ، والشعور بالغثيان ، والاحساس بالالم الذى يغمره ...

وفى اللحظات التى تبدو فيها الحياة بمرارتها وقسوتها ... فان

الشاعر يسلك طرقا متباينة للافصاح عن مشاعره بكل ما تحمل هذه المشاعر في اهابها من صراع ونقمة وسخط •• والذى يزيد من آلامه ويضاعفها ان لا احد هناك يفهم سر معاناته ، ولم ينل حقه فى الحياة الهانئة فيظفر برضا حبيبته ••• ويصل ذروة الانفعال حينما يرى الجمال الانثوى الفتان يمرح فيه كل وحش مغمض العينين لا يعرف له ثمنا ، ولا يقيم له وزنا ••• وحتى روض الجمال ذاته محرم على الانفس الشاعرات التى تتحسس سحره ولكنها يحظر عليها التمتع بلذته •••

ان الجمال يجب ان يصاغ لشاعرنا الصافى ••• ولكن وا أسفاه فانه ليس له منه غير الآهات والزفرات التى تتصاعد من اعماقه على شكل قصائد تحفل بالشكوى والشوق واليأس •• وقد اتعبه الجري وراء الجمال ، والنظرات التى يسددها اليه والتى كانها حسرات حرى قد ضاعت جميعها كما يضيع الصدى فى الوادى السحيق ••• بينما غيره ممن يستحوذ عليهم الاحساس بالتفاهة فان ثمار الجمال دانية امامهم يقطفون منها ما يشاؤون فتبعث فيهم الزهو والخيلاء •••

وفى الوقت الذى فيه يطغى جو مشحون بالانفعالات ، وتصدم مشاعره فى الصميم ، وتهرس قلبه الخيبة ••• وبعد ان تجاوز حدود الصبر قال :

يا لحظ الجمال يمرح فيه — كل وحش عيونه مغمضات
ونرى روضه علينا حراما — حرمت منه أنفس شاعرات
ولمثلى صيغ الجمال ومالى — منه إلا الآهات والزفرات
أتعبتني الى الجمال مضاعاً — نظرات كأنها حسرات

ويعود الشاعر فيخاطب ذلك الظبي الذى يهيم حبا بكل وحش لا يدرك سر الجمال ••• ويزداد نفورا من الشهم الذكى ••• وهو فى هذا الحال انما يضيع جواهره المتلألئة الاضواء هباءا ••• وليته عرضها

على الصافى الجوهرى لاشتراها بكل غال ونفيس ويقول :

أيا ظبيا يهيم بكل وحش ... ويبعد عن أخ الشهم الذكى
أضعت جواهر لك قد تلالت ... هلم بها لهذا الجوهرى

وعندما تفاجئه يقظة المشيب وما فيه من آلام وأسقام يحس انه يلهث تحت وطأة اندحار مريع من انكماش شعوري ، وتشاؤم حاد ، واقرار بالقرف ، واعتراف بالشيخوخة ... ويحاول أن يهدىء من روع نفسه التى طارت شعاعا وهو يرى اشباح الفناء تشخص امام ناظريه ... فيلجأ الى استعادة ما تبعثر لديه من ذكريات ، ذكريات الامس التى أوجعت قلبه وأحرقته بلهيب الظمأ اللافح ... وكانت مثار قلق عنيف له طرزت شغافه بشفاه الجراح الناغرة ... فلم يبق لديه من منفذ سوى الهروب الى دنيا الاحلام بعد ان أصبح عازفا عن كل شيء ، وغارقا فى خضم احساسه برتابة ما يحيط به ، ودائرا فى فلك الانهيار الشعوري الكاسح ...

وهو يعيش فى نطاق من الضياع الخانق استطاع التحدث عن احاسيس القلب ، والتوغل فى مكامن الضمير فى حالتى الفرح والحزن عن طريق التأمل العميق ، والغوص فى أغوار النفس الانسانية ...

وفى قصيدته « سنين الشيب » يبدو ثائرا ناقما على الشيب فهو يطلب من سنينه ان تغذ السير مسرعة فبقاياها شر بقية ... ولكن هى ذاتها قد نفذ فيها الشيب فباتت تسير بطيئة الخطى ، تتعكز بالامانى الخادعات ، وتتاقل في مشيها خوفاً من مجابهة الموت الذى يترصد ضحاياه في شراهة ونهم .

وبسبب شيخوخته اختفى عنه الاصدقاء الكثيرون ، وصار صديقا للطبيب والصيدلة ، وأمسى الدواء غذاءه الوحيد بعد انهيار قواه ، وفقده للشهية .. وما عاد يستطيع التنقل من مكان الى آخر الا بركوب السيارة ، ولا تنشيط قواه الا بالمسعفات .. وقد اضحت نزهته المفضلة لديه ان

يجلس القرقصاء فى جانب من المقهى ليرى المارة من السابلة وهم يذرعون الشوارع جيئة وذهابا ..

لقد كان يعدو الى الروض لينعم بأفيائه الندية ... اما اليوم فحسبه من الروض نسماته الشذية التى تتوافد عليه لترش وجهه بأطيابها العبقة ..!

واليوم فان جل حديثه يدور حول الشباب الذى قضاه فى محراب الحب ، وابتهالة الحنين ، وتهويمة الشوق... وكانت جذوة أحلامه الملتهبة تنثال على رفة عطر ، ودفقة خمر فى ظل الخدر الشاعري اللذيذ ... وسحر الطبيعة النضرة ...

لقد ترجم الشاعر أحاسيسه ترجمة صادقة حين قال :

يا سنين المشيب سيرى سراعا	ان باقى الحياة شر بقيه
نفذ الشيب فى السنين فتمشى	مبطئات على الدروب القصيه
يتعكزن بالمنى خادعات	يتثاقلن خوف لقيا المنيه
صرت من بعد أصدقائى الكثيرين	صديق الطبيب والصيدليه
أصبح اليوم من دوائى غذائى	بعد ضعف القوى وفقد الشهيه
سير جسمي اذا اردت ركوب	وقواه بالمسعفات القويه
نزهتي ان المشاة وكانت	نزهتي المشي بكرة وعشيه
كنت اعدو للروض واليوم حسبي	نسمات من الرياض القصيه
ذكريات الشباب جل حديثى	وشكاواى من زماني ، البقيه

ويقوده الشوق الى مصاحبة الطبيعة ذات اللألاء والبهجة لتخفف من آلامه ، وتمده براحة البال ، وتعيد له الطمأنينة المنبعثة من خلجات النفس ، وصفاء الذهن ، والتماع الفكر ..!..

فى مثل هذا العالم ، عالم الطبيعة يحس الانسان بتجرده عما يحيط به من منغصات ، وينسى القال والقيل ، ويجد راحة الجسم والروح ، ويتحرر العقل من عقال الاغلال ..!..

لقد أشرب فى قلبه حب الطبيعة التى ترتاح لها النفوس حيث تبعث النشوة فى القلوب ••• وبين حدائقهـا الغنـاء ، وأشـجارها الخضـراء ، وأزهارهـا البديعة يعاد للجسم فعاليته وقوته ، ويتجدد فيه النشاط الحيوى ، وتجيش القرائح بالشعر فكان كلما تنتابه الهمـوم أسرع الى صومعته يناجي محبوبته الطبيعة ، ويبثها ذات نفسه ••!••

وعند قدوم الربيع الضاحك تحى الارض الموات ، وتتفتح الازهار ، وتشدو البلابل ، وتظهر حلة الجمال تزهو بها عروسة الاحلام التى تضفى على الشاعر المتأمل شاعرية خلاقة تفيض أشعارها المزخرفة بسحرالطبيعة ، ومفاتن جمالها الخلاب ••!••

ويدعوه طالب جامعى الى نزهة فى احد بساتين دمر ••• وما دمر غير وردة فواحة العبير قد نبتت على شواطيء نهر بردى الذي تتمثل روائعه فى ربوعه الزاهرة ••• فيحس بروح الشباب تتوثب فى جسمه ••• حتـى خيّل اليه انه ما زال يرفل بأبراد الشباب تحيط به زمـرة من اصحابـه الشبان ، واصدقائه الندمان ••• وأبعد عنه اشباح السنين العابسة التـى تذكره بأوصاب الشيب والجسد الفاني ••• وما عـاد يصوب نظراتـه الى المرآة خوفا من أن يرى غضون وجهه ، وشيب أجفانه •••

وقد سكر بتذكار الصبا الذى هو خمرته الاثيرة لديه لا خمرة الحان•

ونسي أصحابه الشيوخ الذين يحفون به فيرى فى وجوههم موتـه القريب ، واكفانه البيض •••

وعند ما حاول الرجوع الى الماضى السعيد ليجتر افراحه ••• ذلـك الماضي الدافق الحيوية تذكر لعبه فى زمن الشباب ، وما الشباب غير زهرة العمر المتألقة ••• اذ كان كلما دعا قلبه للعب يلبيه فى الحال •••

واليوم ••• عندما دعا جسمه للعب لم يرهف السمع اليه وخانـه

بسبب الشيخوخة التى دبت فيه ••• وعندئذ أيقن انه يعيش فى حلم نشوان وقال :

بقلبى روح للشباب دعتك لي انقضى معا يوما بأفياء بستان
فخلت بأني لم ازل فى شبيبتى أعيش بأصحابي الشباب وندمانى
فأبعدت اشباح السنين عبوسة تذكرنى بالشيب والجسد الفاني

ولم ادع المرآة تصدم ناظرى
بمرأى غضون الوجه او شيب اجفانى
سكرت بتذكار الصبا وجنونه
فذكرى الصبا خمرىفدعخمرة الحان
نسيت شيوخ الصحب دوما تحف بى
أرى فيهمو موتي القريب واكفاني
تذكرت لعبي فى الشباب فخف بي
فؤاد اذا أدعوه للعب ، لباني
ولما دعوت الجسم للعب خانني
فأيقنت اني كنت فى حلم نشوان

لقد انطلق الاستاذ الصافى من قوقعته الى عالم رحب الآفاق ، واتخذ الغزل فى شعره فنا قائما بذاته ، وليست هناك نهاية لاشواقه ، او حدود لانطلاقه ••• انه يعيش للحب فيمنحه عمره ، ويغذيه بروحه ، ويمطر جفافه بالخصب العاطفي ، ويودع فيه أحاسيس دافئة ، ويسبغ عليه جوا من الحنان ، وفيضا من شلال شوق دفين ، وألم مرير ••• يصاحبه اسى الذكرى على فقدان معانى الحب الحقيقى ، وما صادف من عقبات جعلت المرقى عسيرا لبلوغ الامانى العذاب ••

وفى أشعاره الغزلية عبّر عن مدى مشاعر حبه الصادق ، وبث نجواه وحنينه في قصائده المضخمة بأنفاس العبير ، وسبر غور الجمال ، ووفق في

ارتياده لوديان الخيال ، وقد تسللت نزعة التجريد بوضوح الى بعض اشعاره اذ أن الاوصاف المادية فيه لم تفقد حدة الوانها ذات الاثر العميق فى نفسية العاشق ...

ويستمر فى عرض مشاعره ، ويمضى فى سرد لواعجه ، تلف عباراته خيوط الضياع ... فان الكاعب الحسناء التى تغلغل حبها فى نفسه ، ونفذ الى أعماقه لم ينل منها الا تباريح الأسى ... فذاق من علقمها ما جعله يناجيها برقيق شعره ، وعبثا حاول اقصاء طيفها عن فكره المجنح ..

وعلى الرغم من أنه أظهر فى شعره جانب الشعور الملتهب بمرارة الفراق ، ومحنة الجفاء فانه لم يمت احساسه بالحب ، أو يعجز عن خلق الصورة الفنية له ... وان القاريء يشعر فى قرارة وجدانه بالتقدير لثبات الاخلاص فيه ..

وكم له في الحب من مقطوعة شعرية طروبة القوافي تنطوي على لفظة حلوة، وصورة موحية، وغنائية مسكرة، وهمسة رقيقة، وخطرات عفوية.. كأنها رشة عبير ، ورعشة انفعال ... تلوح فيها اطلالة الالوان التجددية ، وموهبة الابداع ، واكتمال الجوانب الفنية حتى يحس القاريء انه ازاء عمل فني رائع يتوفر فيه حبك الصور الشعرية ، وحيازة الصياغة الفنية ..!..

ان شاعرنا الصافي يعيش عاشقاً للجمال ، جمال المرأة ، وجمال الطبيعة ... وقد تجلى في شعره تجسيد الناحية الجمالية في المرأة والطبيعة ، وسعة الادراك في مفهوم الفاعلية العاطفية ، والشوق الدائم الى الذوبان في الحب ... حتى بات بحق شاعر الحب والجمال ..!..

وأنا شخصياً منذ أن ولدت ، وما زلت أعيش ، والى أن أموت لم يلفت نظري شيء في الوجود كالمرأة ... فهي بتكوينها الجسمي المدهش ، وأنوثتها الآسرة ، وجاذبيتها القوية ما جعلها أروع مخلوقات الله تعالى ...

على الاطلاق ••• وكل ما فيها يسحر الألباب ، ويفتن العقول ، ويـدهل القلوب حتى نظرتها وصوتها ومشيتها ••• وان ابتسامة واحدة من شفتيها الرقيقة كافية أن تعيد الشيخ الى صباه ، والمريض الى صحته ، والمحزون الى فرحه ، وتخلق منه انساناً خفيف الروح ، مرح النفس ، جم النشاط ينظر الى الدنيا بعين الارتياح والرضاء والأمل •••

ولولا المرأة لكانت الحياة صحراء مجدبة ، وليلة معتمة ، ومأساة مروعـــة ••• فهـــي عصب الحيـــاة وقلب الوجـــود ، وشمس الكون ، ومعجزة الله الخالدة على الأرض ••!••

وأستطيع أن أقول جازماً : ان الرجل مهما ظفر بشهادات عالية ، وارتقى من مناصب رفيعة ، وحظى من جاه عريض ، ونال من أموال طائلة ، وامتلك من قصور شاهقة ، وحاز من بساتين خضراء ••• كل هذه الاشياء مهما عظم شأنها لا تساوي قلامة ظفر اذا لم يحصل على الزوجة الجميلة المؤدبة ••!••

الصافي والرئيس ديغول

في حديث أدلى به الاستاذ الصافي لمندوب احدى وكالات الانباء الافرنسية حيث قال :

– كنت اتابع بشغف كبير سيرة ديغول منذ أول الحرب العالمية الثانية ، واعجب بتصرفاته بالرغم من أني كنت أسير بالسياسة في خط معاكس لخطه ... فأنا مع المحور وهو مع الحلفاء ... ولكني كنت أشعر ان للرجل شخصية مستقلة ولم يكن تابعاً ...

وقد تنبأت حينئذٍ بان ذلك التصرف من قبل ديغول سيؤدي حتماً الى التفاهم مع العرب ، ويمهّد لايجاد كتلة تقف بين الشرق والغرب كما جرى ذلك فيما بعد ... حيث برزت على مسرح السياسة العالمية دول عدم الانحياز ...

وهكذا أخذت مكانة الرجل تزداد سمواً في نفسي على مرّ الايام ... الى أن كانت المؤامرة اللئيمة الأخيرة التي أدت الى تخليه عن الحكم ...

وعندما قرأت في الصحف الصباحية خبر استقالته تألمت أشد الألم ، وجاءني بصورة عفوية الشطر الأول من مطلع قصيدة اكملت فيما بعد وهو « سقط السيف بعد طول القراع » ثم تتابعت أبياتها ...

وأما ميزة القصيدة فيما اعتقد فهي انها سلطت أضواء على بعض أسرار عظمة ديغول .. تلك العظمة التي يؤمن بها كل شخص في العالم دون أن يستطيع شرح أسرار تلك العظمة ... وهذا أحد الاسباب التي جعلت الجنرال ديغول يتأثر بها ، ويبدي هذا الشعور النبيل نحوها في رسالته البليغة التي بعثها اليّ جواباً على قصيدتي التي أوضحت فيها الجوانب الايجابية ، والمظاهر السلبية ...

وأضيف الى ذلك ••• ان تلك الاسرار التي أوضحتها القصيدة عن عظمة ديغول تشير الى انه وضع منهاجاً في السياسة الحكيمة العادلة أمام زعماء السياسة في العالم اذا أرادوا أن يكونوا منصفين وينصفهم العالم والتاريخ ••• فلا حكم أصدق من شعور العالم ولا قاضي أعدل من التاريخ ••!••

وقد أشار أصدقاء الصافي عندما اطلعوا على القصيدة بترجمتها الى الفرنسية ، وارسالها الى ديغول ففعل ••• وما كادت تصل اليه حتى أرسل له هذه الرسالة « أشكرك الشكر الجزيل على شهادتك الأمينة التي تأثرت بها كثيراً »

وقد نشرت الترجمة الفرنسية للقصيدة والرسالة في جريدة « الأريان » اللبنانية ••• حيث خصصت لهما صفحة كاملة في عددها الأدبي الذي يصدر يوم الخميس من كل اسبوع مع كلمة تقديرية عن الشاعر الصافي •••

والقصيد بعنوان « خذلان ديغول أو فشل فرنسا » اذ قال الاستاذ الصافي :

سقط السيف بعد طول القراع	وخلا الساح من حكيم شجاع
فلتودِّع حضارة الغرب نبلاً	ولتسلّم قيادها للرعاع
وليسدها ظلام روح وعقلٍ	بعد نكرانها لذاك الشعاع
أنت عرفتنا السياسة صدقاً	بعد تعريفها لنا بالخداع
مثلاً كنت بيننا ورسولاً	لك نهج كالوحي ، كالابداع
ما تمسكت بالرئاسة قسراً	بعدما بايعتك دون امتناع
ولكم فزت بالرئاسة طوعاً	ان ينلها باقي الورى بالصراع
عجباً قد ظهرت في عصر فوضى	فمحوت الظلام بالاشعاع

بلت عهد الفرسان في الغرب ولّى | جاء عهد الخنوع ، عهد الضياع
فارس القول ، فارس الرأي ، فذ | فارس السيف، والحجى، واليراع
أصبح اليوم للثعالب صوت | اذ خلا الغاب من زئير السباع
ليس بدعاً ان يخذلوك ضلالاً | كم شكا الحق قلة الاتباع
ولئن تعتزل فهيهات تخفى | أنت ملء الابصار والاسماع
بطلاً كنت في اعتزال وحكم | لم تزل من كليهما في ارتفاع
يسقط الحاكمون بالعزل إما | عُرفوا قبل حكمهم باتضاع
يرفع الحكم كل وغد وضيع | رفعته وضاعة الاوضاع
سوف تبقى ذكرى حضارة غرب | ان تسده حضارة الاطماع

لقد عودنا الأستاذ الصافي انه طوال حياته الشعرية لم يمدح أحداً من الناس مهما سمت منزلته الشخصية في المجتمع ••• وربما كان مدحه للجنرال ديغول قد جاء صدى لموقفه العادل من قضية فلسطين ، والذي ينطلق من تفهم كامل للمخاطر التي تهدّد السلام العالمي •••

ان الأستاذ الصافي يضع مسألة تحرير فلسطين من نير الاحتلال الصهيوني في مقدمة اهتماماته الوطنية ••• إذ تشكل المنطلقات الاساسية لشعره القومي ••• الذي بات التجسيد الحي لتطلعات الامة العربية ومطامحها •••

ومن نتائج تجاربه النضالية ان بلوغ أماني الجماهير لا يتأتى الا عن طريق استعمال الحديد ••• فلا يفل الحديد الا الحديد ••!••

الا ان الشيء الذي يخامر الذهن ••• وفي هذا المجال بالذات هو أن فرنسا التي يرأسها ديغول هي التي زوّدت اسرائيل بطائرات الميراج التي كان لها الدور الرئيس في احراز اسرائيل النصر على العرب وكسبها للمعركة في حرب الخامس من حزيران سنة ١٩٦٧ الميلادية ••• حيث انها استطاعت أن تنقض على طائرات الجمهورية العربية المتحدة ، وتشعل فيها

النيران وهي رابضة في مطاراتها العسكرية بطريقة المباغتة والغدر ..

ان عمل فرنسا هذا يشبه تماماً عمل ذلك المنافق الموتور الذي يعطي سكيناً الى المجرم ليجهز بها على بريء فيسدد اليه عدة طعنات منها يرديه قتيلا في الحال ... وبعد ذلك يأتي صاحب السكين المخادع ليذرف على الضحية دموع التماسيح مظهراً عطفه الذي كان يخفي وراءه حقيقة نواياه السيئة .

والاستاذ الصافي حينما وجد في الجنرال ديغول الرجل الذي يكفر عن أخطاء فرنسا ويقف ذلك الموقف الايجابي والمؤيد لحقوق العرب المشروعة في فلسطين ، والذي اهتزت له مشاعره ففاضت قريحته الجياشة بالقصيدة المذكورة ، وان جاء هذا بعد فوات الأوان ...

ان فرنسا اليوم أخذت تعمل في ضوء سياسة حظر شحن الأسلحة الى اسرائيل ...

الصافي كما رأيته

من المصادفات الجميلة التي مرت في حياتي تلك التي فيها التقيت بشاعر العراق الكبير الأستاذ أحمد الصافي النجفي ، وأستطعت ان أراه عن كثب ، واستقطب خصائصه النفسية ، وطباعه الشخصية ، وتصرفاته الآنية ، وأعي بعمق مواهبه الشعرية المتعددة الجوانب ، والتي تمثل مرحلة أدبية جديدة تعطينا دليلا واضحاً على مدى استيعابها لعلاقة الشعر بالتطور الحضاري ، وكونه يخدم الناس ، ويحقق لهم الحياة المثلى ..!..

ان الانسان يشعر بمزيد من الاعتداد والثقة عندما يقرأ شعره .. فقد غدا معياراً دقيقاً لتطوير حضاري حقيقي ، فهو يولي اهتماماً خاصاً لقضايا الفكر ، ويعتبرها المنطلق الرحب لتحقيق أطياف الغد ، ويواصل مسعاه النبيل لتوطيد الأخوة الراسخة بين جميع الناس ، ولم يدخر دونها سعياً ..!.. مع الالتزام بالاسلوب العلمي في تحليل المشاكل الاجتماعية.

وفي شعره عالم ثر من الموضوعية في النظرة ، والاعتماد في الاسلوب على الصورة الشعرية ، والعمل لتطوير الشعر على نحو متواصل ... وقد قطع شوطاً بعيداً في هذا المضمار حتى يصح القول بأن له أثراً جديداً في الحركة الشعرية المعاصرة يبرز طابعاً خاصاً انطبعت عليه نفسه ، وأعطاه فرصة كبيرة لأن يعيش الكلمة المعطاء ، الكلمة التي تمتزج بدمه ، وتتحول الى شموع محترقة تنير الطريق أمام جيلنا العربي المكافح من أجل غد أفضل ..!..

فشعره قد استكمل أبعاده الفلسفية ، وأخرجه في اطار من لغته الصافية التي لم تتنكر للبلاغة العربية وانما هي منها في الصميم ... وبذا دفع عجلة التطور في ميدان العمل الشعري الناجح ، ولعب دوراً بارزاً في تكوين الجيل المعاصر فكرياً وثقافياً ، وسيبقى مثلا حياً للعطاء الدافق ...

ولا ريب ان كل أديب عربي يعرف معرفة كاملة ان الأستاذ الصافي من مميزات أدبه العالي الأصيل انه حفظ للشعر العربي الحديث كرامته فلم يتمرّغ على أعتاب الملوك والأمراء مادحاً اياهم بغية الكسب وجمع المال ، ولا يهمه اراقة ماء الوجه ... حتى ولم يحاول مطلقاً رثاء أحد من ذوي السلطان والجاه ... وانما ظل شعره المبتكر مقصوراً على مناجاة الطبيعة ، وسبر غور النفس الانسانية ، وكشف نقائص المجتمع ومحاولة اصلاحه ، ونقد الأوضاع الفاسدة ومعالجتها بالدواء الناجع ، والقيام بأداء كل عمل نافع يساعد على رفع المستوى الفكري والذوقي لدى المواطنين ، واصطياد المعاني البكر التي تدع القاريء المثقف مبهوراً ازاء المفاجآت المذهلة ، والصور المتلاحقة التي يستشف من ورائها عالماً رحب الآفاق ، عميق النفوذ الى أغوار الحياة ...!

ولا غرابة في هذا الكلام فالأستاذ الصافي ذو حظ وافر من التعليم ... فقد اتيح له الانخراط في الحياة العلمية منذ نعومة أظفاره حتى أصبح اليوم في ذروة نضوجه الفكري ... وأشعاره تمثل نموذجاً رفيعاً للشعر العربي المعاصر ، وقد نشرت حولها المقالات ، وأعدت عنها الكتب التي قام مؤلفوها بتحليل تلك النتاجات الشعرية على أسس نقدية سليمة ... وهو القائل عن شعره :

من الكتب تقتات أشعاركم	فتشكو الطوى ومماتاً قرب
وشعري أتى من حقول الحياة	اغذّي به جائعات الكتب

لقد تميّز بالعقل النيّر ، والقلب الكبير ، والخيال الدقيق ، وطرق في قصائده أبواب الفلسفة والاجتماع وأخلاق البشر اذ أودع شعره آراءه وانطباعاته عن البيئة التي يعاشها ...

كما وجدته قوي الذاكرة ، سخي اليد ، شديد الوفاء ، سريع التأثر ،

حاد المزاج ، ميالاً الى الملاحظة والنقد ، سيء الظن بالناس ، كثير الحذر منهم بعد أن أعوزه الصديق الحميم ••• الذى يشاطره الافراح والاتراح ••!••

انه لم يندّد بالناس اعتباطا ، وانما عكس ذلك عبر ممارسته الحياتية على ارض الواقع ، وجاء عن خبرة مفعمة بالنظرة الواقعية ، وحصيلة حوادث تفيض بالآلام التي ذاق مرارتها دون ذنب ارتكبه ••• اللهم سوى عبقريته الثورية التي اعتادت الصراحة في التعبير عما يرى ويحس ، وتقمّصت الروح الكفاحية الباسلة في مجابهة الحقائق المرة ••• فخاضت نضالا قاسياً ضد الظلم الاجتماعي ، والتردي الاخلاقي •

وبعد مراس طويل في صراعه مع عقوق الناس وشذوذهم قال :

أسير ما بين قوم مطرقاً ضجراً إذ لا أرى ما يساوي مني النظرا
كم ذا أغض عيوني خوف رؤيتهم حتى خشيت العمى من غضي البصرا
أغض طرفي حتى لا اشاهدهم لكن أرى قدمي سهواً بهم عثرا

انه بعد احتكاكه بمختلف طبقات الناس ، واختلاطه بهم ، ونتيجة لتجاربه المريرة معهم عشق الابتعاد عنهم ، وأحب الوحدة ، وآثر معاشرة الطبيعة والفناء فيها ، وشغف بالعيش فى أكناف الروابي المعشبات ، وتحت ظلال الخمائل السجواء ، وعند ضفاف الانهار الجارية ••• متأملا جمالات الوجود ، صاغياً لأغاريد الطيور ، مستافاً لعبير الأوراد ، معانقاً صفاء السكينة ، ومندمجاً في طيوف الذكريات ••!••

انها العوالم التي أضفت على محرابه الفني جمالا طبيعياً رائقاً ، وملأت روحه بالنشوة ، وأزهرت براعم فلسفته ، وفتحت أكمام أدبه ، وأعطته الابعاد الحقيقية لمغنى الحياة ، ومنحته فرصاً واسعة للقدرة على العطاء والبذل ، وكانت سر حيويته المتجدّدة ••• وقد استلهم منها سوانح شعره ، وطرائف فكره ••• وهو القائل :

أقر من النـوادي زاخـرات   بألـوان المجاملـة الوضـيعة
وآوى للحقـول طليق نفسٍ   فلست مجامـلاً الا الطبيعـة

هكذا يعيش الاستاذ الصافي في عالمه الخاص ، وقـد مسك بزمام المبادرة ... فمن أراد الدخول الى مملكته التأملية هذه ، والجلوس اليه فما عليه الا الاصغاء الى أحاديثه ، وعدم مناقشته فيما يسوقه من معلومات تستند على أساس دراسي وضعهـا ضمن أطارها الصحيـح ... فانـه سيواجه بثورة عارمة ، وسخط كاسح ... وهو القائل :

ويك يا طالب التقـرّب مني   في اقترابي مشـاكل لا تطـاق
أنا كالشمس حسبك النور منها   من بعيـد ففي الـدنو احتراق

وأصبح واضحاً للعيان ان بامكان الجليس الحوار معه بطريقـة الاستفسار وطرح الأسئلة عليه ... وعندئذٍ فقط يتلقى الأجوبة المدعمة بالحجج الدامغة ، والموشاة بالأمثال الشعرية التي تفيض بها قريحتـه الخصبة ... عبر استنتاجه الموضوعي ...

انه ينفر من الجهلاء الذين يدسون انوفهم في أبحاث لا ناقة لهـم فيها ولا جمل ... وهم يتظاهرون بالاحاطة والمعرفة ، ويلحفون في الجدل ، ويصرون على العناد باشكال وأساليب ملتـوية تؤدي الى بعثرة الجهود ... هذه الفئة من الناس لا تلقى عند الصافي غير الاشمئزاز منها ، والسخرية بها ... فقد تمرست على افساد الاذواق ، وبلبـلة العقول ، وايصال حياتنا الفكرية والفنية الى المستوى الرديء مما يدل دلالة أكيـدة على ضحالة ثقافتها ، وسطحية تفكيرها ... البعيـد عن طريق التحليل العلمي ...

وعندما يتلو قصائده الجديدة على سامعيه أراه ينفعل مع المعاني ، ويغلب عليه الحماس ، وتهتاج أعصابه ، وتنتفخ عروق رقبته ، ويتملكه الاعجاب بنفسه ، وتخرج الكلمات فصيحة من فمه دون استخفاف بقواعد

اللغة ، وتظهر العبارات واضحة جلية ... ولا يترك المجال لغيره للانشاد أو التحدّث الا فيما ندر ... وبامكانه الخوض في أغلب المواضيع بجدارة وادراك مما يبرهن على انه أديب واسع الاطلاع حتى على العلوم الحديثة التي تعتبر من ضرورات الحياة العصرية في المجتمعات المتحضرة ...

واما تعمقه في دراسة الآداب العربية والفارسية القديمة والمعاصرة منها فحدّث ولا حرج ... بالاضافة الى علاقاته الوثيقة بأغلب الشعراء العرب والفرس المحدثين ، والذين له معهم ذكريات لو أتيح لها التسجيل لشغلت كتاباً قيماً يحوي أجمل القصص ، وأبدع النوادر ، وأطرف الملح التي تجمع بين الأدب الجم ، والحكمة الخالدة ، والمرح البريء ..!..

كما انه لا يرى بين شعراء العروبة من يقف معه على قدم المساواة .. وهو محق في هذا الاعتداد بنفسه فيما طرقه من مواضيع ، وما خلقه من صور ، وما اقتنصه من معان ..!..

وفي كثير من الأحيان تستولي عليه حالات الانبساط والرضا فيصغي الى زائره العراقي مستمتعاً بما ينقله له من أخبار الوطن وما حققه من منجزات ثورية ضخمة ... وسيما بلدته النجف الأشرف وما قطعته من أشواط بعيدة المدى في مجالات العمران ، وما فيها من منتديات أدبية ، ومعاهد دينية ، ومكتبات نفيسة ... وكذلك يؤنسه التحدّث عن بغداد ومعالم تقدّمها المعماري ، وما أحرزته في هذا المضمار من ازدهار وتطوّر ... حيث شيدت في ضواحيها عشرات المدن الكبيرة التي تستدعي الالتفات ... وذلك بسبب هجرة الفلاحين من أريافهم وقراهم ، وقد فروا من تعسّف النظام الاقطاعي الذي كان سائداً في ربوع العراق قبل انفجار ثورة الرابع عشر من شهر تموز المجيدة سنة « ١٩٥٨ » الميلادية ، إذ فضلوا العيش في بغداد على حياة الزراعة في الحقول ...

وتسره كثيراً الافاضة في موضوع الحركة الأدبية الجديدة المعاصرة في العراق ، وما جد فيها من نتاجات جديدة في الشعر والقصة والمسرح ، والتعرّف على بعض الأسماء الأدبية اللامعة ، وتراجم حياة أصحابها ، وما قدّموه للفكر العربي الحديث من مؤلفات قيمة ، ونشاطات فنية في هذا المجال الجدّي النافع ...

ولو تطلعت الى وجه الاستاذ الصافي وهو يستمع الى هذه الأحاديث المتنوعة لرأيت الدموع تترقرق في عينيه ، وصور الكآبة تتجسّد في ملامحه ، وآهات الشوق تتصاعد من خلجات صدره ... حيث تتوافد على ذهنه المتفتّح آلاف الذكريات الماضية . وتتراءى له مياه نهر الفرات العذبة تنساب في الوادي الأخضر ناشرة على الضفاف البركات والخير فلا يلبث نشيجه الصامت الا وينفجر بركانه المحرق فى أعماقه السحيقة ..!..

ويا حبذا لو فكرت حكومتنا الثورية باستدعاء الأستاذ الصافي الى أرض الوطن ليقضي أيام شيخوخته المباركة في أحضان بلاده التي أحبها من كل قلبه فصاغ لها دفقات عواطفه ، ونبضات مشاعره ، وخطرات فكره ، وعصارات دمه درراً ستظل لامعة في جيد الدهر ..!..

وبذا نكون نحن العراقيين قد قمنا بواجب الوفاء ، وأدينا بعض الالتزامات ازاء هذا الرجل الوطني المخلص ، والمفكر العبقري اللامع ، والشاعر العراقي الشهير الذي غزت أشعاره كل الأوساط الأدبية في الوطن العربي الكبير ، وتركت صدى مدوياً في سمع الزمان ..!..

وكل ما أرجوه انني قد وفقت في تكوين فكرة واضحة عن شخصية الصافي البارزة السمات ، واعطيت لتقييمه الملامح الواقعية ... وان المشاعر التي تمتلكني كلما انغمر في مطالعة ديوان شعر له ، أو أحاول الكتابة عنه هي مشاعر الفخر والاعتزاز ..!..

الصافي وعمر الخيام

ما ان نشر الشاعر الانكليزي الكبير فتز جيرالد مجموعته الأولى لترجمة رباعيات الخيام سنة « ١٨٥٩ » الميلادية حتى تناولها نقاد العصر الفكتوري بالدرس والتحليل • ولم يلبث الشاعر عمر الخيام ان طبقت شهرته آفاق اوربا وأمريكا وأصبح معروفاً لدى القاصي والداني ، فكانت رباعياته وكتاب الانجيل يحتلان كل بيت في العالم الغربي •

اما أقطاب الأدب الفارسي فلم يولوا عمر الخيام عنايتهم كما هو شأنهم مع أبي القاسم الفردوسي صاحب الشاهنامه والشاعرين سعدي الشيرازي وحافظ الشيرازي ، فقد كان عمر الخيام من المشهورين بعلم الرياضيات والفلك والفلسفة •••!

والاديب اللبناني وديع البستاني أول من قام بتعريب رباعيات عمر الخيام عن اللغة الانكليزية اذ لم يكن ملما باللغة الفارسية فلم ينفذ الى اعماق معانيها الدقيقة ، ويحلق في آفاقها البعيدة بل اكتفى بالقشور دون اللباب •

ولعل الشاعر العراقي المبدع احمد الصافي النجفي هو الاديب العربي الوحيد الذي نقل الرباعيات الى العربية بدقة وامانة ، وذلك بعد أن درس اللغة الفارسية دراسة مستفيضة ، وبلغ المكانة المرموقة التي تتوق اليها نفسه بين ادباء الفرس المحدثين من ذوي الشهرة الذائعة ، وانشأ ينشر في امهات الصحف الايرانية ، وانتخب عضوا في النادي الادبي الفارسي بطهران وكلفته وزارة معارف ايران ترجمة كتاب علم النفس الذي اشترك بتأليفه الاديبان المصريان علي الجارم ومصطفى امين ليدرس في دار المعلمين ، وقد اضطر السيد احمد الصافي النجفي الى مغادرة بلاده العراق الى ايران في اعقاب الثورة العراقية التي حدثت في الثلاثين من شهر حزيران سنة « ١٩٢٠ »

الميلادية ، واقام فى طهران ثماني سنوات ، وكانت قصارى همه العكوف على دراسة الادب الفارسي ، والايغال فى سبر اغواره حتى استطاع أن يوفى على الغاية ، ويحقق الهدف المأمول ، فليس غريبا والحالة هذه ان تحظى ترجمته بالتقدير لدى القارىء العربي ، وتنتزع اعجابه فهى اقرب الترجمات الى الاصل الفارسى حتى ان الصافي بزّ الخيام فى بعض الرباعيات وكأنها نتاج عربى اصيل بشهادة ملك شعراء الفرسى محمد حسين بهار كقوله ..

لم يحظ بالدهر فى ورد الخدود فتى الا وكابد من أشواكه العطبا
انظر الى المشط لم تبلغ أنامله أصداغ أغيد ما لم ينشعب شعبا

وكقوله

أيا فلكاً يربّي كل نذلٍ وليس يدور حسب رضا الكريم
كفى بك شيمة ان رحت تهوي بذي شرفٍ وتسمو باللئيم

انه فاقه من حيث البلاغة والاسلوب ، وليس هذا بالقليل على الاستاذ الصافي فهو شاعر مرهف الاحساس ، جياش العاطفة ، له رصيد فني كبير ، وفكر خصيب ، وخيال رحيب ...

ورباعيات الخيام فن فارسى قائم بذاته ، وأثر شعري خالد وقد لقيت من قراء العالم رواجا منقطع النظير وذلك لان ناظمها خاطب فيها اله الكون وهو اله البشر ، وهذه المخاطبة تبدو للوهلة الاولى انها منطقية ، كما انه لم يتناول فيها موضوعا يتعلق بزمان او مكان معينين ...

وكانت الحياة الانسانية مصدر الهام لا ينضب لشاعرية الخيام فقد وجدها قصيرة الامد لا تكفى ان يستوعب الانسان لذا ذاته فقال :

عاطني الراح فهى قوت لنفسي واسقنيها وان تزد فى خماري
ان هذي الدنيا اساطير وهمٍ وخيال والعمر كالريح ساري

لقد شغف الشاعر بأحتساء الخمرة شغفا كبيرا ... فهو يستيقظ

مبكراً مع شروق الشمس ليكون مستعداً للصبوح ••• وما دام موكب الزمان يسرع للفناء •• فليسرع هو الى رشف كأسه المدهاق فقال :

ان كان يسرع للفناء زماننا   فهلم فى كأس الي دهاق

ويعتقد الخيام ان الخمرة تمنح الانسان عمرا صحيحا ، وفؤاداً فرحاً ••• فهى معين السرور ، وينبوع البهجة فقال :

ان ترم ان تنال عمراً صحيحاً   وفؤاداً لا يحمل الاحزانا
فارتشف صافي الطلا كل آن   لتنال السرور آناً فآنا

وها هي تباشير الفجر تلوح فى الافق ••• فيناشد الشاعر صاحبه ليملأ زجاجته بالراح ••• فللأنس زمن محدد ••• فاذا تلاشى فلن يعود مطلقا ، ويظل الانسان يبعث الحسرات دون جدوى فقال :

الفجر لاح فقم لنا يا صاح   واملأ زجاجك من عقيق الراح
فزمان انسك ان يفت لم تلقه   وتظل تنشد ساعة الافراح

ولما كان الكون ليس بدار اقامة ، وان الانسان فان فخرى به ان ينغمر فى شرب الصهباء ، يخمد نيران اساه بماء الكرم •• فهو حتما سيذهب مع ادراج الرياح •• فقال :

ما الكون دار اقامة فأخو النهى   اولى به ان يدمن الصهباء
اطفيء بماء الكرم نيران الاسى   فلسوف تذهب فى الهواء هباء

وكان الخيام يواجه خيبة امل مريرة دفعته الى الانزواء ومعاقرة الخمرة ليستعين بها على تبديد ضجرة وكآبته ، ويملأ بها فراغ حياته ، وهى من احب الاشياء لديه ، تحدى بها الناس والدين ، وجرأ على المجاهرة بها ، والدعوة الى احتسائها فى وضح النهار بشعره الاخاذ المستفيض ذى الموسيقى العذبة التى تهز المشاعر ؛ وتلعب بالافئدة ولم يكتف بان جعل الخمرة وسيلة لتبديد غيوم احزانه •• وانما اوصى أن يغسل بها بعد الوفاة •••

وان يرد ذكرها مع الكأس خلال فترة التلقين •• وفى الحشر فأن من اراد لقاءه •• فهو واقف دوماً عند باب حانة الخمر طبعا •• فقال :

غسلوني بالراح بعد المنون ... واذكروها والكأس فى تلقينى
ولدى الحشر ان اردتم لقائى ... من ثرى باب حانة فاطلبونى

وعاد الشاعر فجعل الخمرة روح الروح ، وبلسم النفس المجروحة ، وسفينة نوح من ركبها فانه ينجو من طوفان الهم الكاسح فقال :

اشرب الراح فهى روح الروح ... بلسم النفس والحشا المجروح
واذا ما دهاك طوفان هم ... فانج فيها فذى سفينة نوح

وهكذا يعترف الخيام بأنه لا يستطيع العيش بدون المدام ، ولا يطيق حمل جسده ان كان صاحيا ••• وما اطيب السكر اذا تناول كأس الخمرة من كف ساقيه الوسيم المحيا ، المشرق الطلعة •• فان سحر جماله يدعه عاجزاً عن اخذ الكؤوس •• وفات الشاعر ان يعلم ان الخمرة محطمة للجسم ، مدمرة للعقل ، ومتلفة للمال •

لا عيش لي بسوى صافي المدام ولا ... أطيق حملا بدون الراح للجسد
ما اطيب السكر والساقي يناولني ... كأساًوتعجز عناخذ الكؤوس يدي

وكان يسخر من الدين وما يبشر به المؤمنين من جنة وحور عين • وما سيعاقب به الكافرين من نار جهنم وعذاب أليم فيقول ••

يقولون حور فى الغداة وجنة ... وثمة انهار من الشهد والخمر
اذا اخترت حوراء هنا ومدامة ... فما البأس فى ذا وهو عاقبة الامر

واذا كان الانسان كما يقول المتقون سيحيا فى الاخرى كما كان يحيا حياته الدنيوية ••• لذا فقد اخترت الحبيبة والحميا ليحشرا معى بعد الممات فهما غاية ما اتمناه •••

يقول المتقون غداً ستحيا ... على ما كنت فى هذي الحياة

لذا اخترت الحبيبة والحميا   لاحشر هكذا بعد الممات

واذا كان الله تعالى يعلم منذ ان ولدنا بما سنقوم به من افعال ، وان كل ذنب نقترفه لم يكن اعتباطا ، وانما بقضائه فلماذا ندخل النيران .. وقد تناسى الخيام التعاليم الاسلامية التى جاء بها الرسول محمد بن عبدالله (ص) والتي اوضحت الاوامر والنواهي للناس ليلتزموا بها ، ويسيروا على هديها ، ولا يدخل النار الا من يرتكب المعاصى .

قد كان يدرى الله كل فعالنا   من يوم صوّر طيننا وبرانا
لم نرتكب ذنباً بدون قضائه   فاذن لماذا ندخل النيرانا

ان الشاعر لم يؤمن بوجود الجنة والنار ما دام لم يرهما أحد من الناس ... وان كل ما نرجوه ونحذره لم يكن الا محض صفات أو اسماء .

وغاب عن ذهنه ان كل منظَّم لابد له من منظِّم ، وان الكون لم يوجد مصادفة ، وانه لابد من خالق له ... وهو الله تعالى الذى ارسل الانبياء الذين اكدوا على انه بعد البعث لا شيء غير الجنة والنار .. لقد قال الخيام .

ما شهد النار والجنان فتى   اي امرىء من هناك قد جاء
لم نر مما نرجو ونحذره   الا صفات تحكى او سماء

وهو لا يؤمن بالبعث بعد الموت ، ويحسب جميع الناس متمرغين فى وهدة الرذيلة ولذا فان الجنة ستكون قاعا صفصفا ، فى حين ان اللظى آهلة بروادها القادمين اليها من كل فج عميق ، فيقول .

قالوا ألا ان النشاوى فى لظى   قول له عقل المفكر منكر
ان كان من يهوى ويسكر فى لظى   سترى الجنان كراحة اليد تصفر

وقد اعتنق شرب الخمرة دينا له ، ولن يرضى بغيرها بديلا فخضع لنزواته العاطفية ، وتمثل الحياة السعيدة وعاشها . وهو ثمل بخمرة جمال النساء الفاتنات ، يقضى معهن شطراً كبيرا من امسياته الرقاق ، فيقول :

ان دينى الهنا ورشف الحميا وابتعادى عن كـــل دين وكفر
قلت ماذا يكون مهر عروس الد هر قالت جذلان قلبـك مهرى

وذات يوم ذهب كعادته الى الحانة فوجد شيخا ثملا ، وطلب منه ان يخبره عن الموتى الذين كان يصاحبهم ••• ولكن الشيخ ناشده عدم الخوض فى مثل هذه المواضيع فان الموتى قد ذهبوا الى الابد ، ولم نشهد لهم بعد ذلك من اثر ، وليواصل رشف الخمرة فهى امتع واجدى •

رأيت فى حانة شيخا فقلت له ألا تخبرنا عمن مضوا خبـرا
قال ارتشفها فكم امثالنا راحوا ولم يعدودا ولم تشهد لهم اثرا

لقد افصح الخيام عن علة ولعه الشديد بشرب الخرة ••• فهو عندما يحتضر ويودع فى الرمس فان عبير الخمرة سوف يفوح من جنبات قبره •• واذا مر منه سكير مخمور فسينتشى ، ويفقد عقله تحت وطأة تأثيرها فيقول :

ولكم شربت الراح حتى ان اغب في الرمس ضاع من التراب عبيرها
أو مـر مخمور علـى قبري انتشى منهـا وأفقـده النهـى تأثيرهـا

وما فتىء يطالب بان يكون قوته الطلا ، وان يغسل جسده بالراح بعد الموت ، ويصنع تابوته من شجر العنب الذى من ثمره تستحضر الخمـرة فقـال :

اجعلوا قوتي الطـلا واحيلـوا كهربـاء الخـدود لليـاقـوت
واذا مت فاجعلوا الراح غسلي ومن الكرم فاصنعوا تابوتـي

ولعل أجمـل أمنيـة كانت تداعب مخيلته ، ويتوق الى تحقيقهـا بحرارة ، هى انه بعد ان يفارق الحياة ويستحيل جسـمه الى تراب ، ان يصنعوا من ثراه كوزاً معداً لرشف الخمرة فيتنقل بين شفاه العـذارى ، وايدى الندامى فيقول :

متى اقتلعت كف المنيـة دوحتي وعـدت لـدى اقدامها اتعفـر

فلاتصنعوا طيني سوى كوز قرقف عسى يمتلى بالراح يوماً فأنشر

وهو الى جانب ميله لارتشاف الحميا فانه يهوى الاستماع الى الحان المعزف والرباب ... وحينما يصنع من ثراه كنوزا فهو يود أن يكون مملوءاً بالشراب فقال :

نفسي تميل الى الحميا دائما والسمع يهوى معزفاً وربابا
ان يصنعوا كوزاً ثراى فليتهم ان يملؤه مدى الزمان شرابا

والخيام ابيقوري النزعة يجد السعادة في الشهوات ، والانهماك في الملذات . والافتتان بالجمال ، وكانت ثقافته الفلسفية تقوده الى الشك فليس وراء الموت ثواب ولا عقاب . فهو من الفلاسفة اللا أباليين . واما عذاب الآخرة فلا يحسب له أي حساب ، ولا يكترث به لانه لا يشغل باله في التفكير بهذه الامور ، وكان يأخذ العبارات الدينية ويقلبها رأسا على عقب ، ويهزأ بها كأنها ما وجدت الا لتكون اداة للسخرية . ومثاراً للتندر فيقول :

انت ابدعتني من الماء والطيـ ـن كما قد نسجت ألياف جسمي
كل شر مني يلوح وخير انت قدرته فما هو جرمي

ويقول

نحن نبيع التخت والتا ج بصوت المعزف
ونشتري بسبحة الريا ء كأس قرقف

واذا ما ازف وقت الصلاة وهو في الحانة فليتوضأ بالطلا ، ولا فائدة من التزمت فقد انشق ستر عفافه ولم يعد يطيق رتقه فقال :

توضأ اذا ما كنت في الحان بالطلا فمن يفتضح شأناً فلا يرج ان يرقى
ادر لي الحميا ان ستر عفافنا قد انشق حتى لا نطيق له رتقا

لقد دأب على خرق التقاليد المتعارف عليها ، وكسر طوق الفضائل ، والابتعاد عن كل ما من شأنه الدعوة الى التمسك بتعاليم الاديان السماوية ، وسار في

هذا الاتجاه مدفوعا بحب الخمرة وبلوغ اهدافه المنبثقة من مصالحه الرخيصة فقال :

الا قم لنحسوها ونعمل عودنا ونبدل حسن الصيت بالعار والرجس
ودعنا نبع بالكأس سجادة التقى ونكسر فوق الصخر قارورة القدس

اى انسان مستهتر هذا الذى يدعو الناس الى اتباع ذوى الخلاعة والفحش ، وانتهاج سبل الرذيلة ، وهدم بناء الصوم والصلاة ... وحتى رمضان الشهر الذى تتصافى فيه القلوب ، وتحسن النيات لم يسلم من لسانه السليط .. فهو يتمنى ان يخيل للناس انه شهر شوال لينصرفوا الى اقامة الحفلات بمناسبة حلول عيد الفطر .. فيقول :

ما اسطعت كن لبني الخلاعة تابعاً واهدم بناء الصوم والصلوات
واسمع عن الخيام خير مقالة واشرب وغن وسر الى الخيرات

ويقول :

اذا ما جاءنا رمضان يلقي به القيد الثقيل على حجانا
فاغفل يا الهي الناس حتى يخالوا ان شوالاً أتانا

ولم يذكر عمر الخيام الجنة والنار على انهما حقائق دينية يجب الاعتقاد بها .. بلا ادنى شك ، وان الجنة مثوى الصالحين ، والنار مأوى الملحدين . بل كان يتطرق اذ ذكرهما على انهما مستقى ثر للاستخفاف والتنكيت فيرفع عقيرته للجأر بآرائه المتطرفة موغلا فى الكفر والالحاد ، ومستخدما تعابير بسيطة ولكنها لاذعة ، مبعثها الغرور الذى ملأ نفسه ، فلم يعد يقيم وزنا لكل ما تعارف عليه المجتمع من اوضاع وقيم ، ووجد الحياة تنتهى بانتهاء عمر الانسان ، فليس حرياً ان يضيعها بالتكالب على المادة الزائفة ، والجري وراء الامجاد الكاذبة ، بل عليه أن يتمتع بالحياة ما وسعه الى ذلك سبيلا ، وواتته الفرص السوانح ، ساخراً بمكارم الاخلاق ، ضارباً عرض الحائط كل اوامر الدين في جرأة هائلة ، وتحد سافر فقال :

أتقول اين تروح من بعد الردى هات المدام واين ما شئت اذهب

ان الانسان الواعي يعلم انــه جاء من نطفــة ، وسيبعث للحساب بعد الموت اذ يقول الخيام :

بادر فســوف تعود ادراج الفنا ... وســتترك الجثمان منك الروح
واشرب وعش جذلا فلست بعــالم ... من اين جئت واين بعــد تروح

لقد انصرف الخيام انصرافا كليا الى معاقرة الخمرة فهــو لا يصحو لحظة واحدة حتى فى ليلة القدر ، ويظل معانقا الدن وماسكا بالكوز طوال المساء حتى مطلع الفجر ويقول :

اراني من الصهباء لم اصح لحظة ... واثمل حتى ان تكن ليــلة القــدر
اعانق دنـــا أو أقبـــل أكؤســاً ... وكفي يجيد الكوز تبقى الى الفجر

ويعتقد الخيام ان رشف الحميا ، وملاحقة النساء الجميلات افضــل من زهد الفتى المرائي •• واما فى ضوء المنطق السليم فان كل مــا ذكره الشاعر سائر فى طريق الضلال ، وان اهل الحب الطاهر ، وجميع الناس الاخيار هم من ساكني الجنان حيث قال :

أحسن من زهو الفتى عن ريا ... رشف الحميا واقتفـاء الحسان
ان كان اهل الحب والراح في ... لظى فلن تلقى امرء فى الجنان

وذهب عمر الخيام الى حد بعيد فى استهتاره فصار يخاطب الله تعالى قائلا :

ان كنت مسيئا فأنت خلقتني بارادتك فليس لي من ذنب • وان كنت لا تعطي الجنة الا للطائعين فذلك لعمري بيع ، ويظــــن ان الله سيشمله بالصفح والغفران اذا قضى نحبه صريع الطلا ••• ان كل هذه المعــــاني الرخيصة يسوقها فى صفاقة وطيش فيقول :

الهــي ومجــرى كــل حي وميت ... ورب السما ذات النجوم السواطع
لئن كنت ذا ســوء فانك ســيدى ... وما هو ذنبي ان تكن أنت صانعي

وقـال :

انا عبدك العـاصي فاين رضاكـــا　　ولقـد دجى قـلبي فأيـن سـناكا
ان كنت تمنحنا الجنـــان بطاعـة　　يـك ذا لنا بيعـا فـأين عطاكــا

وقـال :

انا لســت اقنط مــن خــالق　　رحـيم لعبء ذنوبـي الجســام
اذا اليــوم مــت صــريع الطـلا　　سيـعفو غـدا عن رميـم العظـام

ولو جرت الامور كما يشتهى الخيام حيث المذنب يدخل الجنة وهـذا دليل لطف الله وكرمه حسب ادعائه ••• لانقلبت المفاهيم فحلت الرذيلـة مكان الفضيلة ، واجتاحت العالم موجة من الانحلال والتفسخ •• ومن أمن العقاب اساء الادب •• فيقول :

يا رب انك ذو لطف وذو كـرم　　ففيم لا يدخـلن المذنب الخلـدا
ما الجود اعطاء دار الخلـد متقياً　　ان العطاء لاصحاب الذنوب نـدى

ويظل عمر الخيام غارقا فى لجة الغواية ، مسترسلا فى الانغماس باللذائذ فيقول :

ما للبقـا هـاد وان يك فالطـلا　　والكأس افضل مرشد المتحير
الراح مؤنستى فليس بمسعدي　　ماء الحياة ولا حياض الـكوثر

وقـال :

ان تواعدتــم رفــاقي لأنس　　وســعدتم بالغـــادة الهيفـــاء
وادار الساقي كؤوس الحميـا　　فاذكروني فى شربها بالدعـــاء

اجل ايها الخيام الواقع تحت مؤثرات الاهواء والنزق فحتى الديـك ادرك ان عمر الانسان مهما طال فهو مجرد حلم قصير ، وسراب خادع ••• هـذا العمر يقـاس بالعمل المثمر لا بعـدد السنين •• ومتى ما قدم الانسان خدمات نافعة للبشرية ظل خالداً مع الزمن ، وان اختفى جسمه العدم• فقال:

اتدرى لماذا يصبح الديك صائحا يردد لحن النوح فى غرة الفجر
ينادى لقد مرت من العمر ليلة وها انت لا تشعر بذاك ولا تدرى

لقد عاش عمر الخيام فى عصر السلاجقة وكانوا من اشد الناس حربا على الملحدين ، واكثرهم تنكيلا بالفاسقين ، فلذا كان عمر الخيام يتخفى باشعاره هذه التى كان ينظمها وهو سكران ... وقد عرف فى تلك الحقبة من الزمن بسعه اطلاعه فى العلوم الطبيعية والفلكية والرياضية ، وكان عارفا بأحوال المتصوفة . وقد أثبتت الوثائق التي عثر عليها ان عمر الخيام كان حياً فى سنتي ٥٠٦ و٥٠٨ للهجرة ولما مات دفن فى مدينة نيسابور فى ايران ، وشيد له قبر فخم .

وغير خاف على القارىء الواعي ان هدف الشاعر هو تصوير تجاربه الشعورية تصويراً فنياً يعمق احساسنا بالحياة ، ويشدنا الى الواقع بلا غموض وابهام ، وكان الشاعر عمر الخيام يملك حساً فنياً مرهفاً ، لون شعره بعواطفه وخياله ، تغزو قلبه النزوات الطائشة التى تهبط بنفسه الى مستوى سحيق من الاسفاف والتبذل ، وتحث الناس على التخلي عن المثل العليا ، والعقائد الدينية ، والغوص فى خضم المعاصى والآثام ، والتلذذ بجسد المرأة لاشباع الغرائز الجنسية ، والانجراف بتيار الخلاعة والمجون ، والازدراء بالمفاهيم الاخلاقية النبيلة اذ ان الشرف والكرامة والحمية ، ما هي غير مجرد ألفاظ جوفاء ، وعبارات شوهاء تثير الضحك والرثاء ، وخير الاصحاب هم الساقي والنديم لقضاء الليالى الحمراء بين كؤوس الخمر ، وانغام المعزف فى المواخير والحانات ، والتحلل من قيود المجتمع ، والتمسك بأهداب السكر والعربدة ...

وليس من ريب ان هذه الافكار المتطرفة تعد عقبة كأداء فى طريق التطور الفكرى ، وتسير بالانسانية نحو هاوية الدمار ، وتقف حجر عثرة فى درب الازدهار والتقدم ...

اننا نعلق اهمية بالغة على العمل الشعرى البناء .. فمن مهامه الأسهام الجدى والصادق فى النقد انبرأ من بواعث الهدم ، ومعاول التخريب ، والالتزام بالموضوعية فى ذكر الحقائق ، ومعالجة المشاكل ، وتصفية مخلفات الماضى التى لا تمت الى تراثنا الفكرى الحقيقى بصلة ، والسعي الى خدمة الشعب من خلال الاعماق النافعة ، والقضاء على الجوانب السلبية فى الادب العربي المعاصر الرامى الى عرقلة المساعي ، وضياع الجهود لتحقيق كل انجاز وطنى ، وتعاظم وتنامى المد الجماهيرى الذى بات له دورا كبيرا ، واثرا ملحوظا فى ترسيخ دعائم الحرية والاستقلال ...

ولا ادرى ما الحكمة فى تسابق شعراء العرب على التنافس فى ترجمة رباعيات عمر الخيام حيث قام بنقلها شعراً الى اللغة العربية عدد كبير من ادباء الضاد ، بعد أن رأينا ما تنفثه من سم زعاف فى جسم الشعوب ، وتسعى لاعاقة موكبها من السير قدما نحو الرقي والنهوض ...

ولما كانت رسالة الاديب الحقة هى اشاعة العدالة والحرية والمحبة ، وتحرير المجتمع الانسانى من قيود التأخر ، واغلال التحلل ، كان لزاما على كل مفكر حر ان يحول جاهدا فى تقليص نفوذ رباعيات الخيام ، والحد من فعاليتها التى تندس الى الصميم ، والتى تبدو وكأنها تساير المنطق فتطرب لها القلوب ، وتهتز لها النفوس ...

ومازلنا نحن العرب نقف الآن فى مفترق الطرق بين الموت والحياة ، تجتاز مرحلة خطيرة من كفاحنا الثورى ضد الصهاينة المحتلين ، لذا بات حرياً بنا ان نتطلع الى ادب حي يؤمن بقدسية القيم الاخلاقية ، ويضلع فى ركابها، ولاجل أن تتعمق صلات الشعب بطليعة الادب ، وتتحقق اهداف رسالتهم الاصلاحية الخالدة ضمن اسلوب مرحلي يجب أن يعملوا على ذوبان المصلحة الخاصة بالمصلحة العامة ، وان يكونوا اخلاقيين بعقائدهم وسلوكهم ... فصوت الاخلاق هو الصوت الاقوى فى كل دعوة مخلصة ، والسلوك اليومى هو

المحك الذى يكشف عن اصالة العمل من زيف التبجج ...

ان الاديب ذا الطابع القيادي الطليعي المنطلق من ارضية فكرية تقدمية ، والذى ضربت جذور آرائه الصائبة فى تربة الواقع له من الادراك والنضوج ما يجعله دوما مستجيبا لمتطلبات النضال القومى والوطنى ، وساعيا لتوفير المناخ الملائم لتعبئة القوى الجماهيرية ضد التحرك الرجعي الشرس السائر ضمن خط سلبى يتجاهل الامانى الشعبية ، .

ان الادب الهادف هو الذى يحدد طريق الخلاص من الترسبات الموروثة ، وينقذ النفوس الحائرة من الازمات النفسية ، ويحرص على توطيد اوثق العلائق الاخوية بين المواطنين ، والالتزام بالاعراف المشروعة ، والابتعاد عن الذاتية الضيقة ، والانفلات من قبضة الانانية المقيتة ، وكبح جماح النزعات العاطفية والانتهازية والوصولية ، والتمرد على واقع الاستغلال والعبودية ، والانجرار وراء السلبيات ، والانزلاق فى متاهات الاوهام ... لنكون فى مأمن يجنبنا الهزات والتصدع ..

ومن معطيات الحرف الشريف كشف حقيقة الاوضاع الراهنة ، وتحرير جموع العمال والفلاحين من كل اشكال الحرمان والجهل والمرض ، والالتزام بمصالح الجماهير ، وتهيئة المناخ الايجابى لتعميق التحولات الاجتماعية ، ومكافحة الفئات المعادية للقيم الانسانية والروحية ، والتي تعمل ارضاء لنزواتها ، وخدمة لاغراضها .. سيما ونحن نعيش فى هذا الجو المحموم الذى تكالبت فيها علينا قوى الشر لتشويه معتقداتنا ، وتضليل آرائنا ..

ان الاديب ادراكا من مسؤوليته التاريخية يتحمل اعباء بعث اليقظة الفكرية ، وتأدية دوره الخطير فى دفع عجلة التحرر العربى ، ويتوقف نجاحه فى بلوغ اهدافه على مدى ما قام به من جهاد كبير فى تنوير اذهان الجماهير ، وحملهم على عدم الانسياق بتيار الانفعالات الجامحة ...

ان الثقافة الصحيحة مفتاح التصرف فى السلوك الاخلاقي المنشود ..
ولذا بات على الاديب الناضج ان يكون ملما كل الالمام بشؤون الثقافة المعاصرة ليصبح متمسكا باهداف المبادىء الاخلاقية التى هى المحور والمعيار لكل انتاج ادبي بناء كتجنب الكبرياء الزائف ، والغرور الطائش ، والحقد الدفين ، والكذب المشين ، والنفاق البغيض ، والاستنكاف من الطبقات المعدمة ، والاستعلاء عليها ... تلك هي بعض النصوص الاخلاقية التي لا يمكن الاستغناء عنها ، والتساهل فيها ... وكل خروج عن اطارها معناه الخروج عن القيم النضالية ، والقضايا الكفاحية التى يتطلبها النهج الثورى السليم فى مرحلتنا الراهنة ...

ان الانطلاق على ضوء الاشعاع الاخلاقى الرفيع ، والسلوك المتزن من مميزات الاديب الملتزم الذي يعي حاجات الشعب ، ويلبي متطلباته فيقرن القول بالعمل ، ويدعم الفكرة بالممارسة ، ويسعى لهدم الواقع الفاسد ، وبناء المستقبل الزاهر ... ويظل ادبه الواقعى السائر فى ركب الحياة الصاعد رمزا للاخلاق والقيم ..!..

تعقيب ...!

من الامور المسلم بها جدلا ان من أهم واجب الناقد الواعي حينما يحاول تقييم الاثر الادبى ان يدرسه من كل جوانبه وابعاده بعمق واستيعاب ، ويصدر احكامه بدقة وامانة ، وان يكون منزها عن الهوى ، بعيدا عن المؤثرات العاطفية ، اما اذا كان على خلاف ما ذكرنا فقد وضع نفسه موضعا لا يحسد عليه ، ودلل من حيث يدرى او لا يدرى على انه سقيم الفهم ، بليد الاحساس ، هامد الشعور .

اكتب هذه السطور وانا اقرأ ما دبجه يراع السيد توفيق صرداوي حول مقالى عن « الصافى وعمر الخيام » وهو يطلق الاحكام المرتجلة ، ويلقي الكلام على عواهنه بغير استقصاء وتمحيص ، ولعل من أبرز الدلائل على عدم قراءة الناقد المقال المذكور بامعان ونزاهة هو انه لم يرد حتى اسمي بصورة صحيحة .

واما بصدد افرادى جانبا من مقالى حول الشاعر احمد الصافي النجفي فهو لما قام به من مجهود ادبي رائع ، وما بذله من تضحيات جسام عند ترجمته لرباعيات الخيام ، الخيام الذى يؤمن بفلسفته توفيق صرداوى ، وينزله من نفسه منزلة سامية ، وان من ابسط قواعد العرفان بالجميل ان نسبغ على الاعمال الفكرية الناجحة آيات الحمد والثناء ..! .

وان الصافى فى غنى عن اطرائي له فقد خدم الفكر العربي قرابة خمسين عاما وادى لامته العربية رسالته المقدسة فى حقول الادب ، فهل من التجنى الاشادة باعمال المفكرين الاحرار ؟ هذا ما يمجه كل ذوق سليم ، وتأباه كل نفس كريمة ؟ .

واذا اباح الناقد لنفسه ان يطأطىء الجبين اجلالا للاباحيين والملحدين فأنا أربأ بنفسي من اكون من عباد الاشخاص مهما كانت مكانتهم الاجتماعية

وان قول الناقد (وكأنني به هناك يطأطىء الجبين اجلالا امام جبروت ذلك الضريح الذى هو من جبروت الرباعيات) لا يسعنى الا ان اشجبه بعنف وصرامة ، واستنكره أشد الاستنكار ، وان أرد هذا السهم الى نحر صاحبه • وقد كنت وسأظل من الداعين لتقديس الاعمال دون الرجال ، وان هذه العبارات الاستفزازية لا تجلب لقائلها غير السخط ، والسخط وحده ! •

وما كنت يوما لالقى الكلام جزافا كما يدعى الناقد ، بل انني ما أوردت فكرة من فكرات الخيام الا وأدعمتها بشواهد من رباعياته التي تبرز حقيقته جلية واضحة للعيان ••

ويقول « متى وفى اى شريعة كان من المحرم ان يحب الفرد فيبوح بكل ما فى قلبه ؟ ان يحب الرجل المرأة ـ واينا لا يحب ؟ » ولا أعلم كيف لا يصيخ الناقد لصوت الضمير ، الضمير الحي الذى لا يستسيغ الصاق التهم بالابرياء ، فأنا لم ولن ادعو الى تحريم الحب بين الرجل والمرأة الذى لولاه لانعدم الجنس البشرى ، ولكننى ادعو الى الحب الشريف الذى يؤدى الى الزواج المشروع الذى تقره جميع الشرائع السماوية والتقاليد الانسانية النبيلة التى تنظر الى المرأة باعتبارها مخلوقا انسانيا كريما يشارك الرجل فى بناء الحياة على اسس من المساواة ••• وليست هى أداة للترفيه عن الرجل ، ولاشباع رغباته الآنية كما يحاول الخيام وبطانته الضالة ان يجعلوها مجرد وسيلة للمتعة ، وتزجية الفراغ ، ولاطفاء جذوة شهواتهم العارمة •

ويقول « اذا عرى الانسان من زيفه وابرزه على حقيقته بدون لبس ولا ادعاء فذلك منتهى السمو ، وقمة العظمة » وفاته ان الاستهتار بالقيم الاخلاقية الرفيعة ، والانحدار مع تيار الانحلال والمجون ليس من السمو والعظمة فى شىء ، وانما هو التردى فى الحضيض ، والانزلاق فى الهاوية ، كما

يعترف الناقد بذلك نفسه حيث يقول بالحرف الواحد « اما الخلاعة والابتذال والاسفاف فصفات تقعد بصاحبها عن كل مكرمة » ونحن نقول الناقد ، أليس كل من يدافع عن خلاعة عمر الخيام ويروّج افكاره الهدامة، ويجعله من واضعي حجر الزاوية للمعرفة الانسانية قد قعد بنفسه عن كل مكرمة ؟

ويقول « هل كان انحلال المجتمع الاوربى الحديث ناتجا عن تمثله برباعيات الخيام ؟ » وجوابي على هذا السؤال هو ان المجتمع الاوربي الحديث قد بلغ شوطا كبيرا فى مضمار الحضارة الحقيقية ، وان شعوبه الناهضة متمسكة بأهداب المفاهيم الخلقية السامية ، ولكن ساسة ذلك المجتمع هم وحدهم زبانية الاستعمار ، واعداء الحياة ، لانهم تمثلوا برباعيات الخيام فتمادوا فى غيهم وتصرفاتهم الخرقاء فاضطهدوا الشعوب الضعيفة ، ونهبوا خيراتها ، وسلبوا مواردها ، ليوفروا لهم ثمن لياليهم الحمراء ، وليرقصوا على جثث الضحايا . وجماجم الشهداء ...

وليطمئن الناقد ان الجيل العربي المعاصر فى كل جزء من اجزاء وطننا العربي الكبير سيواصل انطلاقته الجبارة كالعاصفة في طريقه السوي قدما لجعل الارض العربية كلها ساحة للمعركة دفاعا عن شرف شهدائنا الابرار الذين ضحوا بأرواحهم كتعبير سام عن رفضهم لكل حل استسلامي!..

وللناقد توفيق صرداوى تحياتى القلبية ، وتمنياتى بالتوفيق .

الصافي في قنبلته الذرية

لا يختلف اثنان فى أن أحمد الصافي النجفي شاعر يجري الشعر فى عروقه ، وقد وهب نفسه للقريض ، ولا عجب فهو أديب قوي الحجة ، جريء العبارة ، حاد العاطفة ، اذ صافحت عيناه أول قبس من أنوار الحياة في النجف الأشرف مركز الاشعاع الفكري ، ومدينة الشعر الرائع .

لقد أسهم فى طرح قضايا امته العربية وفى مقدمتها قضية فلسطين ، وعبر عن قضية الانسان المعاصر فى كفاحه ضد الاستعمار والعبودية ، وحمل رسالة السلام والمحبة لينشرها فى ربوع العالم ، كي يتجنب ويلات الحروب المدمرة ، فيتوطد الاستقرار ، ويستتب الامن ، ويسود العدل ، وقد نظر الى الحياة نظرة واقعية فشهر سيف الحق فى وجه الباطل ، لا تثنية لومة لائم ، ولا ترهبه صولة ظالم ..!..

انه شاعر الفكرة النادرة ، حيث يلتقطها من أغوار الحياة ببراعة فائقة ، ويتصيد المعانى العميقة من واقع الناس الذين يعايشهم فتجيء أشعاره الطريفة تنبض بالاحاسيس الصادقة ، وتتدفق بالاخيلة البديعة ، تعكس اصالة الفكر ، ودقة التجربة ، وسمو الشعور ، وتشق طريقها الى القلوب بسهولة ، وتصل الى القارى بيسر ... اذ أنه يخاطب العواطف والعقول معا ..!..

ان اصطياد الفكرة الرائعة سمة بارزة من سمات شعره الذى لا تغلب عليه الصنعة والرغبة فى النظم ، بل انه لا يقول الشعر دون اختمار الفكرة ، وبلورة لاحساس ، وشحذ الذهن ، وتفتح القريحة ... فأمد حركة الشعر المعاصرة بطاقات التجديد والنضوج والوعي ... وعالج امورا كثيرة باسلوب ساخر ، ونقد موجه ، وأفرد التاريخ سجلا حافلا عن نضالاته عبر مسيرة حياته التي اتسعت بالتضحيات والروعة ..!

وكانت الاختراعات الحديثة مثار اهتمامه ، ومدار شعره بشكل يلفت النظر ، فرسم صورا جديدة ، تتضمن نظرات صائبة دقيقة استمدها من التجارب الضخمة التى عاشها ، فأهلته للاجادة ، ومكنته من الابداع ...!

وكانت القنبلة الذرية أبرز الاختراعات المدهشة التى اهتز لها ، وأنفعل بها ... ومن خلال رؤيا شعرية جيدة نظم فيها قصيدة شائقة تتسم بعمق المعنى ، وغزارة العاطفة ، وجزالة اللفظ ، وجودة النظم ، ورصانة القافية ، وتحفل بالآراء الناضجة التى صقلتها المعرفة والخبرة ، وتزخر بالملاحظات الذكية حول الاخلاق والحياة والناس ...!

وهو بما طبع عليه من حس فياض ، ووجدان جياش ، لا يمكن أن يمارى فى الحقيقة ، بعد ما رأى من تطاول على الحق ، وتجن على الواقع ، واستفحال خطر المصالح الخاصة ، والمنافع الذاتية ...!

ومما يحز فى النفس ، ان هذه القنبلة الذرية قد اخترعت لابادة كل مظاهر حضارة الانسان ، والقضاء على الشعوب التى تسعى دوما الى التعايش السلمي باطمئنان ودعة وأمن ... انه يناشدها بحرارة وتحرّق ان تنسف الحرص والطمع اللذين أصبحا كل شيء فى حياة الناس ، وتنفجر فى رأس مخترع يبيت للبشرية الفناء والخراب ، وتدمر الجشع الذى استبد بالنفوس ، وتحطم عالم الاوهام والبدع ، وتقضى على خلق النمر والضبع الذى تقمص شخصية الانسان ، فاذا به شيطان فى مسوح رهبان ، فيقول :

يا ذرّة لبناء الكون ناسفة
هل تستطيعين نسف الحرص والطمع
قد انفجرت فزلزلت الوجود بنا
هلا انفجرت لنا فى رأس مخترع

فكّ الكهارب في دنياك محكمة
أخف من فكّ ما في النفس من جشع
يا ذرّة العقل في دنيا الورى انفجري
وحطّمي عالم الاوهام والبدع
عجبت للعقل من سرّ الا له دنا
والخلق ما زال خلق النمر والضبع
رام المنفّل اسراراً محجّبة
والحزم يزجره عنها وليس يعي
لم يكشف السرّ حتى نابه ندم
وراح يصفق غبناً كفّ منخدع
لا غرو أنْ تهلك الانسان تجربة
فانّه كأبيه عادم الورع

وهكذا قدّم لنا صورا واضحة المعالم فتجلت براعته المذهلة فى التصوير والوصف ، وبرزت قدرته الخارقة فى الافصاح عما يخالج نفسه من نوازع ورغبات ، وما يتطلع اليه من مطامح وغايات ، فيعرض لنا من حين لآخر ، لوحات فنية ممتازة تعكس ملامح الحياة والواقع والوجود ، وتؤكد عمق شعوره الانساني الرفيع ، وشجبه لنداءات الحروب ، ونقد الاوضاع العامة ، ومعالجة النواحي الاجتماعية ، وارتياد مجاهل النفس الانسانية ، وحل رموزها ...!

وقد نجح الى حد كبير فى عرضه لخلاصة خبراته الشخصية ، وتجاربه الذاتية ، ولم يتخل عن طريقه المرسوم لبلوغ الاهداف الخيرة ، او ينتحل احاسيس غيره ... انه انطلاقا من وعيه الكامل فقد اصبح من شعراء العرب البارزين الذين يناضلون باصرار وبسالة ، لصيانة كرامة الانسان ، وتحقيق المساواة الحقة ، واقامة العدالة الاجتماعية ، واشاعة

الحرية الفكرية ومحو الامتيازات الطبقية . فاصبح بحق مـن قادة الفكر الاحرار الذين تخطوا بنتاج عبقريتهم المبدعـــة أسوار الاقليمية الضيقة ، وتبنـوا القضايا الانسانية الكبرى ، وأفاضوا على الناس من ينابيع عقولهم المعطاءة السخية أفكاراً نيـّرة ، ومثلاً سامية ، وقيماً نبيلة ، تزرع فـــى القلوب بذور الايثار والتضحية والطيبة ...!

والاستاذ الصافي فضلاً عن كل هذا وذاك فهو يؤمن ايماناً بوحدة المصير العربي ، ويعمـــل بوعي وادراك لتأدية دوره النضالي فى مكاشفة الشعب العربي بالحقائق والتفاعل معه ، واستنفار كل القوى ، وتوحيـد الصفوف ، والوقوف بمنتهى الصلابة والحزم امام الاستعمار والصهيونية ، ومواصلة النضال المثابر ضد الحلول التصفوية التي تحاول ضرب الثـورة العربية ، وخنق المقاومة الفلسطينية ، وعـــدم تمكنها من الامساك بزمام مصيرها ، وتوليد الشعور باليأس لديها ، وبالتالى الاعتراف بوجود الكيان الصهيوني كاستسلام للأمر الواقع، وطعن الجماهير بأعز أمانيها ، الجماهير العربية التي ما زالت تبذل دماءها وتقدم ارواحها رخيصة لتحقيق ارادتها فى التحرير الكامل ... ! .

ان العملاء الخونة سيتساقطون الواحد تلو الآخر تحت اقدام المقاتلين العرب الشجعان.وان الشعب الفلسطيني يواصل مسيره على درب التحرير دفاعاً عن ارضه ، وكرامته ، ولن يعود الى المخيمات ليقاسى حيـــاة الذل والعبودية ، وتمكين العدو الصهيوني من تثبيت كيانه الدخيل . فقد تنامى الوعي الثوري للجماهير العربية ..!..

نوادر الصافي

الصافي والياس فرحات

كان الصافي يجلس في احد مقاهي بيروت وهو منكب على تصحيح احدى مسودات دواوينه بغية تقديمها للطبع ••• واذا برجل ينتصب أمامه واقفاً ويصوّب فيه عينين حادتين ويقول :

ــ هل تحسن القراءة والكتابة ؟

فأرسل اليه الصافي نظرة ملؤها الدهشة والاستغراب ثم قال :

ــ نعم اجيد القراءة والكتابة ، الا تعرفني ؟

فرشقه الرجل بنظرة واثقة وقال :

ــ وانت ألا تعرفني ؟

فهزّ الصافي رأسه مستهزئاً وقال :

ــ ومن انت ؟

فقال وعلى فمه ابتسامة تنم عن طيبة قلبه ، ورقة بساطته ، وسلامة طويته :

ــ انا الياس فرحات

فما كان من الصافي الا وقام على الفور ، وراح يعانقه بحرارة وشوق ••• ! ••

حفلة تكريمية للصافي

أقام لفيف من أدباء لبنان حفلة تكريمية للصافي تقديراً لنبوغه الخلاق ، وأدبه الخالد ••• ولما حضر المدعون ، واوشك عقرب الساعة ان يشير الى أن موعد بدء الحفلة قد أزف ، تفقد الحاضرون الصافي فلم يجدوا له أثراً ، غير انالاستاذ الكبير حسنالامين لمحه عندالبابوهو يحاول

الرجوع من حيث أتى ، فلحق به ، ونظر اليه والدهشة تعقد لسانه وقال :

ـــ أين تزمع الذهاب وهؤلاء الناس ينتظرونك ؟

فرد عليه الصافي ببرود :

ـــ ان حارس الباب طلب مني بطاقة الدعوة ، ولما كنت لا أملكها منعني من الدخول .. !

فانفجر الاستاذ حسن الامين ضاحكاً والتفت للبواب قائلا :

ـــ انه هو الشاعر احمد الصافي النجفي الذى حضر هذا الجمع الحاشد لتكريم عبقريته الرائعة الفذة .!

الصافي والقروي

كان الشاعر الشهير رشيد سليم الخوري ينزل في فندق سمراميس بدمشق ، وعزم الصافي على زيارته لما بينهما من رباط الحب ، وصلة الود ... فوقف عند باب الفندق وقد ازدادت الابتسامة التي أنارت وجهه وقال للفراش :

ـــ من فضلك اخبر الشاعر القروي ان احمد الصافي النجفي قادم لزيارتك .

فخف الفراش مسرعاً وأعلم القروي بقدوم الصافي ، فما كان منه الا والتفت الى الفراش وخاطبه قائلاً :

ـــ دعه يصعد الينا .

فعاد الفراش والاهتمام بادٍ فى محياه . وقال للصافي :

ـــ تفضل ، اصعد فانه ينتظرك .

فقال الصافي في نبرات واضحة قوية

ـــ قل له ... ينزل الي

فلما اخبر الفراش القروي بطلب الصافي ، نزل اليه والتمس منه ان يرافقه الى الغرفة .

فبادره بقوله :

ـــ ان هذا المكان الفخم لا يناسبني •

فهيا بنا نتنزه على شاطىء بردى ••• فما كان من القروي إلا وقد ترك ضيوفه ممتثلاً أمره ، وطفقا يسيران ويتجاذبان اطراف الاحاديث •• وبعد مضي فترة من الوقت ، رفع الصافي بصره الى القروي وتفرّس في وجهه هنيهة وهو باسم الثغر ، منشرح الصدر وقال :

ـــ الآن انتهت الزيارة فعد الى فندقك ••• !

الصافي وصاحب مقهى

كان الشاعران المعروفان القروى وعمر أبو ريشة فى دمشق ، وقد رغبا فى زيارة الصافي ••• فذهبا الىالمقهى الذى اعتاد الجلوس فيه ويدعى « مقهى أبي كامل » ووقف القروى امام صاحب المقهى ونظر اليه باهتمام وقال :

ـ هل حضر الصافي الى هنا ••؟

فبهت صاحب المقهى وظل صامتا برهة ثم أجابه فى شيء من الدهشة •

ـ ومن هو الصافي ؟

فالتفت القروي اليه وهزّ رأسه أسفاً وحزنا وهو يتنهد ثم قال :

ـ ألا تعرف الى الآن من هو الصافي الشاعر العربي الكبير الذى أصبح كسميه المتنبي مالىء الدنيا ، وشاغل الناس ، وراح يضرب يدا بيد ووجهه يعكس أبلغ معاني الالم ويقول :

ـ يا لضيعة الادب فى بلد يبخس حقوق أصحاب المواهب الاصيلة المبدعة ، ويسود فيه الانتهازيون والدجالون والوصوليون •••!

الصافي وصديقه

كان أحد اصدقاء الصافي يجلس فى تراموای بيروت الى جنب فتاة جميلة ، فلامست رجله رجلها ، فشعر بأحاسيس غريبة تستحوذ على كيانه

كله ... وجاء الى الصافي ورجاه ان يقول في هذا الحادث شعراً ، يصف فيه نوازعه النفسية ، وخوالجه العاطفية ، فلم يستجب لرجائه ... لان الشعر لا يواتيه متى يشاء ..

وغاب الصديق عنه بضعة أيام ، وفي نفسه عتاب عليه ... ولم تلبث الفكرة ان اختمرت في ذهن الصافي وتبلورت .... وزاره شيطان الشعر فقـــال :

غانيـة يهـوى الحشا دلّها ∗ تملكني ان أمتلك وصلهـا
رجلي جهلاً دهست رجلها ∗ فاستنكرت نادمـــة فعلهـا
ما أسطاع تقبيلاً لفيها فمي ∗ لذاك رجلي قبّلت رجلهـا

الصافي في بغداد

التقى الاديب الكبير الاستاذ عبدالقادر البراك[١] في دمشق بالصافي

---

١ ـ الاستاذ عبدالقادر البراك من الم الصحفيين العراقيين اصدر جرائده الامالي والميثاق والايام والبلد ، وكانت في مقدمة الصحف المحلية .. وقد لعبت دورا بارزا في دعم القضايا الوطنية وترسيخ اقدامها ، والوقوف دوما بجانب الشعب ، وسد الثغرات في وجه فصائل أعداء الثورات التقدمية دون الاكتراث لحملات البطش والارهاب التي تمارسها الطغمة الحاكمة آنذاك ضد العناصر القومية المخلصة ... وقد وقف حياته على خدمة الصحافة العراقية ، واتسم نتاجه القيم بطابع الاصالة والعمق ، وامتلأ حيوية وجدية ، وصدر عن تفهم واع ... وهو الصحفي الوحيد الذى لا ينطلق من الزاوية الضيقة في تقييم الانتاج حيث لا يلتفت الى الاسماء بل تهمه جودة العمل الادبي ... ولذا كانت صحفه منبرا حرا للاقلام الشابة المبدعة التي ما عتمت أن لمعت في سماء الادب العراقي المعاصر كنجوم ساطعة الانوار ، والتي يتميز نتاجها بالتاكيد على النزعة الانسانية ...

وقد عرف في الاوساط الثقافية بشخصيته المحببة التى تتمثل فيها صفات الوفاء والاريحية والشمم كما اشتهر باطلاعه الواسع في شؤون الصحافة العربية ، وتراجم رجال الفكر العراقيين المحدثين ..

الذى راح يحدثه عن أول زيارة له لبغداد وهو يهز كتفيه استخفافا ، ويقول بلهجة تشوبها السخرية .

عندما كنت أسكن النجف الاشرف لم أتوان يوما عن ارسال ما تجود به قريحتي من مقطوعات شعرية للصحف العراقية التى كانت تتسابق فى نشرها ، والتعليق عليها ، واحاطة شخصي بهالات من الاطراء والثناء والمديح، كما كانت تزين صدرها بالعديد من صوري ...!

وفكرت بالسفر الى بغداد ، والفرحة تملأ جوانحي ، اذ سيكون وصولي اليها يوما مشهودا ، سيما وقد عرفني الجمهور البغدادي كله بأشعاري وصورى ، فلا ريب انه سيحيطنى بما استحقه من الحفاوة والاعجاب والتكريم ...!

وكان السفر فى ذلك الزمن شاقا للغاية ، بسبب وعورة الطريق ، وانعدام وسائل النقل المريحة ...!

وركبت مع المسافرين عربة قديمة تجرها الخيول الهزيلة ، وبعد متاعب شديدة ، ومصاعب عظيمة ، وصلنا بغداد ...!

وكان مركز وقوف العربات القادمة من النجف الاشرف الى بغداد آنذاك هو « علوة المخضر » فى الشورجة ، وكانت الساحة الواقعة امام هذه العلوة سوقا لبيع وشراء الحمير كما عرفت بعدئذ ...!

وعندما نزلت من العربة خائر القوى ، منهار الاعصاب ، منهوك الجسم تهالكت على أول مقعد فى مقهى محاذ للعلوة ، وانا مشغول الفكر بالاستقبال الضخم الذى سأقابل به من لدن قرائي الاعزاء ، وأتفرس فى الوجوه متطلعا و مترقبا ، وقد سادنى الاعتقاد بأن شهرتى الادبية قد طبقت الآفاق ، وغزت المحافل والاندية ...!

وبينما كنت محلقا فى اجواء خيالاتى البعيدة ، ومرفرفا فى عوالم

احلامي اللا متناهية ، واذا بشخص يتجه نحوي حيث الخطى ، ويتخـذ مجلسه بجانبي ، ويسلم ثم يبسم في وجهي ••• فطربت في سري ، وقلت في دخيلة نفسي هذا اول الغيث •••

التفت الرجل الي والجد ظاهر في عينيه وقال :

– جنابكم من النجف الاشرف ؟ فأبرقت أسرتي وبان البشر فـي وجهي وقلت :

– نعـم

فنظر الي بشغفف زائد ثم قال لي

– ما هو سعر الحمير عندكم ؟

فأجبت والالم يحزّ في فؤادي

– انها غالية الثمن ••• اما تراني قد جئت الى بغداد ••!!

ولم أكد أنهي كلامي هذا ، حتى غادرت المقهى ، موليـا الادبار ، لا ألوي على شيء ، لاركب أول عـربة تعيدني الى النجف ، فأظـل أبعث بأشعاري من هناك الى الصحف والمجلات ، وأحلم بسراب الاوهام •••!••

الصـافي والحـاني

بينما كان المرحوم الدكتور ناصر الحاني وزير خارجية العراق مقيما في احد فنادق بيروت الفخمة وهو معروف بصداقته الوثيقة مع الاسـتاذ الشاعر احمد الصافي النجفي اذ أرسل عليه يستقدمه للقاء به •••

وجاء الصافي الى الفندق الفخم ووقف عند بابه وقال للفراش :

– من فضلك اذهب وقل للدكتور ناصر الحاني ان الصافي ينتظرك •

فحدّق الفراش في الصافي ، وراح ينقل ناظريه من قمة رأسه الى اخمص قدميه وهو في غاية العجب ••• اعرابي بسيط يطلب وزيرا ••• وقف حائراً لا يدري ماذا يفعل •••

ولما لاحظ الصافي ان الفراش لا يحير جوابا ، ولا يحرك ساكنا بدا عليه التأثر وقال :

ـ يا اخي لم لم تنفذ الطلب •• ؟

فما كان من الفراش الا وذهب على الفور ، وأخبر الدكتور ناصر الحاني بقدوم الصافي ••• حيث اسرع الى الباب واخذ يعانق الصافي بحرارة ••• فاندهش الفراش لهذا المنظر الغريب ••• وطفق يحدث نفسه قائلا :

ـ لعل هذا الاعرابي شخصية سياسية كبيرة قد تنكر فى زى بدوى ••• فالتفت الى الصافي وقال :

ـ أرجو المعذرة يا سيدى اذا تلكأت فى القيام بواجبى تجاهك •••

الصافي وصاحب مقهى الكمال

حينما هاجر الشاعر احمد الصافي النجفى الى سورية واستوطن دمشق كان يرتاد مقهى أبي عجاج ••• ولما علم بذلك الشباب المثقف ممن يهوى الشعر ويقرضه التفوا حول الصافي يعرضون عليه نتاجهم الشعرى لتشذيبه أو أبداء الرأي فيه •••

وهكذا اصبح المقهى منتدى ادبيا يختلف اليه عشاق الادب ، ورواد المعرفة حتى غص بهم ••• وبذا ازدادت واردات ابي عجاج •••

ولما سمع صاحب مقهى الكمال بهذا الامر اتصل فورا بالصافى وقال له :

ـ اذا تخليت عن ارتياد مقهى ابي عجاج ، واتخذت من مقهى الكمال محلا لجلوسك فانا على أتم استعداد ان أقدم لك مجانا وجبة غذاء وثلاثة اقداح من الشاى يوميا •••

تشجيع الشعراء الناشئين

وبهذه المناسبة نورد الطرفة التالية :

عوتب الصافي مرة على تشجيعه للشعراء الناشئين حيث قال له أحدهم :

ـ انك تشجع هؤلاء الشعراء الشباب اولا تخشى أن يصبحوا شعراء كبارا فيغطون عليك ؟..

فأجابه الصافي قائلا :

ـ انا افتخر بأن اكون نجما صغيرا تطلع عليّ شمس فتغطيني بشعاعها ليستفيد العالم من شعاع اكبر ، ولا اريد ان تنطفيء الشموس حتى انا النجم الصغير أظهر ...

الصافي وراتبه التقاعدي

عندما قررت الحكومة العراقية تعيين راتب تقاعدى للاستاذ الشاعر احمد الصافي النجفي ومقداره مئة دينار شهريا ... صادف ان دخل مقهى الكمال الصيفى فى دمشق ... وحينما صار وجها لوجه امام الاديب العراقى عارف بغدادى المقيم فى سورية قال له مداعبا :

ـ الآن يحق لنا ان نستدين منك عند الحاجة يا أستاذ ...

فرد عليه الصافي

ـ هل هو راتب تقاعدى أم بنك تسليف ؟..

أصدقاء الصافي

كان الاستاذ الصافي يقطن فى دمشق منذ سنة « ١٩٣٠ » الميلادية ... ولما حلت بالعرب نكبة فلسطين سنة « ١٩٤٨ » الميلادية وظهر الكيان الاسرائيلي على الارض العربية المغتصبة ... بدأت حشود اللاجئين الفلسطينيين تتقاطر على دمشق ... فلم يلبث الاستاذ الصافى الا وسافر الى

صيدا وهي اشهر مدينة تقع في جنوب لبنـان حيث أقام فيهـا حتى سـنة « ١٩٦٤ » الميلادية واتخذ من « قلعة البحر » فيها صومعة له فأوحت اليه بأروع القصائد التي ضمها فيما بعد ديوانه « الشلال » .

وفي السنة الاخيرة من مكوثه في صيدا غادر الى بيروت ... وبينمـا كان جالسا في أحد مقاهيها سأله أحد زائريه قائلاً :

ـ من هم أصدقاؤك الذين تقضي اوقاتك معهم في صيدا ...؟...

فأجابه منشدا

يا سائلي عن صديق عمرى   صديقي البحـر والكتاب

الصافي وصاحب مجلة

كانت احدى المجلات اللبنانية تكثر من نشر الشـــعر دون التقيّد بمستواه الفني ... ولمن هبّ ودبّ من الشعراء وكأنها مجلة اعلان ... وكان صاحبها يلاحق الصافي ويطلب منه بالحاح تزويد المجلة بشعره ... فكان يعتذر ... ولكن رغم اعتذاره كان ذلك الصحفي يلحف في الطلب.. حتى جاءه بيتان من الشعر قدمهما لصاحب المجلة وهما :

أرى شعراء العصر ضلوا طريقهم   فلا يلتقي ما عشت فكري بفكرهم
لذلك آبى الاجتمـــاع بجمعهـم   وشعري يأبى الاجتماع بشعرهم !

وهكذا يثبت الصافي دوماً على أن ممارسة كتابة الشعر ليست ترفاً وانما هي معيشة حقيقية للقصيدة التي تجسّد عذابات الشاعر مع نفسه وفكره وحياته ..!.

عـودة الصافي

احمد الصافي النجفي الشخصية اللامعــة في دنيـا الادب العــربي المعاصر ، ومن نوابغ المفكرين الاحرار ، وفي المقدمة من شعراء العــرب الافذاذ لقد عرفه القراء شاعرا محلقا واسع الخيــال ، عاطفي الاحساس ، انساني النزعة ، ذا عقل راجح يزخر بالحكمة ، وذكاء وقاد ينم عن بعــد نظر ، يملك موهبة شعرية أصيلة لها وزنها في عالم الفــكر والادب ، وعلى درجة كبيرة من الوعي والادراك والنظرة العميقة في اغوار الحياة ...!

انه من شوامخ شعرائنا المجددين ، حاد الحساسية ، متوثب الخيال ، قوي العاطفة ، رقيق الحاشية ، انبثق من صميم الجماهير الكادحة ، ومــلأ دنيـا العرب بأناشيده العذبة ، وارتفع بأحاسيسه الفياضة ، وآرائه الخيرة الى القمة السامقة ، ومدرسته الشعرية المميزة ذات الطابع الفريد تمثــــل شاعرية منطلقة تنزع الى التجديد ...!

وهو في شعره راسخ القدم ، طويل الباع ، قوي التأثير في اوساط المثقفين الواعين ، طلع على عالم الشعر بمضامين جديدة لم تكن تدور في خلد الشعراء العرب المحدثين ، فأمد الادب العربي بفيض زاخر من روائع الشعر التي وضع فيها زبدة تجاربه ، وحصيلة أفكاره ، وعصارة قريحته ، وقد اتى بكل جديد في الرأي ، وطريف في الفكر ، غاص وراء المعنى في كل لجــة ، وجاء به بكرا ، فيه الوان من الجدة والطرافة ، ويحفل بنقد واقعي لحياة المجتمع ، وتعبير عن الانسان ومأساته من خلال تمثله ...! وبذا فتح نوافذ جديدة على الحياة ...!.

لقد حال المرض الذي لازمه دون حضوره مؤتمر الادباء العرب ، ومهرجان الشعر العربي السادس اللذين انعقدا في بغداد ، في اليوم الخامس عشر من شــهر شباط سنة ١٩٦٥ الميلادية واستمرا مــدة عشرة ايام .

ويمتاز شعره بتناسق فى الافكار ، وترابط فى المعاني ، وهو مرآة تنعكس عليه أحوال المجتمع ، ومشاكل حياة الانسان المعاصر ، يزرع أوراد المودة المتبادلة فى القلوب المتنافرة ، ويغرس بذور التفاؤل والثقة وحب الحياة فى النفوس المعذبة ، ويبرز القيم الانسانية فى اجلى معانيها ، فهو بحق يعد فتحا جديدا فى ميدان الشعر ، لصوره المعبرة عن الواقع ، وعمق محتواه الانساني الرفيع ، وتحرره من قيود الابتذال والتقليد والصنعة ..!

والاستاذ الصافي على الرغم من تقيّده بالقوالب القديمة ، فقد طبع شعره بطابع مميّز ، اذ أجاد فى التقاط مواضيعه الشعرية الحافلة بالاحاسيس العاطفية ، وانصب اهتمامه على المعنى ... وروائعه التى نقف امامها معجبين فى نتيجة اعمال الفكر فى ابداع المعاني الجديدة ، ولصوره الشعرية الجميلة التى تبهر القاريء بعمقها وصدقها وبساطتها قد سرت مسرى الامثال بين الناس ، وهى نابعة من اعماق تجربته الانسانية ، وكم وراء شعره من غنى وعمق ، شعره الموسوم بالمضمون المبتكر ، والظمأ الى كشف المجهول ، والزاخر بالتشبيهات المثيرة ، والاستعارات الجميلة ، والمشحون بالنكات النادرة ، واللمحات الفكرية ، والملامح المشرقة التى تحرك المشاعر العميقة ، وتصل الى اغوار النفس ، وتحرر الافكار من مخلفات الماضي السحيق ، وتثير فينا التأمل والتفكير ...!

لقد نشأ وترعرع فى جو مشبع بروح الادب ، لا تطرق سمعه سوى ترانيم الشعر ، حتى اصبح له فى حياته أو فى نصيب ، وابتعد عن المواضيع الشعرية المألوفة ، وولج عالما جديدا ، فابتكر اعمق المعانى واسماها ، ولم يدع ناحية من نواحي الحياة الا وطرقها ، وانطلق فكره الواعي يستوعب اسرار الوجود ، ويهتك ببصيرته النافذة حجب الآفاق ، ويشارك مشاركة سخية فى الفكر الانسانى ، ويعالج القضايا التى تشغل اذهان الناس .... وينشر دعوته الى الاخاء الانساني ، والتأكيد على مبادىء العدالة ، وبث

المثل العليا ، ونبذ الاضطهاد العنصري ، واقامة المجتمع الفاضل على أسس الكفاية والحرية والعدل ..!.

وهو في محاولته الواعية لتطوير مواضيع الشعر نفذ الى كثير من جوانب النفس البشرية ، وتناول ادق اسرار الحياة ، وصوّر مجتمعنا العربي الحديث مما دلل على مواهب اصيلة في عملية الخلق الفني للشعر الجيد المنبثق من واقع الظروف الراهنة التي نعيشها ...!

ولشعره الباذخ الخلاق خصائص مميزة ، وطابع خاص ، لما فيه من وعي شامل لمتطلبات الجماهير ، وفهم عميق للحياة ، وتأثير قوى في مجرى الافكار المتحررة ، والنقد الاجتماعي الهادف ، وابراز فكرة التآخي بين البشر ...! بما لايدع مجالا لادنى شك بأنه شاعر انساني الاهداف والمثل ..

واكثر تجاربه الشعورية مستوحاة من صميم الحياة الشعبية ، ومعطيات الواقع الذي تأثر فيه تأثرا عميقا ، وبلغت أوضاعه السيئة مبلغا كبيرا ... والتي لم يعد ممكناً ولا جائزاً السكوت عنها ..

وظل شعره يجاري تطور الفكر الانساني ، فهو في مستوى ابداعي رفيع ، جديد المعاني ، قوى الفكرة ، متدفق الالوان والظلال والصور ، حافل بابتكار المضامين والاخيلة المجنحة ، تتوفر فيه كل عناصر البلاغة والجمال والقوة ، وتتسع فيه آفاق المعرفة ...!..

هذا الشاعر الغني بعواطفه الانسانية ، ونزعاته التقدمية ، وتجديد المعاني الشعرية ، لم يكن في يوم من الايام بمعزل عن الاحداث السياسية ، فهو شعلة من الوطنية لا تخمد لها نار ، عاش نفس التجربة التي عاشها المناضلون الثوار ، وتشرب روحه حب الوطن ، وشعر بآلام الشعب وآماله ، ولامس حياة الناس ، فبات شديد الاحساس بشقاء الفقراء ، حيث

وصف حالة الفلاح البائسة وجوعه وعريه ومرضه ، وصفا قل ان تجد له نظيرا ، وعالج كثيرا من نواحي الحياة ، ومارس انتقـاد أوضاع المجتمع البالية ، وزهد في اعراض الحياة الزائلة ، والجري وراء المـال والشـهرة والحظوة ، وجعل من الشعر وسيلة للتعبير عن التجارب الانسانية العميقة ، واداة قوية لمحاربة الظلم والطغيان ، لايمانه الـكبير بمسـتقبل الشـعوب المكافحة ، فأسهم اسهاما فعليا في الثورة العراقية الكبرى التى فجرها شعبنا العظيم في الثلاثين من شهر حزيران سـنة ١٩٢٠ ميلاديـة ، وطاردتـه السلطات الانكليزية لالقاء القبض عليه ، وزجه في غياهب السجن ، ولكنه تمكن من الفرار خارج العراق واللجوء الى ايران ، حيث مكث هناك زهاء ثماني سنوات ثم غادر الاراضى الفارسية ، وسافر الى دمشق فاستقبل بحفاوة بالغة من قبل الادباء العرب ، واعاروه عناية كبرى ، واهمية قصوى ، لما ينطوى عليه شعره مـن ثراء بالصور الفنيـة ، وابراز لمفهـوم الواقعيـة والانسانية ، واحاطة بالتطورات الفكرية ، وايمان بقدسية رسالة القلـم حيث وجد نفسه ملزما بالتعبير عن أماني امته العربية ••• وان مسؤولية القومية تملي عليه ان يهدف في شعره الى تحرير الوطن العربى من كـل اشكال الاستغلال والعبودية ••! بعد أن انطلق من موقف حرصه على تأدية الواجب المناط به •••

هذا الشاعر المبدع الذى ادخل على الشعر العربى مواضيع جديدة ، واغنت التجارب الواعية شخصيته وصقلتها ، وصهرتـه آلام الغربة فـى بوتقتها ، وخبر الحياة على حقيقتها ، ووقف على الكثير من اسرارها ، واتخذ من آلامه وسيلة لاسعاد الغير ، وعاش تجربة الكفـاح العـربى بشـعره ، فالهب الشعور القومى فى نفوس المواطنين ، وايقظ اعمق المعانى فى ضمائر الجماهير ، ونبّه الافكار مكامن الاخطار المحدقة بامتنا العربية المجيـدة ، ولم يخفق قلبه بغير المحبة الشاملة ، تكاد اليوم تطويه الاسقام ، وتستبد

به الاحزان ، ويعاني أوصاب الحياة التاعسة ، ويقبع فى زاوية مهملة من زوايا النسيان ، ويلقى من دهر ألوان الارهاب والتعسف ...!

هذا الاديب المعروف بنزوعه الانسان الشامل ، واتساع آفاقه الشعرية ، وتصوير الواقع الجماهيرى المحيط به بعدسة موضوعية ، وتهيئة سبل جديدة للحياة ، والذى يعيش تجربة جيله ، وتطغى على شاعريته الفذة روح انسانية نبيلة ، والذى غذى الشعر بالرائع من انتاجه الادبى ، وصوّر كل ما يطرق ذهنه من افكار ، وغدا مثلا يحتذى بما ابدع من النماذج الشعرية الخالدة ...!

هذا المفكر الواعى الجرىء فى بحثه عن الحقيقة ، والقريب الى قلوب الجماهير ، والذى رفع للشعر صرحا سامقا فى روعة معانيه الجديدة ، وسمو اهدافه الخيّرة ... أما آن له أن يعود الى البلد الذى انجبه ، الى الارض الطيبة التي تعلق بحبها لتكتحل عيناه بنور وطنه العزيز الذى طالما تاقت نفسه الى رؤيته ... ألا يستأهل أن يرفع الى المكان الذى يليق به ، ويكون موضع اكرام بالغ ، ويشمل بكل ما يستحق من رعاية تقيه غائلة الفاقة ، وتوفر له أسباب الراحة بعد أن ذرف على السبعين ، وأصبح فى مسيس الحاجة الى العناية والاهتمام ...!

وعلى الرغم مما لاقى من نكران وجحود وغبن ، فهو لن يكف حتى هذه اللحظة عن التغني بأمجاد العروبة ، والدفاع عن قضاياها العادلة ، ورفع الشباب العربى الثورى الى مستوى مسؤولياته الهامة فى الذود عن كرامة الامة العربية المجيدة ، وتحرير اجزائها السليبة بالدم والنار والحديد ، واقامة المجتمع الاشتراكى التقدمى الذى تشيع فيه كل اسباب الثقة ، وعوامل الاطمئنان ...

وهو يدرك ان تصميم الامة العربية على دره الخطر الداهم ، وتحرير اراضيها المحتلة ، وتصفية الكيان الصهيونى العدوانى هو اليوم اشد من اى

وقت مضى ... كما انه يعلم ان القضية الفلسطينية هى قلب الثورة العربية المعاصرة ومحور نشاطها ، وان الثورات التقدمية المسلحة هى وحدها القادرة على الفوز بالمعركة ، وتحقيق النصر ، وان امريكا فى كل مشاريعها تستهدف ترسيخ الوجود الاسرائيلي فى الارض العربية وخدمة اغراضه ... وان مشروع روجرز الذى يروّج له دعاة الهزيمة يعنى تصفية القضية الفلسطينية ، وتفتيت حركة المقاومة وشل فاعليتها لتظل التربة العربية الطاهرة تدنسها أقدام الغزاة ..

والشاعر وفاء منه لذكرى الشهداء الابراء الذين خضبوا بدمائهم الزكية رمال سيناء والضفة الغربية وهضبة الجولان يرفض منطق الانهزام الداعي للحل الاستسلامى التصفوى ، ويحث الجماهير العربية على التمسك بالحق العربى ، والتصرف وفق المنطلقات الثورية ، والمستلزمات الكفاحية ، ووضع حركة التحرير فى خط سيرها التاريخى ، ومدها بطاقات الدفع الثورى ، والزخم النضالى ... فان بنادق الثوار العرب تشق طريقها الى صدور الصهاينة المجرمين ، وتمثل ارادة الامة العربية فى التحرير الكامل .

ان قبول مشروع روجرز هدفه القضاء على الثورة الفلسطينية والاعتراف باسرائيل ... ذلك المشروع الاستعمارى الذى كشف الاقنعة عن الوجوه الكالحة واظهرها على حقيقتها بعد ان باتت تعرّض حركة المقاومة الفلسطينية لعمليات التآمر والتطويق ، وشل انطلاقتها الثورية ومواجهة خطر التصفية ... والدوران فى الفلك الاستعمارى ...

وكانت لفتة بارعة أضحت مدار حديث الاوساط الادبية فى العراق ، ووجدت صدى قويا فى نفوس ابناء الشعب ، تلك التى ابدتها اللجنة التحضيرية لمؤتمر الادباء العرب الذى انعقد ببغداد فى اليوم الخامس عشر من شهر شباط سنة « ١٩٦٥ » الميلادية ، اذ وجهت الدعوة الى الشاعر العربى الكبير السيد احمد الصافى النجفي ، للعودة الى وطنه العراق ،

والمشاركة فى هذا المؤتمر الادبي الهام ...!

وبهذه البادرة الجديرة بالاكبار والتقدير دلل هذا العهد الجمهورى الجديد الذى يعتبر نقطة تحول فى تاريخنا الحديث ، ومنطلقا الى مستقبل زاهر للشعب العربى كله ، على انه لا يجحد فضل رجاله العاملين فى حقول الفكر ، ولا يتخلى عنهم فى الشدائد والمحن ، ولا يتنكر للمساعى الحميدة التى يؤدونها فى مختلف المجالات و الميادين من اجل ان يكون للحياة معنى انسانى رفيع ...!

والامل كبير بأن اديبنا العظيم سيلبى هذه الدعوة الكريمة ، فيؤوب الى وطنه العراق بعد هذه الغربة الطويلة ، فقد كفاه ما كابد من آلام تحت وطأة الحياة القاسية التى طالما اثارت الاحزان فى نفوس عشاق ادبه الخالد ، وعار فى قدرته الخارقة فى الابداع الشعرى ...!

وقد أزف الوقت لكي يعود هذا البلبل الغريد الى وكره ، فينعم بالاستقرار والسكينة والدعة فى ظل ربوع بلاده الوارف ، وبين اهله واصدقائه بعد هذه الرحلة المريرة الشاقة فى صحارى الاغتراب ...!

لقد حانت عودة الشاعر المضاع الى شطآن دجلة والفرات بعد ان بلغ أوج مجده الادبى ، وحلق فى الاجواء الثقافية ... وان كل شعره تعبير عن حرصه الشديد فى خدمة المواطنين ، وافصاح عن سعيه الحثيث لتحقيق الرفاه والخير لهم ، واعراب عن شعوره بالمسؤولية الكاملة فى التفانى فى سبيل الواجب ... وليس ادل على ذلك من صوغة لكل فكرة بناءة شعرا ، وايثاره المعنى على اللفظ ... فبذل نور القريحة ، ودماء العروق ، واختلاجات العاطفة لشعبه الوفي ، ووقف موقفا سلبيا للعودة به الى عهود الظلام والتخلف . ومازال يؤكد استعداده للبذل والتضحية ..

ليت شعرى متى ارى الصافى مقيما فى بغدادالثورة هادىء البال ،

مستريح النفس ، مطمئن القلب قد تيسرت له سبل الحياة الهانئة ..

انّ كل ما اتمناه ، وغاية ما اصبو اليه هو ان تقع عيناي على الصافي، وقد حث الخطى عبر شارع ابي نؤاس يتطلع الى العمارات الشاهقة المطلة على ضفاف نهر دجلة ، والتي تحكي قصة كفاح شعبنا المناضل ، وتصوّر له اصراره الدائب على تخطي كل العقبات المبثوثة فى طريق تقدمه ... عندئذ سيتولاني العجب ... ثم لا اتمالك عواطفي الجامحة فأبادر الى ضمه بين ذراعي ، واعانقه بحرارة مستعرة ، واغمر وجهه بقبل ملتهبة .. وبلا شعور ستغرورق مقلتاي بدموع الفرح ..!..

ترى هل سيتحقق هذا الامل الكبير اني سأنتظر ... ومهما طال هذا الانتظار الذى يمزّق الاعصاب ، ويحطم الافكار ، ويقتل الاصطبار .

لقد أصبح اعتقادي جازما بأن الصافي شاعر عبقري للاثر العميق، الذى أحدثه فى تطوير الشعر العربي المعاصر من حيث التجديد فى الصور الشعرية ، وفى مجال الصياغة والديباجة .. اذ ليس فى شعره شيء من غرابة التراكيب ، وصعوبة الالفاظ ... وقد اعتمد القومية العربية مرتكزاً لكل أفكاره واتجاهاته وميوله ، وان اداته وهدفه الجماهير ، واصلاح المجتمع العربي الحديث من خلال الممارسة والرؤية الصحيحة ..!..

على لسان الصافي

يا عراقي برغم طول الفراق فيك تشدو جوارحي يا عراقي
وأنا العاشق الذي بك أضحى في دنى الحبّ سيّد العشّاق
فاذا اشتقت للهوى ذات يوم كنت أنت الحبيب للمشتاق
وأذا ما ذرفت دمعاً سخيّاً فلبعدي عن الحمى والرفاق
واذا ما بكيت تحت الليالى فلوجدي المشبوب فى اعماقي
واذا ما شكوت نار التياعي كحمام أنوح في الاطواق
انّه موطني الذى ترعرعت فيه وتنسّمت نسمة الانطلاق
فيه مهد الصبا ومأوى الاماني وينابيع شعري الخلاّق
فاذا ما اضطررت للنأي عنه بعده العيش بات مرّ المذاق
بالمعاناة قد دهتني حياة وسقتني منها بكأس دهاق
وتوالت عليّ سود المآسي ورمتني فى وهدة الاخفاق
ذاب فى وجنتي شحوب اكتئاب وذوت مهجتي من الارهاق
لحت كالنبت فى الخريف تعرّت كلّ أغصانه من الاوراق
أو كطير قصّت جناحاه قسراً فتهاوى من شاهق الآفاق
لا تغرّنك بسمة فى شفاهي انّما الدمع جامد فى المآقي

* * *

يا لقلبي الهيمان في كلّ واد صهرته حرائق الاشواق
كلّما لاح بارق من خيال أتسلّى بمدمعي المهراق
أستشفّ العراق فيه فتحيا ذكريات في قلبي الخفّاق
ويثور الحنين بين ضلوعي ويشبّ النزوع فى أعراقي
لست أنسى فى الصحن عقد النوادى للأحبّاء في الليالي الرقاق
لست أنسى على الفرات جلوسي أقرض الشعر واصفاً ما ألاقي

لست أنسى فى كوفة الجند شدوي — بأغاني الشباب جنب السواقي
لست أنسى عند العمارة[1] بيتاً — كان للشعب موئل الاتفاق
هو بيتي الذى به الصحب خطّوا — للجماهير ثورة الانعتاق
ثورة أجهزت على كلّ ظلم — وأزالت قواعد استرقاق
لست أنسى تلك العهود اللواتي — أزهرت في محلّة المشراق[2]
كنت مثل الهزار ينساب لحني — كأنسياب الطلى بكفّ الساقي
معبدي هذه الطبيعة روّى — ظمأي ماء نبعها الرقراق
أتحرّى مرابع الغيد لكن — لم أحد عن مكارم الاخلاق
أتملّى مفاتن الحسن انّي — عشت عبداً للحسن منذ انبثاقي

* * *

ليت شعري متى الفرات أراه — وهو يجري بمائه الدفّاق
ومتى بلدتي العظيمة تبدو — لعيوني بمجدها العملاق
انّ شعبي متى أقبّل فاه — ولصدري أضمّه في اشتياق
وعراقي متى أشمّ ثراه — ومتى اغمر الربى بالعناق
ومتى فيه أشهد الشمس جذلى — وهي تدنو لمطلع الاشراق
ومتى فيه ألمح النجم يزهو — بسماه ، والبدر قبل المحاق
ومتى خافقي المشرّد يحظى — بأقتطاف المنى وعيش الوفاق
هل ضمير الزمان قد مات فيه — كلّ حسّ بالعطف والاشفاق

* * *

وحشة الاغتراب ألقت بروحي — في الدياجي وشدّدت من وثاقي
وأقام الشقاء فى كوخ قلبي — وطوتني عواصف الانسحاق
فأحسّ الآلام في غور صدري — مثل سيف يحزّ فى الاعناق

---

١ ـ ٢ ـ العمارة والمشراق : محلتان معروفتان فى مدينة النجف الاشرف.

واذا خافقي اشتكى في الحنايا وجرى مدمعي من الاحـداق
كلّ ما قد غرست من ورد حبّ حصدتها مناجل الازهاق
ولاجل الحمى جرعت الرزايا وتحمّلت قسوة الاملاق
حبّ شعبي العظيم أمسى نشيداً لفؤادي ، وخمرة لاغتباقي
أتغنّى بموطني فهو عندي كلّ ما أرتجي لعمري الباقي
ليس شعري سوى عصارة روحي وصدى لوعتي ونار احتراقي
هل أرى موطني قبيل ارتحالي بعد أن بُدّدت غيوم النفاق
وتلاشت ركائز الذلّ لما سحق الشعب زمرة الفسّاق
وتفشى وعيه على كلّ دسّ أينعت فيه بذرة الانشقاق
أفأبقى ذاك الغريب المعنّى يا الهي متى يكون التلاقي

رسالة من الصافي
الى تلميذه الصالحي

فى مطلع سنة « ١٩٦٠ » الميلادية بدأت أنشر سلسلة من المقالات تحت عنوان « شعراء من العراق » فى مجلة « العرفان » اللبنانية الزاهرة التى كانت تصدر فى صيدا ... وقد ترجمت فيها لكثير من الشعراء العراقيين المعاصرين ، وأوردت نماذج من أشعارهم التي تناولت مختلف مجالات الحياة ، واعتمدت فى عرضها على القراء أسلوب التحليل الادبي ، والكشف عن الجوانب الجمالية فيها ، ومضيت فى سرد اتجاهاتها الفكرية بطريقة الدرس المنهجي والنظرة الموضوعية ...

وكانت مقالاتى الاربع التى كتبتها عن الاستاذ احمد الصافي النجفي قد استأثرت بأهتمام الاديب العربي الكبير الاستاذ نزار الزين صاحب مجلة « العرفان » الغراء فجمعها وأخرجها فى كراس خاص ووزعها مجانا على المعنيين بشؤون الشعر الحديث ... وذلك فى سنة « ١٩٦٢ » الميلادية .

والاستاذ نزار الزين من ملامح لبنان الفكرية اللامعة ، ومن عناصره الوطنية المخلصة ، جم النشاط السياسي والثقافي ، وله باع طويل فى خدمة قضايا امته العربية المجيدة ، وقد سخّر كل امكانياته المادية والمعنوية فى الميدان القومى والوطنى ، ولم يكترث أبدا بما كانت تصدمه من عقبات ، أو يستسلم كالمغلوب على أمره تجاه ما كان يعانيه من قلة الموارد المادية ، وما يقاسيه من تنكر الاصدقاء ، ومكائد الحاسدين ..!.

والاستاذ نزار الزين من أسرة عربية معروفة فى مدينة صيدا الواقعة على ساحل البحر الابيض المتوسط فى جنوب لبنان ... ووالده المرحوم « أحمد عارف الزين » من قادة الحركة العربية التحررية ... وقد ناضل

بضراوة وعنف لتحقيق الرفض الكامل لكل شكل من اشكال الاستعمار والسيطرة الاجنبية ، وسد الثغرات التى مكنت الاعداء على النفوذ منها ... ذو قلب عامر بالايمان ، ونفس صقلتها التعاليم الاسلامية ، لا يهادن في دينه، ولا يداهن فى عقيدته ، ولا يحفل بالمادة، ولا يخلبه بريقها الزائف... وقد ضرب الامثلة الرائعة فى نكران الذات ، ومقارعة الجور والاستبداد... فهو حرب على الاستعمار واعوانه ، ونصير للشعوب المكافحة لنيل حريتها المغتصبة ..! كما ان بيته كان مفتوحا لرجال الفكر ، وحملة الاقلام الذين يفدون من الاقطار العربية لزيارة لبنان ...فيلقون منه بالغ الترحاب ، وسابغ الكرم ، ووافر الرعاية ..!..

وقد استطاع الاستاذ نزار الزين من خلال الاتجاه الثوري الاصيل الذى ينتهجه ، واسهامه فى تطوير النضال الجماهيرى فى لبنان أن يعطى مجلة « العرفان » العقائدية روحا شعبيا جماعيا حتى أصبحت شرارتها المتوهجة دليلا على درب الكفاح القومى ..!..

ونحن لا نعدو الحقيقة فى كل ما ذكرناه عن الاستاذ نزار الزين فقد نشأ فى كنف أب وهب حياته للعلم والصحافة والجهاد ، وترعرع فى بيت كان يفد اليه كل يوم عدد غفير من دارسي الآداب والعلوم ... فكان لذلك اثره الكبير فى تكوينه العلمى والادبى والسياسى ... بالاضافة الى دراسته الفن الصحفي فى جامعة السوربون فى باريس ، وتخرجه فيها بامتياز ...

وكان الاستاذ الصافي فى تلك الفترة الزمنية يقيم فى صيدا ليكون دوما على مقربة من صومعته الفكرية « قلعة البحر » ... وكان يتردد الى مكتب اخيه الاستاذ نزار الزين ، وينشر روائعه الشعرية فى مجلته ... وحينما اطلع على مقالاتى التى كتبتها عن شعره أملى عليه رسالة تقديرية جاءت قطعة ثمينة من الادب الرفيع ، وتحفه من تحف الفن الخالدة ... وفيها تفيض نفسه شفافية ، وتجيش روحه عذوبة ، وتبرهن على تقييم نزيه

لجهود العاملين فيحقل الفكر وما يقدمونه في هذا الشأن منعطاء وبذل ...
كما تنطوى على روح الاخلاص والوفاء الكامنة في نفس شاعرنا الصافي الذى ما فتيء يمد أدباء الشباب بنسغ المثابرة والتشجيع كي يواصلوا العمل المثمر من أجل مزيد من الانتاج الادبي المبدع . وممارسة النضال على الساحة العربية ...

وما كان من الاستاذ نزار الزين الا وبعث الي نص الرسالة بالبريد ، والتى يقول فيها شاعرنا الصافي :

« الصافي يقدم لك تحياته وأشواقه ، ويقول لك انه لا يريد ان يشكرك على دراستك الممتعة لاعتقاده ان أدبه المخلص يمثل روحك المخلصة ... ويقول لك : لو لم تكن قطعة من روحه لما فهمت اسرار روحه ...

ويقول ايضا : لقد تعجّب قسم منالادباء المعاشرين للصافي وقالوا :

ـ لقد عبّر الاستاذ الصالحي بكتابته عنك بما يجول في خواطرنا بعد ان عرفنا ادبك وعاشرناك ونحن نعجب لمن لم يعاشرك كيف يكتب عنك وكأنه معاشر لك منذ مدى طويل ... وهذا انما يدل على صفاء الروح التى تستشف من سطور الاديب حياة صاحبه ، ويهنئك على هذه الالمعية التى تجعل هذا البيت المأثور ينطبق عليك :

الالمعي الذي يظن بك الظن　　　كأن قد رأى وقد سمعا

ان الاستاذ الصافي قد أبرز بشكل واضح وصريح ، وأصاب كبد الحقيقة حينما قال ما معناه :

ـ ان الكاتب يستطيع ان يكتب عن أديب ما فتأتي كتاباته صورة طبق الاصل لاطوار شخصيته ، وطراز حياته ، ومرامي تطلعاته ، وزبدة أفكاره دون أن يحظى بمقابلته ويراه ... وبامكانه أن يكشف عن خبايا نفسه ،

ومكنونات روحه من امعانه النظر فى آثاره القلمية ، ونتاجاته الفنية .

وقد كتبت عن الاستاذ الصافي ولم اكن قد التقيت به ... وذلك للترابط الروحى بيني وبينه ... حيث انني منذ حداثة سني وانا أعيش تلميذا مواظبا على التتبع والتقصي فى مدرسته الشعرية التى تأتى كل يوم بجديد ... انه شاعر صادق الاحساس والمعاناة ... وكل قصائده تتسم بوحدة البناء العضوى ، واختيار الاوزان المناسبة لها بحيث تمنحها سمفونية صافية تتسق والمحتوى اتساقا رائقا ... ونلاحظ الانسجام التام بين مقطع وآخر مع الوحدة الموضوعية ، والهيكل المتماسك ، والمعاني المتلاحقة ... فتخرج القصيدة فى مستوى فني رفيع تمتاز بصورها الحية التى تعكس حقيقة الضجر الكامن فى أغواره ، وحصيلة شعوره بالقلق النفسي الذى تشوبه مسحة الحزن النابع من احساسه ، ويسهم جديا فى التعبير عن مطامح الجماهير ، ويقف سدا منيعا فى وجه مطامع الدخلاء ، وينطلق من الايمان بمسؤولياته التاريخية فى الاطلاع على مشاكل الشعب ، والبحث عن السبل الكفيلة لحلها ، وينبيء عن ارهاصات متوقعة لتحقيق بريق الامل الذى يرتسم على ملامح المواطنين ... أمل التحرر من اغلال الجهل والفقر والمرض ...

وكنت اقرأ كل قصيدة ينشرها الصافي فى المجلات والصحف العربية ، واجعلها محور اهتمامى الذى لا احيد عنه ، ولا افرط به ، واقتني دواوينه المطبوعة ، واقضى اوقاتا ممتعة فى دراستها وانا مأخوذ الفكر ، مفتون العقل بما اجد فيها من روعة المعانى ، وجمال التعابير حتى واتاني الحظ فقابلته بدمشق فى شهر شباط من سنة « ١٩٦٩ » الميلادية فازددت به اعجابا ، وتضاعف له اكبارى بعد أن تلمست فى شخصيته البساطة المتناهية ، والتواضع العميم ، والادب الرقيق ، والوفاء العميق ، والمودة الصافية ، والصراحة الجريئة ..!..

وعلى مر الايام أخذت تتعزز صداقتي له ، وتترسخ علاقتي معه ، وتتوطد صلاتي به ••• ولكنها صلة التلميذ الوفي بأستاذه النبيل •• تلك التلمذة التي تقتضي مني الاستمرار الجدي على التحصيل الادبي ، والارتشاف النهم من منابع شعر الصافي التي يتدفق معينها العذب دون انقطاع ••• فتجذب انشداد الجماهير اليها ، والالتحام بها •

ومن الضروري ان نؤكد هنا ان الدعامتين الاساسيتين اللتين ترتكز عليهما المفاهيم النقدية الجديدة هما الذوق والعلم ••• واما عملية النقد ذاتها فهي ان الناقد يحلل القطعة الادبية المنقودة ويعللها ••• وان التحليل والتعليل عمليتان ينفذهما العقل الناضج ••

ان الناقد في المرحلة الاولى يطالع النص الادبي مطالعة قارىء متذوق فهو اما ان ينتزع اعجابه ، أو يثير كراهيته ••• ومتى ما حاول وضعه على طاولة التحليل المطبوع بالطابع العلمي فمعنى ذلك انه التزم بالاساليب المنهجية التطبيقية •••

ومن هنا نستطيع ان نقول ان عملية النقد هي ضرب من التحليل والتعليل ••• وللوصول الى الغاية المنشودة فهناك قيم نقدية سائدة في الاوساط الثقافية يعتمدها النقاد المعاصرون للقيام باداء مهمتهم ••• فمنهم من يختار جانب اللغة في تحليله للنص المنقود ، ومنهم من يجنح الى التحليل النفسي فيبرز ما فيه من دوافع خفية ، ومنهم من يتناول الجانب الاجتماعي في الكشف عن ظروف البيئة التي اثرت فيه •••

وهكذا تتضافر جهود النقاد بالقاء الاضواء على القطعة الادبية المنقودة من زوايا متعددة ، ونواح مختلفة ••• وكل واحد منهم يكمل عمل الآخر ••• ان الناقد حر في اختيار اي جانب من تلك الجوانب الثلاث خلال ممارسته لعملية النقد •••

والآن اخلص الى نتيجة هى اننى فى كتابي « شاعرية الصافي » لم اخرج عن اسس هذه المقاييس النقدية وتطبيقاتها ، او أتنكر لاصولها الموضوعية ••• وارجو ان يكون التوفيق حليفى ••• وحسبى اننى قد قمت ببعض الواجب أزاء شخصية ادبية متميزة هي فى القمة بين ادباء العرب المعاصرين ••• انه ذو روح اصيل ، وليس فى قصائده صدى غيره من الشعراء ، سواء فى اسلوبه أو الفاظه ، وانه نسيج وحده فيما يعالجه من مواضيع ••• ونتاجه الشعري له كل ما يميزه عن غير من تعابير وأجواء ••

محتويات الكتاب

الى القاريء العزيز

ملاحظــة :

لقد وقعت في ثنايا الكتاب بعض الاخطاء المطبعية الطفيفة رغم الجهود الكبيرة التي بذلتها في تلافيها ...

وأود هنا أن أشير الى خطأين ... وأدع البقية لذكاء القاريء وفطنته وهما :

الخطــأ	الصـــواب	الصفحة	السـطر
طيبها العشّاق	طيبه العبّاق	٢١٦	١٢
نزهتي ان المشاة وكانت	نزهتي أن أرى المشاة وكانت	٢٢٤	١٦

صدر للمؤلف

١ ـ ضباب الحرمان	« مجموعة شـعرية »
٢ ـ شاعرية يوسف عزالدين	« دراسة أدبية »
٣ ـ شاعرية ابي المحاسن	« دراسة أدبية »
٤ ـ تحرير فلسطين	« في القضايا المصيرية »
٥ ـ شاعرية الصافي	« دراسة أدبية » بين يديك.

يصــدر للمؤلف قريبـاً

الصــافي المفكــر

١٣٤/١٠٠٠م
١٩٧٠/٩/١م